في رحاب القرآن الكريم

(دراسة في البيان والتراكيب)

تأليف :

الدكتور محمد الحجوي

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1431هـ/2010م

فهرس الموضوعات العامة

تقديم

حظِي القرآنُ الكريمُ بعددٍ لا يحصى من المؤلفات المتعلقة به في مجالات التفاسير والدراسات المتخصصة وترجمة معانيه إلى لغات العالم، وغيرها من الجهود التي جعلت كتاب الله العزيز في صدارة الكتبِ من حيث العنايةُ الفائقة الموصولة به تفسيراً وشرحاً وتدريساً واستنباطاً واقتباساً، فقد استُخرجت بعضُ كنوزهِ البلاغيةِ، ودُرستْ قراءاتُه ورسمُه، وفصِّلتْ أحكامه، وأُبرزتْ نواحي إعجازهِ بمختلفِ أنواعها، وجُمِعَ ما فيه من أخبار وحِكم وآثار، وأسماءِ أعلام، وصُنِّفت كتبٌ في غيبياتهِ ومواعظهِ، بل توزعتْ عناصره وموضوعاته إلى علوم كُتبتْ فيها مصنفاتٌ ومتونٌ وشروحٌ وحواشٍ يصعبُ حصرُها.

ومن تلك العلوم التي ألفَ فيها القدماءُ والمعاصرون، علمُ البلاغة بفروعه الثلاثة : المعاني، والبيان، والبديع : فالقرآن الكريم معجزٌ بأساليبه ومعانيه، تحدَّى اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بإعجازه بلغاءَ العرب في عصرالنزول وما بعده، واستحقَّ أن يعرفَ الناسُ أسرارَ بلاغته وملامحَ إعجازِه. ولئنْ كانتْ مراحلُ تطور هذا العلم قد شهدتْ فترةً متميّزةً في عهدِ أعلامه من أمثال أبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، وأبي يعقوب يوسف السكاكي، فإنها قد شهدتْ في القرون المتأخرة، قصوراً في التأليف والتدريس، وغلبت على أهلها سِمة التقليد غير المبدع، وتكررت في كتبهم تعريفات أولئك القدماء واقتصروا على بعض أمثلتهم وتصنيفاتهم.

وحرصاً من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على المساهمة في تطوير هذا العلم وتوثيق صلته بالقرآن الكريم، رأتْ أن تُقدِّمَ إلى القراء هذه الدراسة التي تحملُ عنوانَ **(في رحاب القرآن : دراسة في البيان والتراكيب)** للدكتور محمد الحجوي، الذي تولى تدريس هذه المادة على مدى عقود في الجامعات المغربية.

ففي الكتاب تمهيدٌ يتناول أثرَ البيان في تثبيت العقيدة انطلاقاً من أثر البيان في مشاعر الإنسان المسلم وأحاسيسه، يتلوه عرضٌ لجهود البلاغيين في درس بيان القرآن، والإعجاز فيه، والدلالات الأسلوبية، والتصوير البياني في القرآن، والظواهر الأسلوبية في البيان القرآني. في حين ركَّزت الخاتمة على دور القرآن الكريم في إغناء علوم اللغة

العربية، وبخاصة دلالة التراكيب وأسرار البيان والإعجاز، وتمَّ تذييل هذا الكتاب بفهارس عامة تناولت بالتفصيل معظم الشواهد والاقتباسات الواردة فيه، وهي : فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية، وفهرس الأمثال، وفهرس الأبيات الشعرية، وفهرس الموضوعات، وفهرس المصادر والمراجع، في جهد علمي يُقدَّر لصاحبه ويُشكر عليه.

ويسعد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن تتوجه بالشكر للأستاذ المؤلف الدكتور محمد الحجوي على جهده المبذول في هذا الكتاب القيم، وتأمل أن تكون مساهمتها هذه في العناية بعلم البلاغة، موصولة بإسهامات أخرى لها على المستوى الجامعي في العالم الإسلامي، خدمةً للقرآن الكريم ولغته الشريفة.

والله ولي التوفيق.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

إن الثقافة والفكر في المجتمع الإسلامي لم ينفصلا في يوم ما عن هدي القرآن الكريم وتعاليمه وقوانينه وشريعته السمحاء. ولم نجد في تاريخ الفكر الإنساني كتابا أثر في الإنسانية بمضامينه وأخباره وهديه وبيانه وحكمه وأمثاله مثل القرآن الكريم. لقد هدى العرب الذين كانوا غارقين في الضلال، فأصبحوا سادة الناس بما نالوا من عزة ومكانة في مشرق الأرض ومغربها بالعلم والهدى والسلوك القويم. وكان تأثير الكتاب العزيز في العلوم والفكر بالغ الأثر، فقد كان مصدر العلماء في علوم اللغة، وفي القوانين والأنظمة والتشريعات التي ترسي أسس المجتمع الإسلامي، وتنظم العلاقات بين أفراده.

أما البحوث في الجانب اللغوي والأدبي والبياني في كتاب الله فتمثل أرقى ما بلغ إليه العرب في لغتهم وأدبهم وبيانهم. لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وبيانهم ليكون مماثلا لما عرفوه من بيان ومعان في أشعارهم وخطبهم، ومن هنا جاء تحدي كتاب الله للعرب، لأنهم سمعوا كلاما من جنس كلامهم، وبيانا من جنس بيانهم. لكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله، وقد دعاهم القرآن إلى ذلك بصريح العبارة في قول الله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فآتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[1].

هذا التحدي له دلالاته القوية لكونه وجه لأمة البيان التي شهد لها الجميع بأنها فاقت جميع الأمم في البيان والفصاحة ورجاحة العقل. قال حازم : «هذا على أن العرب انتهت من إحكام الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس إلى ما لم تنته إليه أمة من الأمم»[2].

ولذلك وجدنا العقلاء منهم قد اعترفوا بتفوق بيان القرآن على بيانهم، وأقروا بأنهم ما سمعوا مثل هديه ووعظه وحكمه وأخباره وقصصه ومعانيه بأسلوب بلغ غاية

---

(1) سورة البقرة، الآية 22.

(2) منهاج البلغاء، ص 122.

في الجودة والجزالة، ومعان عبرت عن سمو الفكر الذي لا يمكن أن يصدر من بشر مهما بلغت مكانته في العلم. وإذا كان للقرآن هذه الخصائص الفكرية والأسلوبية والبيانية فلا غرابة أن يكون المصدر الأول للباحثين في تأليف علوم الدين واللغة والبيان والفكر. ولم يتغير هذا النهج برغم تقدم الأبحاث في العلوم النظرية والتطبيقية، لأن أصول الفكر واللغة والبيان اكتملت فيه، فأصبحت آياته البينات مرجعا لكل من أراد أن ينهل من ينابيع الفصاحة العالية، وحجة يدعم بها الباحث فكرة أو رأيا. كما أن الكتاب العزيز حافظ على سلامة اللغة العربية طيلة هذه القرون لأن تعلمها مرتبط بفهم العقيدة وبالعبادة، وبفهم معاني الآيات البينات التي يجب أن ترتل بهذه اللغة الشريفة.

وبرغم ما أصاب اللغة من ضعف في عصر الانحطاط فإنها لم تندثر مثل لغات أخرى بل عادت إلى صفائها وقوتها بفضل كتاب الله الذي حافظ عليها، وتراث العرب الشعري والفكري الذي أنتجوه في عصر الازدهار. وبذلك أثبتت اللغة العربية من خلال ارتباطها بكتاب الله قدرتها على أن تكون لغة الفكر والأدب والعلم في عصور الازدهار، وفي مرحلة النهضة الحديثة التي تشهد فيها حركة مزدهرة في بحث خصائص اللغة العربية.

والمباحث التي نعرضها اليوم بين يدي القراء هي دراسات في دلالات التراكيب والبيان القرآني، وهي مباحث تسهم في بيان خصائص لغة القرآن وجمالياتها وتناسبها، والأثر الذي أحدثته في الأدب واللغة والفكر مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ **قرآنا عربياً غير ذي عوج** ﴾[1].

وإننا إذ نقدم هذا العمل الذي كان ثمرة جهود متواصلة لتدريس البيان العربي والبيان القرآني لطلبة الأدب نرجو من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا في بيان جزء ضئيل مما تزخر به الآيات البينات من سلامة في التراكيب، وسمو في المعاني، وبراعة في التصوير، وجمال في التناسب. وأن تضيء جانبا من الفكر الإسلامي النير الذي سعدت به الإنسانية طيلة هذه القرون، وأن تكون بذرة طيبة تسهم في النهضة التي يتطلع إليها العالم الإسلامي في المرحلة الراهنة.

والله ولي التوفيق، وبالإجابة جدير.

الدكتور محمد الحجوي

---

(1) سورة الزمر، الآية 27.

تصديـر

أثر البيان القرآني في تثبيت العقيدة

لم يكن شيء أكثر قدرة على تغيير مشاعر وانفعالات وأحاسيس الإنسان العربي من العبارة البيانية البليغة المؤثرة بدلالتها وإيحائها ورمزها وإيمائها. كانت الكلمة البليغة المحكمة تفعل فيه ما لا يفعله السحر الذي كان يؤمن به، وتغير أوضاعه من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، فترى حزنه قد تحول إلى فرح، وسخطه إلى رضى، وصراخه إلى صمت، وانفعاله إلى طمأنينة وسكينة. كان تأثير الكلمة أقوى من ضربة سيف، وطعنة رمح، بل أكثر من منازلة جيش جرار بعدته وعتاده؛ وكم من كلمة شاردة أججت حربا ضروسا قضت على الأخضر واليابس، وكم من كلمة محكمة بليغة شريفة أخمدت فتنا وحروبا ما كانت لتهدأ بالجيوش الجرارة، وكم من كلمة طيبة ضمدت جروحا عميقة كانت تفرق بين الأخ وأخيه، وبين أفراد العشيرة الواحدة، وكم من كلمة طيبة بدلت اليأس والقنوط أملا، والخوف والفزع رجاء، والكره والبغضاء محبة. وبالكلمة وحدها تغلب الإنسان العربي على جدب الصحراء، وشظف العيش، وقساوة الطبيعة. وبالكلمة الطيبة التي بشر بها الإسلام، كلمة التوحيد والسلام والمحبة توحدت القبائل العربية بعد تمزق وقتال، وتأسست الدولة الإسلامية قوية البنيان، عزيزة الجانب، منيعة الأركان، هدت عروش الطغاة الجبابرة، ونشرت عدلها في أقطار المعمور، شرقه وغربه، شماله وجنوبه؛ ونعمت الإنسانية في حكم الدولة الإسلامية بظلالها الوارفة، وثمارها الطيبة بالمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية فامتدت جذورها، وتشعبت فروعها عزيزة قوية منيعة، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾[1].

وإذا كان للكلمة هذا السلطان القوي في النفوس، وهذا السحر العجيب في العقول، فإن الشرفاء والعقلاء، وأهل الخير والصلاح والفضل كانوا يخشون أثرها القوي في النفوس ولا سيما كلمة الذم والفحش، لأنهم يعلمون أنها إذا خرجت فلا يستطيع أحد

(1) سورة إبراهيم، الآيتان 24-25.

ردها، أو تغيير مسارها. ولذلك كان الإنسان العربي الذي ولد في بيئة الفصاحة والبلاغة، وشب في منهلهما العذب أكثر الناس معرفة بأثرها، وبقدرة تغلغلها في القلوب، وقوة سلطانها على العقول والنفوس. وقد كان العرب في محافلهم ونواديهم وأسواقهم الأدبية، وفي كل تجمع يريدون منه تحقيق هدف مادي أو معنوي في السلم والحرب، يقدمون خيرة الخطباء والشعراء والبلغاء والفصحاء ليعددوا ببلاغة وفصاحة وبيان مناقبهم وأنسابهم وأحسابهم وأمجادهم أمام الوفود والجماعات. ومن هنا ندرك السبب الذي جعل رسول الله عليه السلام يعتمد على حسان بن ثابت، رضي الله عنه، في الرد على شعراء المشركين حينما اشتعلت حرب الكلمة بين المسلمين وأعدائهم، لأن حسانا، وهو الشاعر الفحل المتمرس بالكلمة قبل مجيء الإسلام، كان أقدر شعراء الإسلام على القيام بهذه المهمة الجليلة في مرحلة قيام الدولة الإسلامية التي كانت تحتاج إلى قوة السيف لرد كيد الكائدين، وإلى الكلمة الحادة القوية التي تفحم أعداء الدعوة. كما كان الرسول عليه السلام يستدعيه للرد على وفود قبائل العرب التي كانت تأتي لتقديم البيعة وإعلان إسلامها حين أتم الله نعمته على المسلمين بفتح مكة، معقل الشرك، وموطن العصبة الضالة التي ناصبت العداء للرسول عليه السلام طيلة ثلاثة وعشرين عاما حتى هزم الله الأحزاب. وقد كانت الوفود تصحب معها أشرافها وخطباءها وفحول شعرائها، فكانوا يقفون أمام الرسول عليه السلام يذكرون ماضيهم وساداتهم وأشرافهم وأمجاد قبيلتهم، كقول الزبرقان بن بدر، وكان في وفد تميم :

نحن الكرام، فلا حي يعادلنا   منا الملوك، وفينا تنصب البيع

فرد حسان على الوفد بقصيدة أبلغ من قصيدة شاعرهم، جعلت أحد أشرافهم يقر بأن شاعر الرسول أشعر من شاعرهم. وفي هذه الإشارة دلالة قوية على نصرة الإسلام بالكلمة بعد سقوط معاقل الشرك التي كانت تحاربه بالسيف والكلمة معاً. لكن كلمة الحق والإيمان والهدى التي جاء بها الإسلام كانت أقوى من ضلالهم وبهتانهم وكذبهم.

والقصيدة التي رد بها حسان، رضي الله عنه، على الوفد يقول فيها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله، وبالأمر الذي شرعوا[1]

وكان حسان بمواقفه النبيلة وقوافيه المحكمة شاعر الدعوة الإسلامية بحق، وفارس حلبتها، والمعبر بصدق عن سماحة الإسلام، لأنه رد على الأعداء بسهام أنفذ من

---

(1) ديوانه : 304، الذوائب : السادة.

سهامهم حينما اشتد إيذاؤهم، وقوي شرهم قبل الفتح في معقل الشرك مكة. ولما أتم الله نعمته على رسوله الصادق الأمين بفتح هذا المعقل، وأصبح الناس يدخلون أفواجا في الإسلام طواعية وإيمانا بمبادئه السمحاء، وشريعته المنقذة من الضلال، كان حسان ينشر فضائل الإسلام ومثله العليا، وقيمه السامية، وأخلاقه الفاضلة، وشريعته الربانية بين وفود القبائل التي قدمت إلى مكة، فحقق بلسانه ما لم تحققه السيوف والرماح، ونال من الأعداء ما لم تقدر عليه الجيوش الجرارة في ميدان القتال : «كان حسان يتولى في الدولة الإسلامية الناشئة عملاً جليلاً لا يقل خطره عن قيادة الجيوش المحاربة»[1].

وكان الرسول عليه السلام، وهو العربي الفصيح الذي أوتي جوامع الكلم، يتأثر بالكلمة البليغة الطيبة، ويثني على البيان، وهو القائل : «إن من الشعر لحكماً، وإن من البيان لسحراً».

وأخباره عليه السلام مع الشعراء وأصحاب البيان كثيرة، وكلها تدل على التأثر والإعجاب بقوة الكلمة البليغة. «قيل : إن قتيلة بنت النضر بن الحارث عرضت له ـ وهو يطوف ـ فاستوقفته، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وكان قد قتل أباها، فقالت :

فليسمعن النضر إن ناديته	أم كيف يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد إلى المنية متعبا	رسف المقيد، وهو عان موثق
أ محمد ها أنت ضنء نجيبة	من قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما	من الفتى، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة	وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال الرسولﷺ : «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته»[2]. إذا كان هذا هو حال العرب في البلاغة والفصاحة في مرحلة نزول الوحي على الرسول الأمين، فلا نستغرب أن يكون الكتاب المنزل على خير خلق الله أجمعين أبلغ من بلاغة العرب، وأفصح من فصاحتهم، ليكون حجة للرسول عليه السلام في عصر كان للخطباء والشعراء والفصحاء نفوذ وتأثير كبير في المجتمع. لقد نزل القرآن على أمة البيان بقوة تراكيبه، ومحكم بيانه، وصدق وعده ووعيده، وسمو حكمه، ودلالة مواعظه، وصدق أخباره وقصصه وغيبياته؛ ولم يستطع أصحاب البيان أن ينبسوا بكلمة واحدة، وعجزوا عجزاً مطلقاً في

---

(1) حسان بن ثابت، ص 180.

(2) العمدة : 1/137-138.

الرد، والحيرة بادية على وجوههم وهم يسمعون قرآناً عربياً مبيناً جاء بلسانهم يتحداهم ويطلب منهم الحجة والبينة فيما يدعون، وهم الذين كانت أقوالهم تسير بها الركبان، وتتردد في الأندية والمحافل، يباهون بها سائر الأمم. فقال لهم، عز من قائل : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[1].

هذا التحدي له دلالته القوية وسره الكبير في تثبيت العقيدة، لأن فيه تقريعا فظيعا واستخفافا كبيرا بأصحاب العقول والجاه، وتطاولا صارخا على الذين لم يخلقوا إلا للكلمة والشجاعة والتحدي والمقارعة والمواجهة، كانوا يحيون من أجلها، ويتعلمها الخلف عن السلف، ويحرصون على استمرارها فيهم جيلا بعد جيل حتى ضرب بهم المثل في البيان والشجاعة. ولا ريب أن بعض بلغائهم وفصحائهم أرادوا كسر هذا التحدي صيانة وحفظا لمكانتهم، وقد فعلوا، لكنهم اكتشفوا ضعف محاولاتهم، وسخف كلامهم، فلم يعلنوه للناس لعلمهم أنه لم يبلغ سمو كلمة القرآن في حقيقتها ومجازها، وفي إيجازها وإطنابها، وإجمالها وتفصيلها، وتصريحها وكنايتها، وذكرها وحذفها، وإيمائها وإشارتها. والعقلاء منهم، شعراء كانوا أو خطباء أو فصحاء أو حكماء، أدركوا هذه الحقيقة، فتفرغوا لتدبر آياته البينات، وفتحوا عقولهم وقلوبهم لهذا النور الذي شع ليزيل عنهم ظلمات الجهل، وينشر بينهم الأمن والود والسلام والمحبة؛ فهداهم الله إلى معرفة أسراره وبيانه وحكمه ومواعظه، وعملوا بتعاليمه في عبادتهم وشؤون حياتهم، فصلح حالهم في الدنيا، ولقوا الله، وهو راض عنهم. وأما الذين طمس الله على قلوبهم، وعميت بصيرتهم، فقد كانوا يهزءون بهذا النور برغم علمهم بأنه كلام حق، وهداية إلى الخير والصلاح، وطريق إلى الفضائل والمثل والسلام فأمعنوا في الباطل والكذب، وجاهروا الرسول عليه السلام بقولهم : «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، لا نفقه ما تقول، وفي آذاننا وقر، لا نسمع ما تقول، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك، فاعمل بما أنت عليه، إننا عاملون بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئاً»[2].

فحرموا من فضائله الربانية، وساءت أحوالهم في الحياة الدنيا والأخرى، وأولئك هم الأخسرون.

وإن ما أدركه العقلاء وأصحاب الفضل من العرب الأوائل الذين فتح الله قلوبهم لهذا النور في بلاغته وبيانه وإعجازه وأسراره بسليقتهم وملكتهم وطبعهم، أدركه

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 22-23.

(2) السير : 338/1. الإشارة هنا إلى قوله تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ (سورة فصلت، الآية 4).

العلماء في عصور ازدهار البحث العلمي وانتشار حركة التأليف في علوم اللغة العربية وآدابها، وفي الفلسفة والفكر الإسلامي.

لقد وقف هؤلاء العلماء بالدراسة المتأنية والبحث الجاد، والمقارنة الدقيقة للأساليب على خصائص اللغة تركيبا ودلالة وتصويرا وصوتا، فوجدوا لغة القرآن ألفت تأليفا منسجما في حروفها ومفرداتها ومخارج أصواتها، وأحكمت إحكاما دقيقا في معانيها ودلالتها وتصويرها ونسجها؛ فلا عوج ولا غموض ولا إبهام، ولا اضطراب ولا إسفاف ولا إحالة. وهذا هو السبب الذي جعل لغة القرآن الكريم ترتل بنغم موسيقي بديع، يريح النفوس، ويطمئن القلوب، وتتقبله الأسماع بارتياح، فينفذ إلى القلوب مثل الهواء العليل، ويحدث فيها مثل ما يحدث الماء في التربة الطيبة. وصدق رب العزة، وهو أصدق القائلين في قوله : ﴿ **ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[1].

ومن هنا نجد العلماء قد اجتهدوا في فترة مبكرة لبيان هذا السر الإلهي في قرآنه المجيد، وجعلوا آياته البينات في تركيبها ودلالتها مقياسا للرصانة والبهاء والجلال والوقار، يقتبس منه البلغاء لتحسين كلامهم، والعلماء لتوثيق حجتهم. قال السكاكي : «ولله در أمر التنزيل، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى شيئا منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه»[2].

وكلما تطورت العلوم الإنسانية، ومناهج البحث، وطرائق الكتابة والتأليف وبخاصة الأدب واللغة إلا ازداد العلماء اقتناعا وإيمانا بسمو البيان القرآني، وعلو شأنه، وتفوقه على سائر ضروب الأساليب. وأسلوبه المعجز أصبح في عصرنا الحديث يخضع في دراسته وتحليله مثل سائر الأساليب لمنهج علمي يعتمد على التحليل الدقيق والمقارنة مع ضروب الأساليب، لملاحظة خصائصه التركيبية والدلالية المتميزة. ولم يعد أي أحد، وبخاصة الأسلوبيين، يرتاب في أن أسلوب القرآن جاء بالصفة التي وصفه الله سبحانه وتعالى بها، وهي سلامته من العوج والاضطراب والإسفاف[3].

وكتاب الله بقدر ما اشتمل على هذه اللغة البيانية البليغة الفصيحة المحكمة المعجزة تركيبا ومعنى حتى أصبح مصدرا للبيان العربي والإسلامي، فإنه كتاب شرائع وأحكام وقوانين تهدي إلى الإيمان بالله الواحد الصمد، وتنظم علاقات

(1) سورة هود، الآية 1.

(2) مفتاح العلوم، ص 238.

(3) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً** ﴾ (سورة الكهف، الآية 1).

الأفـراد والجمـاعـات في الـتـعـامـل والسـلـوك، وتـبـنـي مجـتـمـعـا مـتـكـامـلا في عـقـيـدتـه وتفكيره عـلـى أساس العدل والمساواة بين جميع الطبقـات. ولذلك كـان كتـاب اللـه مـيدانـا للدراسـات الفقهية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصـادية، تنير للمسلمين جوانب عـديدة في حـيـاتهم، وتـهـديهم إلى أفضل وسـائل الإنتـاج والإبداع والتميز والتفرد.

ولا يقدح في هذه الجوانب التي درسـهـا العلمـاء إلا معـاند أو جـاهل أو جـاحد، عميت بصيرتـه عن تتبعها لكشف أسرارهـا، فلذلك تجده يمعن في الإنكـار ظانـاً ـ عن جهل ـ أنـه قـادر على إطفاء نور الله بكلامه السقيم، وفكره القـاصر. وإن من يبتعد عن قوانين هذه الشريعة السمحـاء، أو يهمل العمل بهـا، فـإنـه لا محـالـة يسير في طريق لا يرى فيهـا إلا ظلامـا وسديمـا، ولا يسمـع من حولـه إلا طنينـا وضجيجـا، وأنـى لـه أن يهتدي إلى الحق والخير والفلاح، وهـو يشيح بوجهه عن نور أنقذ أمة من الضـلال، وجعلهـا خير أمة أخرجت للنـاس.

إن دعـاة البـاطل والمدافعين عن الأهـواء والنزوات والشعارات البعيدة عن روح الإسلام ومنهجه القويم لم يخل منهم زمـان ومكـان. أمـا في عصرنـا الحديث فقد ملأ ضجيجهم كل مكـان، واصفين شريعة الإسلام السمحـاء بسمـات التخلف والجمود والرجعية؛ لكي يوهموا شبـاب هذه الأمة أن سبب تخلف المسلمين كـان نتيجة تشبثهم بـأحكام شريعة كتـاب الله التي لم تعد ـ كمـا يزعمون ـ تلائم تطور العصر، ومـا يعرفه من ثورة علمية وتقنية وفكرية تقتضي التخلص من كل مـا هو قديم، وأخذ كل مـا عند الغرب جملة وتفصيلا. هذا الوهم السقيم، والفكر القـاصر، والضلال البعيد، والافتراء الصريح، والجهل الأعمى بحقيقة الإسلام عقيدة وفكرا وسلوكـا لم يستطع أن ينفذ في عقول معظم شبـاب هذه الأمة، لأن بيدهم كتـابـا منيرا أحكمت آيـاته، وسنة اشتملت على آداب وأخلاق وسلوك ومعـاملات، وهمـا معـا يحثـان المسلم على العمل والإنتـاج والإبداع والتفكير في كل مـا يفيد الأمة في العقيدة والحياة الدنيـا. كمـا أن وراء هذا الشبـاب علمـاء أجلاء عرفوا مقـاصد الشريعة، وصلاحيتهـا لكل زمـان ومكـان، فوهبوا حيـاتهم لشرح كتـاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وكشف أنوارهمـا الوهـاجة؛ ووقفوا على سيرة الرسول الأمين، ومـا فيهـا من عبـادة خـالصة، واستقـامة دائمة، وعمل صـالح، وجهـاد في سبيل الله عز نظيره، وصبر على المكـاره، لتكون قدوة لشبـاب أمة الإسلام في العبـادة والسلوك والمعـاملات والبنـاء، يرسون بهـا أسس مجتمعهم، وتدفعهم إلى مدارج الكمـال والتطور الذي حث عليه ديننـا الحنيف.

إن تـاريخ أمة التوحيد المليء بـالمفـاخر والبطولات والأمجـاد العطرة في البحث والعلم والتشييد والحفـاظ على الحضـارة الإنسانية في أبهى صورهـا، لم يكتسبه إلا من أنوار هذه الشريعة السمحـاء.

إن دستور أمة التوحيد منذ فجر تاريخ الإسلام يقوم على الثوابت الأصيلة من الكتاب والسنة؛ وما أصابنا من ضعف وتخاذل وهوان وتفرقة وهزائم متتالية هو نتيجة ابتعاد المسلمين عن دستورهم القويم الذي شرعه أحكم الحاكمين، ﴿ **المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يومنون** ﴾[1]، ﴿ **ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾[2].

إن عودة المجد والعزة والقوة والمنعة للمسلمين رهين بعودتهم قلبا وفكرا ووجدانا إلى الكتاب والسنة، وجعلهما منارا لهم في سلوكهم وأخلاقهم وتعليمهم، وفي حياتهم الفكرية والثقافية والعلمية والاقتصادية، لأن شريعة الإسلام لم تهمل ذكر سبب من الأسباب يعين المسلمين على التطور والخروج من التخلف.

وما نرى الآن من تهافت على ما ينشره الغرب من آراء وأفكار يعدها البعض جديرة بالاهتمام لكونها قادرة على أن تسهم في إثراء الحضارة الإنسانية، ودعوة إلى الإيمان بها، وجعلها في الصدارة في تفكيرهم ومنهج حياتهم دون غربلتها لمعرفة ما فيها من صالح وطالح، وما تنطوي عليه من بذور الخير والشر، هي دعوة ظاهرها حق وباطنها باطل.

وهذا التهافت نراه نزوة عابرة لا تليق بالشباب المسلم الذي ينبغي أن يكون ركيزة وعمادا لهذه الشريعة السمحاء، يثريها بفكره ووجدانه ومنهجه واجتهاده، ويسعى إلى طلب العلم بوعي كامل مما يأخذه. إن الإسلام في حقيقته وجوهر تعاليمه لا يعادي الآراء والأفكار والعلوم العقلية بل يطالب بالانفتاح عليها ومناقشتها بالفكر النير، وبالحجة القاطعة والبينة الواضحة، كما يطالب المسلمين باقتباس ما يلائم روح الشريعة في صفائها وقدسيتها. وهذا ما فعله أسلافنا الذين بنوا حضارة زاهرة في مشرق الأرض ومغربها، أنقذت الإنسانية من الظلام والجهل والهمجية والتخلف الذي فتك بها طيلة قرون عديدة.

إن العلوم المتجددة وبخاصة العلوم التجريبية والعقلية، وكذا الثقافة الحديثة بجميع فروعها وتشعباتها ينبغي أن تكون هدفا ومقصدا للمجتمعات الإسلامية؛ وشباب هذه الأمة خاصة مطالب بمسايرة تطور العصر، وبالتفتح على العلوم الحديثة، وبإتقان اللغات الأجنبية للاطلاع على أحوال الأمم الأخرى في فكرها ومنهجها وتعليمها، وما تحققه من تقدم في مجال العلوم الدقيقة، وكيف تنظر هذه الأمم إلى ديننا وفكرنا وحضارتنا. إن العلم بهذا يجعلنا نرد كل الاتهامات والأباطيل التي ينعتون بها الإسلام وحضارته.

---

(1) سورة الرعد، الآية 1.

(2) سورة إبراهيم، الآية 1.

أما إتقان اللغة العربية، والتعرف على خصائصها، فهو واجب وآكد على كل مسلم، لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة التراث والحضارة العربية الإسلامية. والأمم التي تهمل لغتها تقتل، بدون أن تدري، جذورها وأصولها، وتصبح غير قادرة على الصمود والتحدي. ونحن نعرف أن مرحلة الحماية والاستعمار لدول العالم العربي والإسلامي في المشرق والمغرب كانت مرحلة القضاء على الدين والتاريخ والفكر، وتشويه الحضارة الإسلامية. وكان المستعمر يعلم أن تحقيق هذا الهدف لا يتم إلا بإضعاف اللغة العربية التي هي قوام الدين والفكر والتاريخ. ولولا ثلة من العلماء والرجال الأفذاذ الذين أدركوا أبعاد المستعمر الآنية والمستقبلية لكنا الآن نجهل أبسط الأشياء عن لغتنا وحضارتنا وفكرنا وتراثنا.

لقد أسس هؤلاء الرجال مدارس ومعاهد دينية جعلوا لغة التدريس فيها اللغة العربية مع تعميق البحث في العلوم الدينية، والتاريخ والحضارة والفكر الإسلامي، كما أسسوا مجلات ودوريات تعنى بإحياء التراث ونشره باللغة العربية. وبهذه الخطة الوطنية الواعية فشل المستعمر في تحقيق أهدافه، وبقي الدين سليما من الشوائب، ونجت اللغة العربية من وهدة السقوط، وقدر لها أن تستكمل مسيرتها في بناء حضارة الإسلام في مجال التأليف والبحث في العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، كما أصبحت لغة المؤتمرات والندوات الدولية. والدول العربية التي تنعم باستقلالها الآن ينبغي أن تجعل حماية الدين واللغة والتراث هدفا وغاية لها لأن المستقبل الواعد لهذه الشعوب يمر عبر إصلاح مناهج ونظم التعليم، وجعل اللغة العربية تساير التطور في البحوث العلمية الدقيقة.

والمغرب باعتباره دولة عربية إسلامية حافظ على الدين واللغة والتراث قد تنبه لهذا الأمر في برامج إصلاح التعليم حيث جعل للغة العربية مكانة في التعليم والبحث العلمي والتأطير؛ وقد نص على هذه الغاية في "الميثاق الوطني"، وهو مجموعة من النصوص التنظيمية التي وضعت من أجل إصلاح ميدان التربية والتعليم، وجاء في الفصل الذي ركز على الأهداف والغايات من تدريس اللغة العربية : «حيث إن اللغة العربية، بمقتضى دستور المملكة المغربية، هي اللغة الرسمية للبلاد، وحيث إن تعزيزها واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة كان ولا يزال وسيبقى طموحاً وطنياً»[1].

وكل دراسة بيانية أو تركيبية للغة القرآن الكريم ينبغي أن تكشف عبقرية هذه اللغة، وما تضمنت من عجائب وأسرار في المعاني والتصوير. ومثل هذه الدراسات تبرز وجوه الإعجاز الظاهرة والخفية في كتاب الله، وتثبت العقيدة في النفوس.

---

(1) الميثاق الوطني، ص 51.

الفصل الأول

جهود البلاغيين في درس بيان القرآن

المبحث الأول

تأثير الآيات البينات في توجيه الدرس البلاغي

قال تعالى : ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾[1].

نزل القرآن الكريم بلسان العرب فصيحا معجزا على أمة لم يكن لها من العلوم والمعارف سوى البيان والفصاحة، وبرغم المعارضة الشديدة التي أظهرتها فئة عريضة منهم، فإنهم اهتدوا في نهاية المطاف إلى الإيمان بآياته البينات، واعترفوا بأن كلام الله الذي نزله على المصطفى الأمين لا يشبهه كلام آخر، وبخاصة كلام الفحول والفصحاء والبلغاء في سمو معانيه، وسلامة نظمه، ونصاعة بيانه، وقوة حجته، وشدة أسره. وخلصوا إلى نتيجة لم يعد أحد يرتاب فيها، وهي أن هذا الكلام لا يقدر عليه إنس أو جن مهما بلغت مكانتهم في الفصاحة والبيان والترسل.

هذه الحقيقة التي أدركها العرب الأوائل بالمعرفة التي اكتسبوها بالطبع والذوق والسليقة والمهارة اللغوية والأدبية في مجتمع الشعر والخطابة، وجدها العلماء في أسلوب القرآن بدراسة تعبيراته ومعانيه دراسة علمية تحليلية؛ واستنبطوا بهذه الدراسات علوما كثيرة، دينية ولغوية وأدبية وفكرية، أغنت الفكر البشري، ووسعت المعارف في التفسير والبيان واللغة والمعاني والفقه والعلاقات الاجتماعية والإنسانية.

هؤلاء العلماء الذين أفنوا أعمارهم في دراسة أساليب اللغة العربية في الشعر والخطابة وفي كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام كانوا يؤكدون في هذه الدراسات إعجاز القرآن الكريم من جوانب متعددة منها، الأولى : الإثبات بالحجة العلمية سلامة أسلوبه من كل العيوب التي عرفت في كلام العرب، الثانية : إن الإعجاز القرآني يتوصل إليه بالدرس والبحث العميقين لخصائص الأساليب في كلام العرب وفي الآيات البينات، الثالثة : إن التمرس بأساليب الشعر والخطابة ضروري لاكتساب الملكة اللغوية، والسليقة الأدبية، والمهارة الفنية.

---

(1) سورة النحل، الآية 103.

لقد أكد العلماء هذه الحقائق لكون العرب القدماء كانوا على دراية بالبيان وبخصائصه، وهم الذين قال الشاعر فيهم :

يرمون بالخطب الطوال، وتارة   وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وهم الذين نفوا عن أنفسهم العي والعجز والخطل، قال الشاعر :

وما بي من عي، ولا أنطق الخنا   إذا جمع الأقوام في الخطب محفل

هؤلاء الذين تميزوا بالقدرة الكاملة على البيان، ونفوا عنهم العجز والعي والخطل تحداهم الله بأن يأتوا بسورة أو بآية واحدة مثل آيات الكتاب العزيز. وطال التحدي لهم لمدة تفوق العشرين سنة، وهي مدة زمنية كافية لكي يستجمعوا أمرهم، ويعدّوا أنفسهم، ويتدبروا أمرهم للرد على التحدي بقوة كما كانوا يفعلون مع خصومهم، لكنهم حينما عجزوا آثروا المخاتلة والخداع والمكر تغطية لعجزهم، وهي أسهل طريق لهم من المعارضة التي تيقنوا أن نجوم الثريا أقرب لهم منها، فقالوا : إن محمداً شاعر وساحر يفرق بين المرء وأخيه. ثم حين عجزوا عن إلحاق هذه التهمة بالرسول عليه السلام وهم يعلمون أنه ليس شاعرا ولا ساحرا اختاروا المواجهة الحربية ظانين أنهم بكثرتهم وعدتهم قادرون على القضاء على محمدﷺ وأصحابه، وهذا الخيار أكد عجزهم المطلق بأنهم غير قادرين على معارضة كتاب الله، ولو بآية واحدة.

وإذا كانت مرحلة الدعوة الإسلامية قد عرفت معارضة وتشكيكا من بعض الجاهليين للآيات البينات وانتهت بإقرارهم بالعجز المطلق، فإن مرحلة تدوين العلوم في القرن الثاني، وبداية القرن الثالث الهجريين، قد عرفت هي الأخرى تشكيكا في البيان العربي عامة، وبيان القرآن الكريم خاصة، من بعض الغلاة الذين دخلوا الإسلام، وقد بقي قي قلوبهم شيء من معتقداتهم القديمة : «كان الكلام في القرآن وإعجازه من أهم مظاهر الخصومة بين العرب وغيرهم، وتعددت مذاهب القول فيه»[1].

وكان ذلك ناتجا عن عوامل سياسية ومذهبية وفكرية وعقدية، أفرزتها تمازج الذهنيات والأفكار والفلسفات.

وكان من نتائج هذا الصراع أن فشا مذهب الصرفة[2] بين مجموعة من العلماء، ونتيجة لهذا الشيوع وخوف جماعة كبيرة من العلماء الثقاة من انتشاره بين العامة

---

(1) البيان العربي : 18.

(2) ذهب أصحاب هذا المذهب إلى أن القرآن الكريم يشبه كلام العرب، وأنهم كانوا قادرين على الإتيان بمثله لولا أن الله صرفهم عن ذلك.

والخاصة، وتمكنه من عقول الناس، عمدوا إلى الرد على هؤلاء الدعاة من الجانب العلمي بدرسهم لبيان القرآن، وأشعار العرب، وتحديد الخصائص الفنية لكل واحد منهما، وبيان الفروق الدقيقة التي تميز كتاب الله من بلاغات العرب.

والتشكيك في البيان العربي ظاهرة ابتلي بها هذا الأدب في كل عصور النهضة.

فالعصر الحديث لم يسلم منها أيضا، فقد اعتبر جماعة من الباحثين المستشرقين والعرب الفكر اليوناني عامة والفيلسوف أرسطو خاصة معلم العرب الأول في الفلسفة والمنطق والمناهج والبيان أيضاً. ومن العرب الذين نادوا بهذه الفكرة وآمنوا بها، عميد الأدب العربي طه حسين الذي قال : «وإذا لا يكون أرسطو المعلم الأول في الفلسفة وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في البيان»[1].

هذا القول الذي يحمل بين طياته مبالغة قوية ينفي أهم شيء كانت العرب تعتز به، وهو قدرتهم الفائقة في البيان، لقد كانوا يتنافسون فيما بينهم في البراعة في الشعر والخطابة، وعلت أصواتهم في ذلك في المحافل والمنتديات مثل قول محرز بن علقمة :

لقد وارى المقابر من شريك كثير تحلم وقليل عاب

صموتا في المجالس غير عي جديرا حين ينطق بالصواب

ورأي طه حسين لا يحجب قدرة البيان العربي، الجاهلي والإسلامي فقط، وإنما يحجب كذلك بيان القرآن الكريم والحديث الشريف، وهما الغاية المثلى في البيان والفصاحة.

وإذا كانت مثل هذه الأفكار تحتاج إلى التمحيص والبحث والتصحيح والتقويم من الباحثين الجادين لرد الأمور إلى أصولها، ومعرفة دوافع المستشرقين، فإننا نجد فئة من الدارسين العرب يؤمنون بها، ويدافعون عنها بأدلة واهية، بل عدوا اليونان أصحاب فضل على الفكر والحضارة الإسلامية في جميع ميادين العلوم.

إن الباحث الجاد هو من يصدر الأحكام بعد الدراسة المتأنية لمراحل الفكر والأدب عند العرب قبل اختلاطهم باليونان وبعد اختلاطهم ؛ هذه الدراسة هي التي تبين بدقة دور العرب في بناء الحضارة. ولا ريب أن بعض المستشرقين كانوا ينشرون

(1) مقدمة نقد النثر : 31.

هذه الأفكار من أجل أن يقللوا أو ينفوا تأثير الحضارة الإسلامية في حضارة الغرب الحديثة، وادعوا صراحة أن هذه الحضارة وريثة لحضارة اليونان، أما المسلمون فلم يفعلوا شيئا في مسار الحضارات الإنسانية.

هذه الأفكار الصادرة من الحاقدين على الإسلام والمسلمين لا يمكن أن تغير واقع الحضارة الإسلامية في عطائها وتفاعلها مع حضارة اليونان، وتأثيرها الإيجابي في حضارة الغرب الحديثة.

والحقيقة التي لا يستطيع مؤرخ منصف إنكارها أن المسلمين درسوا فكر وعلوم اليونان وفارس والهند، واستفادوا من هذه العلوم في كل ما يعينهم على بناء حضارتهم التي اتسمت بطابع إسلامي في منهجها وفكرها وعلومها ومآثرها، وأنهم رفضوا كل ما يتعارض مع العقيدة والأخلاق والفضيلة الإسلامية، وكانوا في أخذهم ورفضهم وحوارهم ينطلقون من تراث أدبي أصيل يحمل دلالات وتجارب إنسانية على مدى قرنين من الزمان، ومن كتاب أحكمت آياته من لدن عزيز حكيم، فتح لهم مجال الفكر الحر، وأرسى لهم أسس الجدال والحوار مع الأمم الأخرى، ظهرت في فكرهم وعلومهم وفلسفتهم التي واجهوا بها الفلسفة اليونانية الوثنية، وفكر الأمم الأخرى. وقد أثبت الباحث الجليل مصطفى عبد الرازق مع مجموعة من تلامذته بالاعتماد على ما اكتشفوه من وثائق في المرحلة التي اختلط فيها العرب مع الأمم الأخرى، أن مفكري الإسلام اعتمدوا في منهج بحثهم على قواعد الجدل والقياس والاستنباط التي أخذوها من الكتاب، ورفضوا المنطق الأرسطي. قال الدكتور علي سامي النشار :

«وما لبث أن صدر عن أحد رجال هذه المدرسة كتاب : "مناهج البحث عند مفكري الإسلام ونقد المسلمين للمنطق الأرسططاليسي"، وقد أثبت فيه إثباتا قاطعا، في ضوء وثائق هامة، عدم قبول مفكري الإسلام للمنطق الأرسططاليسي ومحاربتهم له؛ وانتهت الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا بالمنطق اليوناني، واعتبروه منهجا لأبحاثهم»[1].

وهذا الرأي لا يغيب أثر المنطق الأرسطي في مناهج البحث عند الفلاسفة والمفكرين العرب، وإنما يؤكد به الباحث موقف هؤلاء المفكرين في تلك المرحلة من العلوم والمناهج التي كانت عند الأمم الأخرى. إن العرب لم يرفضوا تلك العلوم رفضا

---

(1) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : 17/1.

مطلقا، ولم يقبلوها أيضا جملة وتفصيلا، وإنما كان لهم موقف ورأي يدل على مدى قدرة نقدهم، وشدة تمحيصهم لكل ما كانوا يأخذونه من الأمم الأخرى، أي أن المسلمين لم يكونوا عاجزين، وفي وضع من يأخذ ولا يعطي.

إن الالتفات لمثل هذه الإشارات عند مفكري الإسلام الذين بذلوا جهودا طيبة في توثيق العلوم ودراسة التراث، واكتشاف وثائقه ينبغي أن يكون هدف كل باحث عن الحقيقة في مسار الحضارات، وبخاصة الحضارة الإسلامية التي تتعرض للطعن من طرف بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام، وعلى رجاله الأفذاذ الذين كان لهم أثر كبير فيما يشهده الغرب من ازدهار فكري وعلمي.

الدرس البلاغي وإعجاز القرآن

إن العلماء الذين درسوا إعجاز القرآن كانوا أعلم الناس بخصائص البيان العربي؛ لقد اطلعوا على أشعار العرب، وبخاصة أشعار الفحول، كما وقفوا على خصائص التراكيب والدلالات في كتب اللغة والأدب والنحو؛ وبهذه الثقافة العميقة في الشعر وفي علوم اللغة العربية وآدابها استطاعوا أن يدرسوا سمات الإعجاز في كتاب الله، وهذه المباحث ظلت مرتبطة بمباحث الدلالة والتراكيب والصوتيات في اللغة، وقد وضعوا لها مصطلحات مميزة، منها المجاز والنظم والأسلوب. فهذا أبو عبيدة المتوفى سنة (210هـ) يؤلف كتابا يدرس فيه الدلالات والتراكيب والأصوات في لغة العرب، وفي آيات كتاب الله سماه "مجاز القرآن"، توصل فيه إلى حقيقة بيانية مشتركة بين لغة الأعراب والآيات البينات، فقال : «وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني»[1].

والجاحظ المتوفى سنة (255هـ) ألف كتابا سماه "نظم القرآن" بحث فيه أساليب وتراكيب القرآن، وهي لا تخرج في نمطها عن الأسلوب الموجود في شعر العرب وخطابتها. وهذا الكتاب يعد من جملة ما ضاع من تراثنا العربي، لكن آراء الجاحظ في البيان العربي، وفي إعجاز القرآن خاصة نجدها مبثوثة في كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان"، وهما ذخيرة من ذخائر التراث العربي.

أما ابن قتيبة المتوفى (سنة 276هـ)، فقد وضع المصطلح نفسه الذي استعمله أبو عبيدة وهو "المجاز"، وعن طريق هذا المصطلح بين أن القرآن نمط رفيع في التعبير، ونظام

---

(1) مجاز القرآن : 2/1.

فريد في الصياغة والمعاني، ولا يمكن فهم أسراره إلا لمن اتسع نظره في أساليب العرب التي أوتيت قدرا من العارضة والبيان، والتفنن في القول بمختلف ضروبه وأساليبه. ولذلك ينبغي البحث في ظاهرة المجازات خاصة التي هي «طرق القول ومآخذه»[1].

ولا ريب أن نجد البلاغيين المتأخرين يسيرون في هذا الاتجاه الذي رسمه علماء القرن الثالث؛ فهذا أبو هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ، يجعل الهدف الأول من دراسة البلاغة هو معرفة أسلوب القرآن، وكشف الأسرار التي جعلته يجمع بين الحلاوة والرونق، والسهولة والجزالة، والعذوبة والسلامة مع الخلو من كل العيوب التي توجد في شعر العرب ونثرها. قال في ذلك : «وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه، وجزالتها وعذوبتها وسلامتها»[2].

هذا الاتجاه أي اعتبار الدرس البلاغي مدخلا لكشف إعجاز القرآن، وفهم بيانه وتراكيبه، ظل سائدا عند البلاغيين في كل عصور الثقافة الإسلامية، لأنه السبيل لمعرفة الإعجاز في كتاب الله عز وجل. قال عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ : «وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن، وظهرت وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر»[3].

وأشار يحيى العلوي المتوفى سنة 749هـ إلى أن إدراك علم البيان هو السبيل لمعرفة حقائق الإعجاز، والإجماع «منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز، وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم، وإحكام أساسه»[4].

الفنون التي درسها البلاغيون في آيات القرآن الكريم

آيات القرآن الكريم لم تختلف من حيث التركيب والصياغة والدلالة عن لغة العرب التي كانت متداولة في أشعارهم وخطبهم ومحافلهم وأسواقهم الأدبية. وقد

---

(1) تأويل مشكل القرآن : 15.

(2) كتاب الصناعتين : 9.

(3) دلائل الإعجاز : 7.

(4) الطراز : 13/1.

تطورت اللغة العربية في المجتمع الجاهلي على مدى قرون حيث أصبحت مكتملة يعبر بها الجاهلي عن كل ما يحتاجه في حياته، وصاغ منها أدبه وأمثاله السائرة، وأقواله المأثورة، وكل ما كان يطمح في التعبير عنه. وقد بلغت مبلغا عظيما في التعبير الأدبي والبياني والتصوير الفني باستعمال فنون كالتشبيه والكناية والمجاز وغيرها من الفنون التي قصدوا بها إضفاء الرونق والجمال على التعبير الأدبي. ولذلك نجد فحول الشعراء يكثرون من هذه الفنون في شعرهم، ويحاولون الإبداع فيها، وتلوين أشكالها، فبدت أشعارهم عبارة عن لوحات طريفة مليئة بالألوان والظلال والأشكال التي تحمل تجارب عميقة في الحياة والوجود والمصير. وهذه الفنون البيانية هي التي نجد القرآن الكريم يعتمدها في آياته البينات، لكنها تتميز عن أشعار العرب بخصائص فنية يعرفها العلماء، وأصحاب الطبع، والمتمرسون بضروب الأساليب، وهي السهولة والابتعاد عن التكلف والتمحل والابتذال. وقد تنبه الجاهليون لهذه المحاسن بطبعهم وسليقتهم قبل العلماء الذين توصلوا إليها بالدرس العلمي. قال عبد القاهر الجرجاني : «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها»[1].

فكان على علماء البيان أن يظهروا للناس هذه المزايا مفصلة من خلال الدراسة العلمية التحليلية لأسلوب آياته البينات. وقد انتهوا إلى حقيقة علمية ما زال الأسلوبيون في عصرنا الحديث يبحثون فيها، وهي أن آيات القرآن الكريم جاءت دقيقة في تركيبها من حيث العلاقة بين النحو والدلالة، بديعة في تصويرها، جزلة في لغتها، عميقة في بسطها للأمور الغيبية، ولما شرعته من قوانين تسعد الإنسان في دنياه وأخراه، سواء كان التعبير حقيقة أو مجازا، ولم يجد فيها العرب الفصحاء مدخلا للطعن قال السكاكي : «على أن كلام رب العزة، وهو قرآنه الكريم، وفرقانه العظيم، لم يكتس تلك الطلاوة، ولا اُستودع تلك الحلاوة، وما أغدقت أسافله، ولا أثمرت أعاليه، وما كان بحيث يعلو و لا يعلى إلا لانصبابه في تلك القوالب، ولوروده على تلك الأساليب»[2].

والقوالب التي أشار إليها السكاكي هي دقة النظم، وحسن التأليف، ووضع الكلام في موضعه حقيقة ومجازا، وإيجازا وإطنابا، وإشارة ولمحة، وتصويرا ونسجا، وتحبيرا وترتيبا وفق ما تتطلبه سلامة الأساليب من عيوب الإحالة والغموض والإشكال،

---

(1) دلائل الإعجاز : 32.

(2) مفتاح العلوم : 205.

وغيرها من العيوب التي وجدت في أشعار العرب. والآيات التي يمكن درسها من جانب سلامة الأسلوب لا يمكن عدها وحصرها، لأن القرآن كله جاء في غاية الدقة الأسلوبية؛ والبلاغيون القدامى اختاروا نماذج لتكون دالة على الإحسان الذي جمع في آياته البينات، ولذلك فإننا سنعمد إلى بعض الآيات نبين من خلالها المنهج الذي اتبعوه والنتائج التي توصلوا إليها.

قال تعالى : ﴿ **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[1].

هذه الآية الكريمة جمعت بهذه العبارات القليلة وجوها عديدة من خصائص الأسلوب البياني الذي كان يتسابق إليه أرباب البيان، ويمكن حصر هذه الوجوه في المزايا الآتية :

أولاً : وضعت الكلمات بدقة لتأدية المعنى المقصود، دون زيادة أو نقصان.

ثانياً : حققت مقصدا بلاغيا رفيع المستوى في تركيب أسلوبها بدون إثبات حرف النسق، وهو معنى التأكيد والتبيين. ومثل هذه الأساليب التي تأتي مرتبة ترتيبا أنيقا، ومتناسقة فيما بينها بغير حرف النسق وضعها البلاغيون في باب "الفصل والوصل"، وهو باب يعد آية في دقة التركيب، ولذلك خصه البلاغيون بعناية فائقة في البحث والدرس.

ثالثاً : جمعت ألوانا من أساليب البيان المحمودة، وهي الحذف والرمز والتقديم، ووضع المصدر موضع الوصف، والإيجاز، وقلما تجتمع هذه الخصائص الأسلوبية في أسلوب واحد. قال السكاكي في بلاغة الإيجاز في قوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ : «ومن الإيجاز قوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ذهابا إلى أن المعنى : هدى للضالين الصائرين إلى التقوى بعد الضلال؛ لما أن الهدى أي الهداية إنما تكون للضال لا للمهتدي. ووجه حسنه قصد المجاز المستفيض نوعه، وهو وصف الشيء بما يؤول إليه»[2].

هذا النظم العجيب، والترتيب الأنيق، والتأليف المحكم هو الذي انكب على دراسته البلاغيون ليظهروا من خلاله أن الإعجاز القرآني هو هذا الكلام السامي الذي لم ير العرب أصحاب البيان مثله، وهم الذين لم يكن يشق لهم غبار في الشعر والخطابة

(1) سورة البقرة، الآية 1.

(2) مفتاح العلوم : 277.

والمثل السائر والقول المأثور، «فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه»[1].

وإذا نظرنا في خصائص التأليف والرصف والنظم والترتيب في آية أخرى كقوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾[2].

فإننا نجد تلك الخصائص البيانية السامية التي أشار إليها العلماء بارزة في كل عبارة وتركيب وسياق؛ ففي قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾ دلالة على العزة والجلال وفخامة القول الذي لا يصدر إلا من حكيم عزيز، وعليم خبير، ومالك الملك. وفي قوله تعالى : ﴿ **ولكن جعلناه نورا نهدي به...** ﴾، إشارة دالة على ما احتوى كتاب الله من حجج قوية، تفتح بصائر الناس إلى الإيمان والتقوى والهداية؛ والكناية عنها بالنور هي أبدع وأجمل من الحقيقة، وهل شيء أفضل من نور ساطع يمشي فيه الإنسان آمنا مطمئنا لا يخشى العثرات؟.

ويجمع أسلوب القرآن بين الكلمات المنفصلة المتباعدة، فيصيرها بحسن نظمه، وبديع تأليفه، وجمال نسقه، أشد تألفا من الشيء المؤتلف، كقوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين** ﴾[3].

كل جملة في هذه الآية الكريمة قد تبدو منفصلة عن سابقتها وعما تليها، لأنها تؤدي معنى قائما بنفسه؛ ولكن حينما ننظر إليها في السياق الذي قصدته الآية الكريمة نجدها تعبر عن معان متآلفة، تسير في نهج واحد، وهو الهداية إلى سبيل الخير والرشاد الذي يقود الإنسان إلى الطمأنينة والفلاح في الدارين؛ وذلك أن عمل الحياة الدنيا مرتبط بالحياة الأخرى، فالإحسان إلى الفقراء والضعاف والعجزة، وتجنب الفساد في الأرض، يقوي الروابط الإنسانية في الحياة الدنيا، وينال به العبد رضى الله بعد أن تطمئن نفسه في الحياة الدنيا.

وهكذا نجد البلاغيين حينما ينعتون كلام الله بنعوت الإغداق والإثمار والعلو، فإنهم ينظرون إلى هذه الخصائص البيانية التي لم يجدوها في جيد منظوم العرب ومنثورها.

---

(1) إعجاز القرآن : 279.

(2) سورة الشورى، الآية 49.

(3) سورة القصص، الآية 77.

وتتمثل خصائص الأسلوب القرآني المعجز في مراعاة المقامات وأحوال المخاطبين حيث يتنوع الخطاب مراعيا الأحوال النفسية والفكرية والاجتماعية للمخاطب في قبوله أو رفضه أو التردد فيه. وهذا الضرب من الأساليب استفاد منه الدعاة والخطباء، وأصحاب المذاهب والنحل، وكل من يريد التأثير على فئة معينة حيث يوجه خطابه مراعيا وضعهم النفسي والخلقي والاجتماعي.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث، فقالوا إنا إليكم مرسلون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون** ﴾[1].

روعي في هاتين الآيتين أحوال المخاطبين من الناحية النفسية، حيث تدرج الخطاب في ألوان من الأساليب ليجد استحسانا وقبولا لديهم، فقيل لهم في البداية : ﴿ **إنا إليكم مرسلون** ﴾، لأنه لم يظهر إنكار قوي منهم، فلما اشتد إنكارهم، وظهر ما ينبئ بعدم قبولهم للخطاب في قولهم : ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ كان من الطبيعي أن يتغير الأسلوب، ويأتي الرد على قدر درجة إنكارهم، فزيدت اللام التي عبرت عن القوة والشدة أكثر من الأسلوب السابق، فقيل لهم : ﴿ **إنا إليكم لمرسلون** ﴾. هذه الزيادة في المبنى هي زيادة في المعنى من أجل التأثير على المخاطب. وكل أسلوب يرد بهذه الصيغ ينبغي دراسته بمراعاة التغيير الذي طرأ فيه من مقام إلى آخر، وأحوال المتكلم والمخاطب من الناحية النفسية والاجتماعية.

وشبيه بهذا الأسلوب ما ينتقل فيه المتكلم من خطاب إلى آخر، كأن ينتقل من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب أو التكلم، وهو الذي سمي عند البلاغيين، "التفاتا" وهو أسلوب يحدث نشاطا وجدة في المتلقي، إذ كلما تنوع الخطاب إلا كان له أثر بالغ في تحريك الذهن لملاحظة التغيير الذي طرأ على سياق الكلام، قال السكاكي : «وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحذاق المهرة في هذا الفن، والعلماء النحارير؛ ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط»[2].

وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب في آيات كثيرة، فجاء نموذجا مثاليا يحتذيه الشعراء والبلغاء والمترسلون، ومنه ما جاء في سورة الفاتحة التي سميت أم القرآن،

(1) سورة يس، الآيتان 14-15.

(2) مفتاح العلوم : 201.

والكنز، والوافية، لاشتمالها على المعاني الموجودة في القرآن، وهي الثناء على الله بما هو أهل له، وتعبد العباد، وتكليفهم بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. ولكونها جمعت هذه الأغراض فإن أسلوب "الالتفات" فيها جعل معانيها أكثر ظهورا، وأشد علقة بالنفوس.

ومن تغيير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب في هذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ هذا التلون في الخطاب اختص بفوائد يعرفها الأسلوبيون والمفسرون والمتدبرون في معاني كتاب الله، وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أحق بالحمد لكونه يتميز بالصفات التي لا توجد في المخلوقين، وهي الرحمن الرحيم، ومالك يوم الدين، وهي أعظم الصفات وأكملها؛ ولهذا استحق العبادة والاستعانة والطلب، «فقيل: إياك يا من هذه صفاته تخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به»[1].

هذه الإشارات للفنون التي تضمنها أسلوب القرآن الكريم تبين أنها جاءت لتقوية المعنى وإيضاحه، وبذلك تصبح الفنون في القرآن الكريم خاصة، وفي كلام الفحول والبلغاء جزءا من المعنى الذي يتطلب إيضاحه وبيانه، وليس حلية وزينة وزخرفا يمكن الاستغناء عنها.

وبهذا الأسلوب جاءت آيات بينات خبرنا فيها الله سبحانه وتعالى عن سلوك بني إسرائيل في عدم حفظهم للعهود والمواثيق، وخيانتهم للأمانة، وتنصلهم من كل عهد أعطوه لأنبيائهم، قال تعالى: ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله، وبالوالدين إحسانا، وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون** ﴾[2].

إن القارئ للآية الكريمة يقف متأملا لعبارة ﴿ **ثم توليتم** ﴾ ليلاحظ أنها جاءت بعد تعداد العهود والمواثيق التي أعطاها بنو إسرائيل، لكنهم نقضوها، وعاثوا في الأرض فسادا؛ وكان للالتفات أثره القوي في بيان هذا السلوك المشين من قوم طبعوا على الغدر والخيانة، واتباع كل سبيل نهاهم الله عنه.

وإذا كان الترتيب، والنظم المحكم، والنسق البديع، من خصائص أسلوب القرآن، فإن هناك خاصية بيانية تميز بها كتاب الله، واستهوت البلاغيين والأسلوبيين،

---

(1) الكشاف: 65/1.

(2) سورة البقرة، الآية 82.

فدرسوا مكامن جمالها، وأسرارها العجيبة، وصورها الطريفة. هذه الخاصية هي التصوير الفني، أي التعبير عن المعاني بالصورة الحية النابضة بالحركة والمشاهد والألوان والظلال والأصوات؛ وذلك أن القرآن الكريم عبر في آيات كثيرة بأسلوب فني تصويري جذاب عن معان حسية وذهنية ونفسية وأخلاقية وسلوكية، وعن حوادث ومشاهد حدثت للأمم الغابرة، وبخاصة الذين أصابهم عذاب من الله؛ كما عبر بهذه الصور عن مشاهد يوم البعث والنشور حيث يقف الناس في يوم مشهود ليجازوا ويحاسبوا على ما قدموا من أعمال. ونجد أيضاً في التصوير البياني في كتاب الله مشاهد نعيم الجنة، وعذاب النار في صور مفعمة وجذابة ومؤثرة بألوان النعيم والعذاب. وجل هذه المشاهد وردت في فنون بيانية كان يعرفها الشعراء، ويكثرون منها في شعرهم، مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز. والقرآن الكريم حينما استعمل هذه الفنون فإن القصد منها هو تقريب المعنى وإيضاحه عن طريق الصورة الفنية، فالتصوير إذن ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة لتقريب الأشياء، وفهمها على حقيقتها بأسلوب أدبي فني ممتع. ومن الفنون البيانية التي كثرت في كتاب الله فن التشبيه الذي صور مشاهد بديعة، حسية ومعنوية كقوله تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1].

جاء تشبيه الحياة الدنيا في هذه الآية في صورتين متناقضتين، الأولى : نعيم وسرور، وفرحة وبهجة، تتمثل في الخضرة الزاهية، والمياه الجارية والارتياح النفسي. والثانية : قحط وجدب ويبس يتمثل في ذبول كل شيء كان ممتعا وناعما بالأمس، وفي الانقباض النفسي الذي يسيطر على الإنسان نتيجة تلك المناظر. والغاية من هذا التصوير بيان زيف متع الحياة الدنيا، وبخاصة للذين يفرطون في طلب متعها وملذاتها، حلالها وحرامها، وكأنها الغاية التي وجدوا من أجلها. ومما يلاحظ في هذا التشبيه أنه لا يعطينا صورة عن تشابه الأشياء في الشكل واللون والمقدار والهيئة فقط، وإنما جعل تلك الأشكال والظلال تمتلىء بأنواع النعيم والقحط لكي تغير معتقدات كانت راسخة في عقول القوم. والإسلام في نهجه لا يسعى إلى تقديم صورة سوداء عن مباهج الحياة الدنيا وطيباتها، فهناك آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى أخذ حظه من

---

(1) سورة يونس، الآية 24.

مباهج الحياة الدنيا التي أحلها الله، لكن أن يكون ذلك بقصد واعتدال وتوازن تجعله يجمع بين مطالب الذات، ومطالب الروح، لأن الغاية من الوجود ليست المتعة البهيمية وإنما البناء والأخلاق والسلوك القويم، والعبادة والطاعة للخالق دون تفريط الفرد في حاجاته من الطيبات التي أباحها الإسلام للعباد.

وجاء في القرآن الكريم مثل هذا التصوير البديع لإظهار أحوال العصاة الضالين الذين عطلوا فكرهم، وتبلد وجدانهم وشعورهم، ولم يعودوا يميزون بين نور وظلام، وخير وشر، والآيات البينات ساطعة أمامهم، فاتبعوا سبيل الضلال والغواية، واختاروا طريقا لا يجدي في الحياة الدنيا والأخرى. قال تعالى : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾[1].

لا توجد صورة قادرة على وصف أحوال الذين فسدت عقائدهم، وتخبطوا في الظلام، وحارت بهم السبل، من الصورة التي جاءت في الآية الكريمة؛ إن هؤلاء القوم وقعوا في خذلان لا يماثله أي خذلان باتخاذهم أولياء من دون الله، وأولياؤهم لا ينفعونهم ولا يضرونهم، بل لا يستطيعون نفع أنفسهم، لأنهم في حال من الضعف الشديد مثل خيوط العنكبوت. ولا ريب أن العاقل والمتدبر في الأمور، حينما يقف على مضامين هذه الصورة البديعة فإنه يستخدم فكره وشعوره، وهو يبحث عمن يستحق العبادة في هذا الوجود، فيصل بعقله، وبصيرته النافذة، إلى أن المستحق للعبادة هو الله خالق كل شيء، أما الأصنام والأوثان، والوسائل الأخرى التي كان يتشبث بها الجاهلي، وإن كان يعتقد أنها تقربه زلفى إلى الله، فهي جماد لا يعي ولا يتحرك، فكيف ينفع غيره.

ولبراعة التشبيه في هذه الآية الكريمة، وما حققت من دلالات عن طريق التصوير الفني البديع، نجد الشعراء الفحول يأخذون هذه الصورة الفنية، ويتمثلون بها قصد إضفاء البهاء والرونق على معانيهم. قال الفرزدق يهجو جريرا :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

لقد استعمل الشاعر الصورة الفنية من تشبيه القرآن في معنى الهجاء، فجاء مقذعا ومهينا ومؤلما، وأي شيء يمكن أن يكون أكثر إهانة من خيط العنكبوت الذي لا يلتفت إليه، ولا يعتد به؟ ولذلك جعل الشاعر بيت المهجو مثل خيوط العنكبوت؛ إنه بيت

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 42.

ضعيف وواه ومغمور، لا مكانة له بين بيوت القبائل العربية، فلا يحق له أن يرفع رأسه، أو يفتخر بقبيلته.

وإذا كان تشبيه القرآن يأتي بمثل هذه الجودة ، فكذلك نجد استعاراته تحقق طرافة وغرابة ومتعة جعلت الشعراء والبلغاء يتسابقون إلى صياغة مثلها في شعرهم عسى أن تقترب استعاراتهم من استعارة القرآن المعجز قال تعالى : ﴿ **قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً** ﴾[1].

جمعت هذه الاستعارة كل الخصائص المطلوبة في جودة البيان، وهي الإيجاز البليغ، والمقاربة بين المستعار منه والمستعار له، والتركيب المراعي لقواعد النظم، وبخاصة الإسناد. ويلاحظ ذلك إذا ما حاولنا تغيير تركيب الآية الكريمة، كأن نقول : شاب الرأس، وعم الشيب الرأس. وبرغم أن المعنى لم يتغير في هذه الصيغ، إذ تفيد انتشار الشيب في الرأس مثل الآية، إلا أنها لا تفيد ما أفادت استعارة القرآن، لأن الصيغ الأخرى تقتصر من حيث الدلالة على إخبار السامع بالشيب في الرأس، ولا تعطيه الصورة والكيفية التي انتشر بها، بينما استعارة القرآن تفيد فشو الشيب، وانتشاره بغزارة، وأخذه كل مأخذ في الرأس مثل النار التي تنتشر فتلتهم كل ما تجده أمامها؛ وهذا التعبير فيه قوة في الأداء يدرك سر جماله العلماء الذين تمكنوا من معرفة أسرار اللغة العربية حقيقة ومجازاً، وتركيباً وإسناداً، ونسجاً وتصويراً. ولذلك نجد أحد أعلامهم الكبار وهو الإمام عبد القاهر الجرجاني يبرز مزية هذه الاستعارة من جانب دقة التركيب المرتبط بقانون النظم، والذي يشكل فيه النحو عنصراً أساسياً لسلامة المعنى : قال : «تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل : واشتعل رأسي، فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن، فاعرفه»[2].

هذه الأسرار الدقيقة في تراكيب اللغة العربية عامة، وفي أسلوب آيات القرآن خاصة جعلت العلماء يطلبون ممن يقدم على تفسير كتاب الله أن يكون ملما بعلمين أساسيين في مباحث المعاني، وهما علما البلاغة والنحو، بهذين العلمين يستطيع الباحث اكتشاف أسرار تراكيب اللغة العربية، ويدرك الفرق بين القرآن وكلام العرب، والسبب الذي جعلهم يعجزون عن الإتيان بكلام يشبه في تركيبه آيات كتاب الله. قال الزمخشري : «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين

---

(1) سورة مريم، الآية 4.

(2) دلائل الإعجاز : 81.

مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله»[1].

وأشار السكاكي إلى هذين العلمين، أي المعاني والبيان، فقال : «فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير، وهو فيهما راجل»[2].

أما مزية علم النحو في فهم معاني كتاب الله، فقد نص عليها الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي فتق نظرية النظم، وأرسى أسسها وقواعدها، معتمدا في ذلك على علم النحو. قال في أثر هذا العلم في فهم معاني القرآن : «وأما زهدهم في النحو، واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم[3]، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه، ذاك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه»[4].

ولبيان أثر هذه العلوم في فهم المعاني، وبخاصة في كتاب الله، نورد رأي الزمخشري في أسلوب التقديم والتأخير، وأثر النحو في توجيه المعاني في قوله تعالى : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾[5]، وقوله عز من قائل : ﴿ **لا فيها غول** ﴾[6] قال في الفرق بين تأخير الجار والمجرور وتقديمه في الآيتين الكريمتين : «فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على الغول في قوله تعالى : ﴿ **لا فيها غول** ﴾[7] قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتابا آخر فيه الريب، لا فيه كما قصد في قوله لا فيها غول تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة»[8].

---

(1) الكشاف : 16/1.

(2) مفتاح العلوم : 162.

(3) الإشارة هنا إلى الذين ذموا رواية الشعر عامة، دون التمييز بين طيبه وخبيثه.

(4) دلائل الإعجاز : 23-24.

(5) سورة البقرة، الآية 2.

(6) ، (7) سورة الصافات، الآية 48.

(8) الكشاف : 114/1-115.

أما المستويات الصوتية التي تتلاءم مع الدلالة، وتناغم الحروف والألفاظ والجمل، فإنها وجدت بطرق متعددة في أسلوب القرآن الكريم، مما جعل أسلوبه متكامل العناصر، ومتناسقا ومعتدلا في حروفه وجمله ونصه.

والمستويات الصوتية في القرآن عديدة، منها الفواصل والأسجاع والتجنيس والتصدير والترديد والمزاوجة والمناسبة، وكلها أساليب درسها البلاغيون في أبواب خاصة. ومما يلاحظه الدارس في المستويات الصوتية في كتاب الله أنها أظهر وأوضح حتى إننا نجد خروجا على القاعدة النحوية من أجل توفير التناسق والتناسب بين حروفه وكلماته وعباراته كقوله تعالى : ﴿ **سلاسلا وأغلالا** ﴾[1].

إن الغاية من هذا الخرق في القاعدة النحوية هو إحداث التناسب الذي هو سمة من سمات البيان. والناظر في مثل هذا الأسلوب يتناسى القاعدة النحوية، ويتأمل ما حصل في الكلام من رونق وجمال يتجلى في حسن ترديدها، ولو طبقت القاعدة النحوية في هذه الآية الكريمة لذهب شطر كبير من التناسب المطلوب في الأسلوب البياني.

ومن الآيات التي وقع فيها عناية بالغة بالجانب الصوتي، فجاءت غاية في التناسب البياني قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي، ثم لا يقصرون** ﴾[2].

لقد اتحدت المقاطع في قوله تعالى : ﴿ **مبصرون** ﴾ و﴿ **يقصرون** ﴾. وهذا النوع من الأساليب تتحد فيه الكلمات على وزن واحد من أجل إحداث نغمة موسيقية موحدة، وتناسب جلي في التعبير. وقد عني البلاغيون بتتبع مثل هذه الظاهرة في الكلام البليغ، ووضعوا لها مصطلحا سموه "الترصيع"، وهو ظاهرة فنية محمودة في الكلام البليغ، شريطة أن يأتي سهلا ومطبوعا كما جاء في الآيتين الكريمتين.

ومن الآيات التي تنوعت فيها الأساليب، وكان للجانب الصوتي نصيب كبير فيها قوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلا، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه**

(1) سورة الإنسان، الآية 4.

(2) سورة الأعراف، الآيتان 201-202.

يقينا، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزا حكيما، وإن من أهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا، فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾[1].

هذه الآيات جمعت أساليب كثيرة كانت مجالا للبحث في خصائص البيان القرآني دلالة وصوتا ومقاطع، وهي ذكر الشيء بعموم وخصوص، والاعتراض والبناء، وهذا النوع الأخير أي البناء، هو تكرير لفظي يأتي لتأكيد القول المتقدم خشية تناسيه لطول العهد به[2].

وقد أفاد هذا الأسلوب في الآيات الكريمات تأكيدا وقوة في بيان الدلالة، ففي قوله تعالى : ﴿ **فبظلم** ﴾ نجد هذه الكلمة قد تكررت لتفيد معاني لا يمكن إغفالها في هذه الآيات، وقد أبرزها السجلماسي في قوله : «وذلك أن الظلم جملي ما سبق من التفاصيل من النقض، والكفر، وقتل الأنبياء، وقولهم : قلوبنا غلف، والقول على مريم البهتان، ودعوى قتل المسيح عليه السلام»[3].

هذه الظاهرة الأسلوبية برغم قلة اهتمام البلاغيين بها، فإنها تظهر ما ينطوي عليه البيان القرآني من خصائص أسلوبية دقيقة ينبغي الاهتمام بها في الدرس البياني لكشف جماليات البيان القرآني، والبيان العربي.

وتركيب الأسلوب من فنون متنوعة، كما جاء في هذه الآيات، هو نوع من المراوحة على المتلقي، وهو أسلوب ترتاح له النفس أشد الارتياح فتقبل عليه. أما الاستمرار على أسلوب واحد ـ وإن كان بديعا في حد ذاته ـ فإنه يحدث الملل في النفس، ويكون بذلك مدعاة للنفور منه.

وقد وجدنا البلاغيين ينصون على قاعدة المراوحة بين الأساليب، ويجعلونها سمة من سمات البراعة عند الأدباء[4].

وقد وقف مجموعة من البلاغيين، ومنهم ابن أبي الإصبع على الآيات التي تعددت فيها الأساليب، وتوفر فيها حسن التناسق، وشدة الإحكام، وجمال الإبداع،

---

(1) سورة النساء، الآيات 155-161.

(2) قال السجلماسي في خصائصه البيانية : «ولا غرو والبناء بلاغة بديعة، وسبيل من البيان عجيبة»، المنزع : 478.

(3) المنزع البديع : 479.

(4) انظر : منهاج البلغاء، وسراج الأدباء : 16.

واستخرج من آية واحدة واحدا وعشرين ضربا من البديع، في قوله تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾[1].

ومن الضروب البديعة التي استخرجها من هذه الآية : المناسبة، والاستعارة، والمجاز، والحقيقة، والإرداف، والتمثيل، وصحة التقسيم، والاحتراس، والمساواة، وحسن النسق، والإيجاز، والتسهيم، والتهذيب، وحسن البيان، والتمكين، والانسجام[2].

هذه الضروب من البديع جاءت متناسقة ومتناسبة، فلا يشعر القاريء بملل وهو يردد هذه الآية الكريمة، وقد جمعت هذه الفنون في بضع كلمات، بل يجد متعة فنية وأدبية، وسلامة تركيب، وصحة معنى، وقوة أداء. وهذا هو السبب الذي جعل البلاغيين يعتمدون أسلوب القرآن الكريم في دراسة سمات الفصاحة والبلاغة، ويعتبرون الآيات البينات أنموذجا أمثل لهما.

إن أسلوب القرآن الذي أعجز العرب الخلص قديما، واستهوى الشعراء والعلماء والخطباء والكتاب والمترسلين في عصور ازدهار الكتابة والتأليف، ما زال في عصرنا الحديث، عصر التقدم العلمي، والازدهار الفكري والأدبي والثقافي، يجتذب العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء، فيجد فيه كل واحد من هؤلاء ما يغذي به فكره، ويقوي حجته، ويشحذ قريحته، ويضفي على أسلوبه الرونق والحسن والجمال الذي يطلب في الأساليب البليغة والفصيحة والرصينة.

---

(1) سورة هود، الآية 44.

(2) بديع القرآن : 340-341.

المبحث الثاني

نظرات في بلاغة القرآن وبلاغة العرب في كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي[1]

قال الله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾[2].

لقد أجمع الدارسون في مختلف عصور الثقافة الإسلامية، وعلى تباين مذاهبهم في الدرس الأسلوبي أن السبيل لمعرفة أسرار بيان القرآن وإعجازه هو الدراسة العميقة لضروب الأساليب التي قامت عليها بلاغة العرب في شعرهم ونثرهم مع الاستعانة بالوسائل التي تعين على فهم تراكيبه ومعانيه وصوره الفنية. وفي مقدمة هذه الوسائل الطبع والذوق والملكة اللغوية التي تجعل الدارس قادرا على التمييز بين أسلوب وأسلوب، وتركيب وتركيب، وصياغة وصياغة. وبهذه الوسائل كان الناس يتفاوتون في إدراك الخفي والدقيق في البيان العربي. ومن البديهي أن نقول إن تلك الوسائل لا تكتمل للدارس في عصرنا الحديث إلا بتتبع فصيح كلام العرب في أشعارها وخطبها مع الوقوف على ملحوظات العلماء في اللغة والنحو والبلاغة، وفي ضروب المعاني والأساليب التي جعلت العلماء يعجبون بها[3].

---

(1) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي من علماء القرن الخامس الهجري، تتلمذ على شيخ الأدباء والشعراء أبي العلاء المعري، وكان أعلم الناس في النقد والبلاغة، توفي سنة 466هـ.

(2) سورة الكهف، الآية 1.

(3) مما يبين أن وجوه الفصاحة والبلاغة لم تكن تكتسب بسهولة عند الشعراء والخطباء والنقاد أن المتميز ين منهم خاصة كانوا يقضون سنوات طويلة في التحصيل والنظر الدقيق في كلام العرب لعلهم يهتدون إلى معنى خفي، أو تركيب دقيق، أو أسلوب بليغ. وبرغم هذا التأني في النظر فقد كانت تغيب عنهم أسرار من التراكيب الدقيقة. وهذان العالمان أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر كانا من أعلم الناس في زمانهما باللغة وأشعار العرب، ومع ذلك غاب عنهما سر من أسرار البيان العربي في قول بشار :

بكرا صاحبي قبل الهجير ... إن ذاك النجاح في التبكير

فقد قالا له : لم لا تقول : بكرا فالنجاح في التبكير ! فقال لهما : إنما قلتها عربية أعرابية.

وحينما تأملا وجه التركيب قاما وقبلا بين عينيه إعجابا ببيانه، وقدرة تمكنه وعلمه بأسرار التركيب العربي البليغ. وبلاغة مثل هذا التركيب هي التي جاءت في البيان القرآني. قال الله تعالى : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ (سورة هود، الآية 37).

وقوله عز من قائل : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ (سورة الحج ، الآية 1).

وقد تعددت طرق الشعراء والأدباء في اكتساب المهارات اللغوية والفنية، وانعكس هذا التعدد في شعرهم وأدبهم مما جعله يحمل وجوها عديدة من التراكيب الدقيقة، والدلالات الخفية، والصور البديعة.

وهذا التعدد في الخبرات والمهارات يجعل معرفة ما في التراكيب من محاسن ومساوئ يتفاوت بين الأفراد بمقدار ما استوعبوا من معارف في الأدب العربي. ومن هنا نجد لكل ناقد منهجه في كيفية الاهتداء إلى وجوه المحاسن والمساوئ في أسرار علوم اللغة العربية وآدابها، فذهبوا مذاهب متعددة في الاجتهاد والاستنباط والتفسير والتأويل والتخريج، إلا أن هذا الاختلاف لا يبلغ حد التناقض الذي يجعل الحسن قبيحا، والقبيح حسنا، وإنما تجلى اختلافهم في تباعد رؤيتهم في تصور المعاني والدلالات والصور الفنية، وتقويم وجوه المحاسن والمساوئ.

وهذا الاختلاف أيضا لا يمنع الدارس في علوم اللغة العربية وآدابها من الاطلاع عليها، والاستفادة من جزئيات اختلافهم من أجل تقويم بيان العرب عامة، وإدراك أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه خاصة ؛ لأن آراء هؤلاء العلماء برغم ما فيها من اختلافات جاءت بعد دراسة مستفيضة للتراث العربي، ولبيان القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

وإذا كان البحث في أسرار البيان هدفا وغاية لكل من أراد اكتساب المهارة الأدبية والفنية، والقدرة على إبداع الأدب الجيد، ونقده وتحليله، وتمييز جيده من رديئه، فإن الدارس للأحكام الشرعية، ولعلوم القرآن، أولى بالبحث فيه لمعرفة مقاصد الشريعة وأغراضها، وإدراك أسرار الإعجاز، والرد على دعاة الباطل، ومن ذهب مذهب أصحاب الصرفة[1] قال الخفاجي : «وأما العلوم الشرعية فالمعجز الدال على نبوة محمد نبيناﷺ هو القرآن. والخلاف الظاهر فيما به كان معجزا على قولين :

أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية. وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر.

والقول الثاني، إن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف. وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول

(1) كان أول من نادى بهذا الرأي واصل بن عطاء، ثم تبعه تلميذه إبراهيم بن سيار النظام، وهما من فرقة المعتزلة التي دعت إلى استعمال العقل في كل شيء، وعدم التقيد بظواهر النص القرآني. لكن فئة منهم لم تعتد بهذا المذهب، ومنهم أديب العربية الأكبر الجاحظ الذي كان صاحب فرقة في الاعتزال سميت الجاحظية. فقد ألف هذا الأديب كتابا في نظم القرآن وأسلوبه رد فيه على الطاعنين في بيانه، وأظهر أن القرآن معجز بنظمه وأسلوبه، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه، وأن العرب عجزوا فعلا عن مجاراة آياته،لأنهم رأوها فوق قدرتهم اللغوية والبيانية.

في الحاجة إلى تحقيق الفصاحة ما هي ؟ ليقطع على أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم»[1].

هذه الفكرة تؤكد حاجة الأديب والفقيه إلى معرفة أسرار البيان، فالأديب والشاعر والخطيب، وكل من يبدع في جنس الأدب يحتاج إليه، لأن الإبداع الأدبي يقوم على أساس سلامة الأسلوب والمعاني، والقدرة على التصوير الفني البديع. أما الفقيه والمحدث والباحث في علوم الشريعة ومقاصدها فإنه يحتاج إليه لفهم المعاني، وإدراك خصائص الإعجاز، وتقديم الدليل اللغوي والمعنوي في منهج تفسيره واجتهاده وإفتائه،لأن تراكيب اللغة العربية عامة ولغة القرآن خاصة، جاءت بالتعبير الحقيقي والمجازي، ومن لم يفهم مجازات اللغة العربية لا يكون قاصرا عن فهم الحقائق فحسب، وإنما يحرف ويغير الدلالة، وهذا هو الأمر الفظيع الذي يقع فيه بعض من يتعاطى التفسير وهو جاهل باللغة والمعاني. والمجاز في اللغة العربية تعبير أصيل تميزت به عن بقية اللغات الأخرى، قال الخفاجي : «إلا أن لغتنا فيها من الاستعارات والألفاظ الحسنة الموضوعة ما ليس مثله في غيرها من اللغات»[2].

وهذه الميزة اللغوية والأدبية والفنية في اللغة العربية لا يدرك سرها إلا من عرف طبيعة اللغات الأخرى بدرس خصائصها التركيبية والأسلوبية. لقد كانت الأمم الأخرى ترى المجازات ضربا من العبث اللغوي، لأنهم لم يفهموا إيحاءاتها ورموزها وإشاراتها، لكون لغتهم تخلو منها. ذكر الخفاجي أن أحد ملوك الروم سأل عن شعر المتنبي، فأنشد أحدهم قوله :

كأن العيس كانت فوق جفني ... مناخات، فلما ثرن سالا

فلما فسر له معناه بالرومية استغرب وأخذه العجب، ثم قال : «ما أكذب هذا الرجل ! كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان»[3].

---

(1) سر الفصاحة : 3-4.

(2) المصدر نفسه : 49.

هذا الرأي ليس مقصورا على القدماء، وإنما توصل إليه الباحثون في فلسفة اللغات وتطورها في عصرنا الحديث، ومنهم الباحث عباس محمود العقاد الذي أكد هذه الظاهرة المتميزة في اللغة العربية بقوله : «وليس في اللغات التي نعرفها أو نعرف شيئا كافيا عن أدبها لغة واحدة توصف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد، أو لغة الأعراب أو اللغة العربية» (اللغة الشاعرة : 7).

(3) سر الفصاحة : 49.

إن التعبير المجازي في اللغة العربية اهتدى إليه الأعرابي بعد تجارب طويلة في ميدان الأدب والشعر كي يتخلص من قيود بيئة عانى من جدبها وشظفها وقساوتها؛ فلم يكن يجد وسيلة للترويح عن نفسه إلا بالخيال، يسبح في عوالمه ليعانق قمرا،أو يصافح أسدا، أو يحادث زهرة، أو يسامر نجما، بل يتحول بواسطة المجاز إلى أسد شاكي السلاح، وفارس يقهر أعداءه، ويرد غارة المغيرين وكيد الكائدين، وإلى بحر يجود بكل ما يملك على المعتفين وذوي الحاجات في زمن الشدة، وإلى سيد فخور بنفسه، يتعالى على الملوك وأصحاب العروش. وبالمجاز حاور الإنسان العربي الجماد، وشكا إليه حزنه وتقاسم معه أفراحه، وأضفى عليه صفة القدرة والإرادة. إن العربي الذي نشأ في بيئة الفصاحة والبيان لم يجد غموضا في مجازات القرآن، لأنها في شعره ولغته وخياله، وهي جزء من علاقاته الاجتماعية والإنسانية.

وابن سنان الخفاجي من الأعلام الذين درسوا هذه الخصائص في البيان العربي وفي القرآن الكريم. ولذلك فإن الوقوف على آرائه يبرز جزءا كبيرا من عبقرية اللغة العربية، وإعجاز القرآن، وللتعرف على هذه الخصائص بدقة ينبغي الإشارة إلى خصائص الألفاظ المفردة والمركبة في مباحثه.

فصاحة الألفاظ المفردة :

إن رصد وجوه الفصاحة في الألفاظ المفردة عند الخفاجي لا يتم بمراعاة الجوانب التي تركز على تلاؤم حروفها، وعلاقتها بجهاز النطق والسمع فقط، وإنما بجوانب أخرى منها النظر في سلامة مخارج حروف اللفظة من الحلق والشفة، ومدى تأثيرها الموسيقي على جهاز السمع، وارتباطها بالعرف العربي سليقة وملكة، وما يوجد فيها من خصائص الطبع والذوق والبعد عن الغريب والحوشي والمبتذل والشاذ.

وحينما نستعرض ألفاظ القرآن الكريم بالإشارة إلى ما ذكره البلاغيون من الوجوه الملائمة للفصاحة والبيان نجدها جمعت كل المحاسن، وخلت من كل العيوب التي تشين تركيب حروفها واستواء ألفاظها. فحروف كتاب الله تألفت تأليفا بديعا متناسقا جعل مخارجها مستوية ومنتظمة مع الجهاز الصوتي همسا وجهرا، وشدة ورخاوة، وتفخيما وترقيقا، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾[1].

(1) سورة الكهف، الآية 1.

هذه الخصائص المتميزة والبديعة في حروف ألفاظ القرآن أعطتها شأنا عجيبا في التركيب والفصاحة والبيان، فكانت الآيات البينات تنزل بردا وسلاما على الأسماع، وتجد طريقها إلى القلوب الواعية التي هداها الله إلى هذا الكلام الطيب، فتحدث فيها أثرا بليغا يفوق ما يحدثه الماء في التربة الكريمة. وأعداء الإسلام برغم رفضهم لرسالة النور واليقين فإنهم كانوا يقفون متعجبين من نمط أسلوب القرآن، وكان منهم من يأتي مستترا في الليل ليستمع إلى الآيات البينات التي كان يتلوها الرسول عليه السلام، وأصحابه رضوان الله عليهم؛ ولم يستطيعوا تصنيفه فيما كان متداولا عندهم من أنماط التعبير قصيدا كان أو رجزا أو خطابة أو سجعا، ولهذا عبروا عن إعجابهم ببيانه بقولهم : «والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة»[1].

وكما تميزت حروف كتاب الله بسلامة الوضع والمخرج تميزت ألفاظه كذلك بهذه الخاصية البديعة للدلالة عن الشيء كما هو في عرف اللغة دون لبس أو غموض أو اشتراك أو اشتكال يفسد المعنى، لأن القرآن كتاب شريعة سماوية وضع للناس القوانين والأحكام التي تخص أحوالهم في العبادات، وضروب المعاملات والسلوك والعلاقات الاجتماعية والخلقية والسياسية والاقتصادية.

ومن طبيعة التعبير الذي ينظم العلاقات الإنسانية أن يكون واضحا لا لبس ولا غموض في تركيبه ودلالته. ومن هنا كانت ألفاظ كتاب الله وتعابيره مادة تشريعية يعتمد عليها الفقهاء لوضع أصول الفقه وأحكام الشريعة للبث في النوازل التي تحدث في المجتمع؛ وكذلك تعد مادة لغوية لتصحيح التعابير والنظر في مدى ملاءمتها لسلامة البيان.

وهذا الشاعر أبو تمام كان فحلا من فحول الشعراء المحدثين وأعلمهم بفصاحة العربية وطرق البيان غابت عنه أشياء كثيرة في دقة التعبير مثل قوله :

حلت محل البكر من معطى، وقد زفت من المعطي زفاف الأيم

لقد لجأ اللغويون إلى تصحيح الخطأ في البيت الشعري من كتاب الله الذي جاء سليما في وضعه اللغوي والتركيبي. واللفظة التي وقع فيها الخطأ في بيت الشاعر هي لفظة "الأيم" التي وضعت موضع "الثيب"، وهي ليست كذلك في الكلام الفصيح البليغ، لأن "الأيم" هي التي لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا، قال تعالى : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾[2].

---

(1) السيرة : 289/1.

(2) سورة النور، الآية 32.

ليس المراد في الآية الكريمة نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار وإنما أريد النساء اللواتي لا زوج لهن[1].

وظل التعبير القرآني في مختلف عصور الثقافة والفكر مادة لغوية يجد فيها العلماء والفقهاء التركيب السليم الذي يؤدي المعنى بدون غموض أو إشكال، كما وجدوا فيه سمة الأسلوب الذي يتجنب التعبير بألفاظ يكره ذكرها، ويعد القرآن نموذجا لهذا الضرب من الأساليب، إذ لم يجد فيه الباحثون لفظة واحدة تؤذي السمع، أو تجعل الإنسان يخجل وهو يتلفظ بها أمام الناس. ومن هذا الضرب من الألفاظ ما نجده في الآيات البينات التي وردت عن طريق الكناية للتعبير عن معان قد يجد فيها الإنسان حرجا إذا عبر عنها بلفظ الحقيقة كقوله تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[2]. والرفث هو مقدمة الجماع من تقبيل وغيره، وقد تجنب القرآن التعبير عن الجماع بالعبارة الصريحة كي يظل التعبير في قدسيته الربانية.

وقوله تعالى : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾[3]. إن الكناية عن قضاء الإنسان حاجته بالأكل تعبير في غاية السمو والروعة، لأن الكائن الحي النشط يحتاج إلى طعام وشراب وهواء، ويحتاج كذلك إلى التخلص من الزوائد والفضلات في جسمه لكي يستمر في الحياة، ويؤدي وظائفه الضرورية.

وقوله تعالى : ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾[4]. والغائط كالوادي يحجب الأشياء، وذكره هنا تعبير عن قضاء الحاجة في الخلوة والستر.

وقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾[5]. إن الكناية عن الأعضاء التناسلية بالجلود من الأشياء التي يستحب ذكرها بدون خجل.

وقوله تعالى : ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾[6]. الملامسة هنا كناية عن الجماع، وفيها الكثير من رقة التعبير وعذوبته، لأن لفظ اللمس فيه دعوة إلى العلاقة الطيبة بين الرجل والمرأة.

---

(1) سر الفصاحة : 70.

(2) سورة البقرة، الآية 187.

(3) سورة المائدة، الآية 77.

(4) سورة النساء، الآية 43.

(5) سورة فصلت، الآية 20.

(6) سورة النساء، الآية 43.

فصاحة الألفاظ المركبة :

إن الخفاجي في هذا المبحث يعيد بعض ما ذكره في الألفاظ المفردة لأن المبحثين مرتبطان من حيث الدلالة على مواطن الفصاحة والبيان، إلا أنه يوسع البحث في علاقة اللفظة بالدلالة، والقرينة الدالة على السياق، ومناسبة اللفظة لما يجاورها. وبحث الخفاجي في هذه الأوجه أي في العلاقة بين التركيب والدلالة ينطلق من كون اللغة العربية تتوفر على ثروة هائلة من المفردات تشترك في المعاني، وكل معنى يحدده السياق والقرينة الدالة عليه؛ وهذه الخصائص هي التي جعلت الشعراء والأدباء يعبرون عن المعاني بطرق وأشكال متعددة الأوجه حيث يمكنهم تغيير لفظة، أو صياغة، أو تركيب للبحث عن المعنى الجيد والبديع الذي يروق في موضعه، ويؤدي غرضه على وجه السلامة.

ومن هنا وجدنا الخفاجي ينقد رأي بعض العلماء الذين احتفلوا بالمعاني دون الاهتمام بالتركيب والصياغة والديباجة والنسج والتحبير، وكأن المعاني ـ في رأيهم ـ هي مدار البلاغة؛ وقاعدة الفصاحة. ومن العلماء الذين رد عليهم في هذه القضية قدامة ابن جعفر الكاتب الذي أولى عناية للمعاني دون الألفاظ. قال الخفاجي : «ويجب أن يقال له إذا ذهب إلى أن المعاني هي الموضوع خبرنا عن الألفاظ التي أخذها هذا الصانع المؤلف فألفها إذا لم تكن عندك موضوعا لصياغة، فما منزلتها من الأقسام التي اعتبرها الحكماء في كل صناعة ؟ والتأمل قاض بصحتها، ونحن نرى الألفاظ تأثيرها في هذه الصناعة التي كلامنا عليها تأثير بين في الحسن والقبح، ولا يجوز أن تكون مع هذه العلقة الوكيدة غريبة عنها»[1].

هذه الفكرة هي التي دعا إليها الجاحظ من قبل حين كان يرد على الشعوبيين الذين هونوا من شأن البيان العربي، وبيان القرآن خاصة، وإن لم يشيروا إليه صراحة خوفا من هيبة السلطان، وهذا ما جعل الجاحظ أيضا يورد في كتابه "البيان والتبيين" آيات بينات، وأحاديث شريفة، وأشعارا بليغة، وخطبا محكمة، بين من خلالها أن البيان لا يقتصر على المعنى، وإنما هو معنى شريف، ولفظ محكم، سهل في مخرجه، جيد في سبكه، حسن في ديباجته، بارع في تصويره؛ وهي مزايا لا تتحقق إلا للقلة، بينما المعاني مادة مشتركة بين جميع الناس، كل واحد يتناولها من الجانب الذي يرغب فيه.

---

(1) سر الفصاحة : 104.

كما نقد الخفاجي في هذا الموضع رأي الرماني في تقسيمه تأليف الكلام إلى ثلاثة أضرب : متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا. ورأى الخفاجي أن تأليف الكلام ينبغي أن يحصر في ضربين فقط : متنافر ومتلائم[1].

وما يلفت انتباه الباحث في نقد الخفاجي للرماني أن هذا الأخير جعل أسلوب القرآن في الضرب الثالث أي متلائم في الطبقة العليا، وكلام العرب لا يتعدى ضربي المتنافر، والمتلائم في الطبقة الوسطى، ولكون نقد الخفاجي للرماني ربما يحدث التباسا عند الذين لا يحققون في الرؤية النقدية والبلاغية عند هؤلاء الأعلام، فيتوهمون أن الخفاجي يجعل أسلوب القرآن مثل أسلوب العرب تأليفا وتركيبا؛ ولهذا نرى أن نثبت قول الخفاجي هنا لكي نبحث في حقيقته ومضامينه. قال الخفاجي : «وأما قوله : إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا، وغيره في الطبقة الوسطى، وهو يعني بذلك جميع كلام العرب، فليس الأمر على ذلك، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه»[2].

ينبغي النظر في هذا النص من سياقه العام، ومن رؤية الخفاجي الشمولية لبلاغة القرآن، وبلاغة العرب. ويمكن أن نحدد رؤيته في الآتي :

أولاً : إن الخفاجي يرد في هذا النص رأي الرماني في بيان القرآن وبيان العرب، ولكي يميز الرماني بين النوعين جعل كلام العرب ـ الجيد منه فقط ـ متلائما في الطبقة الوسطى، وبذلك أخرجه من الدائرة التي وضع فيها بيان القرآن ـ وإن كان من صنف كلام العرب ـ وبهذا المفهوم لا يمكن وضع كلام في الطبقة العليا إلا القرآن الكريم. والخفاجي حينما رد على الرماني، وجعل بعض كلام العرب في الطبقة العليا فإنه يقصد بذلك اشتماله على الجيد البليغ مثل القرآن، وهذا الرأي لا ينفي المرتبة العليا للقرآن، وإنما القصد منه وجود بلاغة جيدة في كلام العرب مثل ما يوجد فيها المتوسط والرديء؛ أما القرآن فيبقى في المرتبة العالية. ومن هنا لا نرى في رده على الرماني ما يجعل مرتبة كلام العرب تساوي المرتبة العليا للقرآن، وإنما الذي نراه هو اعتباره بعض كلام العرب قريبا من هذه المرتبة العليا بيانا وفصاحة وتركيبا. وهذه الخصائص البيانية لا ينكرها أحد، وقد كان النبي عليه

---

(1) المصدر نفسه : 110.

(2) المصدر نفسه.

السلام يستمع إلى شعر العرب ويستحسنه، وهو القائل : «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما». كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون الأشعار، ويروونها، ويستشهدون بها لتفسير كلام الله، أو للتمثل بها في مواطن الجود والشجاعة ومكارم الأخلاق.

ثانيا : إن الخفاجي يقول في هذا النص : «ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية». قوله : في هذه القضية، تنصيص واضح على أن المقارنة في التراكيب والصياغة وسلامة المعاني حقيقة كانت أو مجازا، إذ من كلام العرب المختار ما هو سليم في تركيبه ومعناه مثل القرآن الكريم. وإذا كانت قاعدة الجودة والإحسان والمرتبة العليا تنطبق على النص القرآني كله، فهذه الخاصية لا تنطبق على جميع شعر العرب ونثرها، إذ نجد فيه الجيد والمتوسط والرديء؛ ولذلك وجدنا الخفاجي يورد في كتابه أشعارا رديئة في صياغتها ومعانيها لفحول الشعراء ليبين أن شعرهم لم يخل من هنات، بينما القرآن ينفرد بالإحسان والجودة التي لا توجد في كلام آخر.

ثالثاً : إن الخفاجي حينما يورد آيات القرآن للاستشهاد على صحة المعنى وسلامة التركيب في فن من فنون البلاغة يعتبر تلك الآيات قد بلغت الغاية المثلى في البيان والفصاحة، وإذا أراد الحديث عن التنافر والإحالة وغموض المعاني وفسادها فإنه يورد الشواهد من شعر العرب، وهذا المنهج كاف للدلالة على أنه لا يجعل كلام العرب يضاهي الآيات البينات في سمو معانيها، وصحة مبانيها مما جعلها تكتسب خاصية الإعجاز والتفوق. ولكي نبرهن عن هذا الرأي نورد بعض ملحوظاته في وضع الألفاظ موضعها، حيث اعتبر ذلك شرطا في الفصاحة والبيان. من ذلك حديثه عن القلب الذي يهجن المعنى، ويصرفه عن وجهه الصحيح، قال : «ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى، ويصرفه عن وجهه»[1].

وبعدما أورد عيوب القلب في الشعر خاصة، لأن العرب كانوا يعتبرون هذا الفن النموذج الأمثل في البيان، ذكر الآيات التي يعدها بعض البلاغيين من باب القلب، وهي ليست منه، لأن كلام الله منزه عن كل ما يمكن أن يصرف معناه عن وجهه الصحيح، ومن الآيات التي استشهد بها لتأكيد هذه الحقيقة في البيان القرآني قوله تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾[2].

---

(1) سر الفصاحة : 128.

(2) سورة القصص، الآية 76.

أظهر المعنى الذي يبين أن الآية ليست من باب القلب، فقال : «وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أن المفاتح تنوء بالعصبة أي تميلها من ثقلها، وقد ذكر هذا الفراء وغيره»[1].

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾[2]. معناه، «أنه لحب المال لبخيل، والشدة : البخل، أي من حبه للمال يبخل»[3].

كذلك نجد هذه الملحوظات في دراسته للاستعارة فقد استشهد بأبيات من الشعر تفاوتت استعارتها بين الجودة والرداءة، وما أكثر ما وقع الشعراء في المعيب المرذول لعدم التزامهم الشروط المطلوبة في العلاقة بين المستعار منه والمستعار له، مما يجعل الألفاظ تبدو متنافرة، وغير مستقرة في موضعها. أما استعارات القرآن فقد بلغت مرتبة عالية في سلامتها من كل عيب في اللفظ والمعنى، فألفاظها متلائمة على نحو ما تقتضيه الفصاحة والبيان من حيث العلاقة المتناسبة بين المستعار منه والمستعار له، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[4].

اللفظ الذي يجعل المعنى يأتي على وجه الحقيقة هو "عمدنا"، لكن «قدمنا أبلغ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم يقدم من سفر، لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم به، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال»[5].

وقوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾[6].

المعنى بلفظ الحقيقة هو "علا"، ولكن الاستعارة بلفظة "طغى" أبدع وأجود للدلالة على علو الماء بقوة وشدة، لا سيما في هذا الموضع حيث الهول والفزع من طغيان الماء، وتلاطم أمواجه، وترامیه إلى جميع الأطراف. وكذلك تجد هذه الدقة في لفظة الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾[7].

---

(1) سر الفصاحة : 131. والفراء هو يحيى بن زياد إمام الكوفيين في النحو واللغة والأدب، توفي سنة 207هـ.

(2) سورة العاديات، الآية 8.

(3) سر الفصاحة : 131. وشرحه "الخير" بالمال من قوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرا الوصية ﴾ سورة البقرة، الآية 180. وأما شرحه "الشديد" بمعنى البخيل، فلأن العرب تقول : فلان شديد ومتشدد، أي بخيل.

(4) سورة الفرقان، الآية 23.

(5) سر الفصاحة : 136.

(6) سورة الحاقة، الآية 11.

(7) سورة التكوير ، الآية 18.

إن التنفس هنا بمعنى الانتشار، ولفظة الانتشار لا تبلغ مبلغ التنفس التي استعملها القرآن، لأن التنفس يحمل في دلالاته معنى الترويح والطمأنينة والهدوء، إنه «أبلغ لما فيه من التروح عن النفس»[1]. هذه البلاغة الرفيعة لا تجدها في لفظة الحقيقة، ولذلك نرى في استعارة القرآن خصائص الحياة والتشخيص والتلوين والدفء الذي يجعل الصورة مفعمة بالإشراق والأنس والحياة؛ فالصبح هنا كائن حي يتنفس ويشعر بالاطمئنان بعدما أخذ قسطا من الهواء النقي الذي يجدد به الحياة، ويجعله قادرا على الاستمرار كباقي الكائنات الحية.

وإذا تحدث الخفاجي عن السجع، وهو من الفنون التي يصحبها التكلف غالبا كما جاء في سجع الكهان فإنه يميز سجع القرآن، وأحاديث الرسول عليه السلام، وأقوال الأعراب الفصحاء التي جاءت سهلة مطبوعة، ودالة على البلاغة. لقد وجد الخفاجي في هذه الأساليب نماذج مثالية للسجع المطبوع الذي يحتذيه البلغاء، ويتمثل به الفصحاء، قال : «وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها، ويظهر آثار الصنعة فيها ولولا ذلك لم يرد في كلام الله تعالى، وكلام النبيﷺ، والفصيح من كلام العرب»[2].

والقرآن حينما نزل بلغة العرب فإنه اختار أجودها تركيبا، وأبلغها معنى، وأسماها فنا ونظما؛ ولذلك كان أسلوبه مراعيا للعرف اللغوي السائد عند بلغائهم، فإذا كانوا قد أعجبوا بالسجع السهل في كلام بعض البلغاء، فإن هذه السمة، وجدوها بلغت درجة عالية في أسجاع القرآن، وفي أساليب أخرى مما جعلهم يعجبون أيما إعجاب بأسلوبه المتنوع تركيبا ودلالة وفنونا. ومن أسجاع القرآن التي تحققت فيها هذه البلاغة العالية قوله تعالى : ﴿ **في سدر مخضود وطلح منضود، وظل ممدود** ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ **والمرسلات عرفا، فالعاصفات عصفا** ﴾[4].

لقد استوت الجمل، واعتدلت اعتدالا منتظما مثل ما تتوحد قافية الشعر لإيجاد موسيقى في نهاية الكلمات متلائمة مع المعنى والسياق.

وبعض الباحثين يسمي هذا اللون من التعبير "فواصل" لكون مصطلح السجع ارتبط بالتكلف عند الكهان في الجاهلية، فلذلك تجنبوا تسميته في التعبير القرآني

(1) سر الفصاحة : 137.

(2) المصدر نفسه : 202.

(3) سورة الواقعة، الآيات 18-20.

(4) سورة المرسلات، الآيتان 1-2.

سجعا، وقالوا إن الفواصل تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها،أما السجع فتكون الألفاظ أظهر فيه. لكن الخفاجي يرد هذا الرأي ويعتبر المحمود منه ما جاء طوعا سهلا، وتابعا للمعاني، فواصل كان أو أسجاعا[1].

وفي حديث الخفاجي عن دلالة الألفاظ على المعاني، وهو باب تتفاوت فيه مراتب الفصحاء والبلغاء، حيث تتوزع التعابير بين ضروب الإطناب والمساواة والإيجاز والتذييل والإشارة واللمحة الدالة، فإنه حدد سمات البلاغة الرفيعة بمراعاة تلاؤم الكلام لفظا ومعنى في هذه الضروب من البيان فقال : «والذي عندي في هذا ما ذكرته، وهو أن المختار في الفصاحة، والدال على البلاغة هو أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة، لا أن تكون الألفاظ لفرط إيجازها قد ألبست المعنى وأغمضته حتى يحتاج في استنباطه إلى طرف من التأمل، ودقيق الفكر، فإن هذا عندي عيب في الكلام ونقص»[2].

هذا الكلام الذي حدد فيه الخفاجي سمات الأسلوب الفصيح البليغ لفظا ومعنى هو النموذج المثالي الذي جاء في القرآن الكريم. ولننظر في الحد الذي وضعه لبلاغة الإيجاز حيث قال : «هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ»[3].

هذا الحد اعتبر جامعا لتعريف البلاغة، ولذلك قالوا : البلاغة هي الإيجاز. ومن هنا وجدنا الخفاجي يقدم نموذجا بتعبيرين،أحدهما من كتاب الله، والآخر من أقوال الأعراب الفصحاء، والتعبيران يلتقيان في معنى واحد ويختلفان في طريقة التركيب. وهذا الاختلاف هو الذي يحدد وجوه البلاغة في كل واحد منهما. فالنموذج القرآني في قوله تعالى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾[4]. هذا المعنى عبر عنه الأعراب بقولهم : «القتل أنفى للقتل».

والملاحظ أن ما يجمع بين الآية الكريمة وقولة الأعراب هو الإيجاز البليغ، والدلالة على معنى واحد له تأثير على حياة الفرد والجماعة، وهو إيجاد الأمن والاستقرار في المجتمع دون خوف من قوي جبار، أو ظالم متسلط، أو حاكم مستبد؛ وهذا ما نستخلصه من قانون القصاص الذي أقره الإسلام، وجعله مبدأ أساسيا في العلاقات الفردية والاجتماعية. قال الخفاجي : «وذلك أن المراد بها أن الإنسان إذا علم أنه متى

---

(1) سر الفصاحة : 203. وانظر كتابنا : "البديع في التراث النقدي والبلاغي"، ص 407.

(2) سر الفصاحة : 244.

(3) المصدر نفسه : 248.

(4) سورة البقرة، الآية 179.

قتل قتل كان داعيا له قويا إلى ألا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم»[1].

وتجد هذا المعنى في قولة الأعراب حيث قصدوا بها القصاص أيضا، لكن الاختلاف بين التعبيرين يبدو في أوجه الفصاحة والبلاغة التي يصاغ بها الكلام، يدرك هذا كل من نظر في التعبيرين بتأمل، وكان قادرا على التمييز بين الجيد والأجود، والحسن والأحسن، أما من لا يحقق في خصائص الأساليب بالكيفية التي أشار إليها العلماء فيبدو له أنه لا توجد فروق كبيرة بين التعبيرين ما دام كل واحد منهما قد عبر عن المعنى المقصود وأدى الغرض المطلوب، لكن علماء البيان وذوي الاختصاص في علوم اللغة العربية يعرفون وجوه التفاوت بينهما، ولماذا اختصت الآية الكريمة بمزايا بلاغية لا توجد في قولة الأعراب. ويمكن بيان الفرق بين التعبيرين في الآتي :

أولاً : في الآية الكريمة تنصيص واضح ومحدد على الوجه الذي يتم فيه القتل، وهو القصاص لكون المجتمع في حاجة إلى هذا القانون الذي ينظم به نفسه، ويوفر شروط السلم والأمن الدائمين لأفراده، «وإنما القتل الذي ينفيه ما كان على وجه القصاص والعدل، ففي ذكر القصاص بيان للمعنى وكشف للغرض»[2].

أما قولة الأعراب «القتل أنفى للقتل» فإنها تعم القتل بدون تحديد الهدف والغاية التي يشعر بها المجتمع، وتنعكسان على حياة الفرد.

ثانياً : إن الآية الكريمة تدعو للشيء المرغوب فيه، وهو الحياة الآمنة المطمئنة التي ينعم الناس فيها بوئام ومحبة وسلام؛ وهذه الزيادة في الإيضاح لا توجد في قولة الأعراب، لأن لفظة "أنفى" اختصت بالقتل الذي ينفي القتل عموماً.

ثالثاً : إن في قولة الأعراب خاصية مذمومة في البلاغة، يعرفها أصحاب البيان، وهي التكرار الذي لا يزيد في المعنى، ولا يوسع أفق التأويل والاستنباط والاستنتاج عند المتلقي، لأن لفظة القتل الثانية جاءت بمعنى الأولى «وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج، فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع»[3].

والتكرار في البيان العربي قد يكون محمودا إذا اختص بشروط نص عليها النقاد، وهي لا توجد في هذه القولة[4].

---

(1) سر الفصاحة : 245.

(2) سر الفصاحة : 246.

(3) المصدر نفسه : 113.

(4) منها أن يكون التكرار للتأكيد، أو لاستحضار اسم محبوب يجد المرء في ذكره لذة.

لهذه المزايا، وهي كثيرة في كتاب الله، كانت بلاغة القرآن متميزة عن بلاغة الأعراب، ولذلك اعتبر العلماء كلام الله أسمى كلام وأرقه وألطفه وأبدعه، وأجدر أن تبحث فيه خصائص البيان[1].

ومما عني به الخفاجي في بلاغة القرآن الإيجاز بالحذف، وهو من الخصائص المتميزة في اللغة العربية، وقد جاءت فيها تراكيب كثيرة وقع فيها حذف مع استيفاء المعنى المطلوب بدون إخلال أو نقص أو غموض، كقوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾[2].

إن الحذف في الآية لم يخل بالمعنى فيبدو غامضا أو مبهما. والسامع لهذا البيان وبخاصة المتمرسين بكلام الأعراب يدرك بلاغة الحذف والمحذوف، وهو «لكان هذا القرآن» «ولم يقل ذلك»[3].

وهذه خاصية فريدة في عبقرية تراكيب اللغة العربية تجعل الأدباء والمترسلين يتفننون في أنواع الأساليب لبيان قدرتهم ومهاراتهم في الكتابة الأدبية. وقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾[4].

إن الحذف في الآية دال على شرف المعنى، وتأويله من طرف البلاغيين يظهر هذا الشرف، إذ أريد به، «لما كان هذا كله حاصلا حصلوا على النعيم الذي لا يشوبه كدر»[5].

---

(1) من ذلك إشارة الجاحظ، وهو من البلاغيين الأوائل الذين بحثوا في خصائص الإيجاز بين القرآن وكلام الأعراب، فقال في كتاب "الحيوان" : «ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع بين المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ (سورة القلم، الآية 42). وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. ومنها قوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة، فقال : ﴿ **لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ (سورة الواقعة، آية 33) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني» (الحيوان : 278/4).

(2) سورة الرعد، الآية 31.

(3) سر الفصاحة : 246.

(4) سورة الزمر، الآية 73.

(5) سر الفصاحة : 246.

وبعض البلاغيين يرى في مثل هذا الحذف مبالغة طريفة، القصد منها ترك السامع يقدر أشياء لا يحيط بها الوصف المذكور، ومنهم السجلماسي حيث قال : «وإنما يحذف الجواب في مثل هذه الأدوات المقتضية الجواب لقصد المبالغة، لأن السامع يترك مع أقصى تخيله بتقديره أشياء لا يحيط بها الوصف، وذلك حيث يسوق السياق إلى معنى واحد يقع على أنحاء كثيرة، ووجوه متعددة وآخذة بالنوع، ولأخذ بعضها بدل بعض في زمن كأنها تقع فيه دفعة يحار الوهم ويعظم التخيل لها بذلك، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به المعين، فلا يكون له ذلك الوقع» (المنزع البديع : 190).

إن الزيادة في مثل هذه التعابير تطويل معيب بخلاف المعنى الذي يراد به الإطناب، حيث يحتاج للتفصيل والتفريع؛ إنه مذهب مستحسن ومحمود لكونه يخرج المعنى مستوفيا، ولذلك جاءت بعض آيات القرآن الكريم في هذا الضرب من البلاغة دالة على الإحسان مثل ما جاء الإيجاز بليغا بأقل الألفاظ. وهذه هي البلاغة التي عبر عنها الأعراب بقولهم : «الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل». لقد اعتبروا البليغ هو من كان قادرا على الجمع بين الإيجاز والإطناب، مراعيا في أساليب خطابه ذهنية ونفسية المتلقي، وذلك أن الذكي الفطن يخاطب بعبارات لا يخاطب بها البطيء الفهم، إذ الأول يكتفي بالإشارة واللمحة الدالة، بينما الثاني يحتاج إلى التكرير والتفصيل والتفريع والزيادة.

ومذهب الخفاجي في ترجيحه بلاغة القرآن على بلاغة العرب يظهر أيضا في اعتماده أسلوب القرآن حجة في تصحيح قوانين البلاغة. فهذا قدامة بن جعفر من النقدة المهرة الذين كان لهم رأي نافذ في البيان، وقد شهد له بذلك المتقدمون والمتأخرون، ينقده الخفاجي، ويصحح ما وقع فيه من أخطاء في الفصاحة والبيان باعتماد أسلوب القرآن حجة في سلامة التراكيب وروعة البيان. لقد عد قدامة قول ابن هرمة :

تراه إذا ما أبصر الضيف مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

من الكلام المتناقض لكون الشاعر أقنى الكلب الكلام في قوله : يكلمه، ثم أعدمه إياه عند قوله : إنه أعجم[1].

هذا التخريج من قدامة يرده الخفاجي، ويعتبره غلطا في تقدير المعاني، وحجته في ذلك من كتاب الله الذي جاء فصيحا بليغا بلسان عربي مبين. قال الخفاجي : «وهذا غلط من أبي الفرج طريف، لأن الأعجم ليس هو الذي قد عدم الكلام جملة كالأخرس، وإنما هو الذي يتكلم بعجمة ولا يفصح. قال الله تبارك وتعالى : ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين**﴾[2]. وإذا قيل : «فلان يتكلم، وهو أعجم، لم يكن ذلك متناقضاً»[3].

اعتماد الخفاجي على بيان القرآن في تصحيح المعاني يدل دلالة قوية على أن كتاب الله حجة في سلامة المعاني والتراكيب.

---

(1) تناقض الكلام واستحالته من عيوب المعاني، وذلك أن يكون التقابل من جهة واحدة، كقول أحد الشعراء :

أرى هجرها والقتل مثلين، فاقتصروا

ملامكم، فالقتل أعفى وأيسر

لقد جعل الهجر والقتل مثلين، ثم قال : إن القتل أعفى وأيسر.

(2) سورة النحل، الآية 103.

(3) سر الفصاحة : 284.

رأي الخفاجي في تفاوت الآيات البينات في الفصاحة والبيان :

إذا كانت آيات القرآن الكريم قد نزلت من لدن خبير حكيم لتكون حجة لرسالة نبينا عليه السلام، يتحدى بها الجهابذة في عصر البيان حتى بلغ التحدي مبلغا عظيما جعل العرب عاجزين عن الإتيان بآية واحدة تشبه آيات كتاب الله، فإنه لا يمكن لأي باحث في البيان والأساليب الاعتقاد بتفاوت الآيات البينات في البلاغة والفصاحة، فيكون منها ما يبلغ المرتبة العليا، ومنها ما ينزل عن هذه المرتبة، والله سبحانه وتعالى وصف كتابه العزيز جملة وتفصيلا بحكمة الإبلاغ والإبانة، ونفى عنه العوج والاضطراب في التراكيب والمعاني دون أن يميز بين سوره وآياته.

وإذا كان العلماء قد عنوا ببعض الآيات لاشتمالها على أحكام وشرائع وقوانين فإن هذه العناية ليست دالة على التفاوت بين آيات القرآن، وإنما القصد تخصيصها لبيان أحكامها وفضائلها ومزاياها، وما حملته للمسلمين من فضائل تدعو إلى تأملها وتدبرها. وما يوجد في كتاب الله من شرائع وقوانين لا يمكن حصره والإحاطة به، ولذلك تجد العلماء في كل عصر يكتشفون جوانب عديدة منها تعين الناس على إسعادهم في حياتهم الدنيا والأخرى.

وإذا كان التفاوت البلاغي منعدما بين آيات القرآن الكريم فإن ما يميزه جملة وتفصيلا هو سمو معانيه، وضبط أحكامه، وقوة شرائعه وقوانينه، لا فرق بين السور الطوال والقصار. والعرب الذين نزل إليهم الكتاب العزيز، وبخاصة الذين أمعنوا في الكفر، لو كان في مقدورهم أن يأتوا بسورة أو آية واحدة تشبهه لفعلوا، لكنهم ـ لعجزهم ـ لجأوا إلى المكر والخداع والمواجهة بأشكال متعددة. وقد أدركوا في نهاية الأمر أنهم أخطأوا بصدهم عن هذا النور، وأنهم عطلوا قواهم العقلية ووجدانهم وإحساسهم عن التفكير في أسراره وبدائعه. وكان من نتائج إقبالهم على تدبر آياته البينات بإيمان وصدق أن أصبحوا في فترة وجيزة سادة الناس في العلم والحكم والسياسة والإدارة بعدما كانوا مستضعفين ومتفرقين تفتك بهم الحروب، وتمزقهم الأحقاد والضغائن. وقد وصف الله سبحانه وتعالى حالهم قبل الإسلام، فقال عز من قائل : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[1].

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

ولكن الخفاجي في هذه القضية خاصة يذهب مذهبا يخالف فيه إجماع العلماء، إذ يرى آيات القرآن غير متساوية في الفصاحة، وحجته في ذلك أنه وجد الناس منذ بدأوا يبحثون في بيان القرآن وإعجازه كانوا يدرسون آيات معينة، تتردد في مباحثهم لكونها اختصت بمزايا بيانية. قال : «أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة فالأمر فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة، وشدا شيئا يسيرا، وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة، وحسن التأليف، كقوله تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾[3]، فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى»[4].

الظاهر من هذا النص أن الحجة التي اعتمدها الخفاجي لتدعيم رأيه هي إفراد آيات معينة بالدرس والتحليل عند الباحثين، مما يظهر إعجابهم بحسن تأليفها، وسر فصاحتها. والحق أن هذه الآيات التي أشار إليها مع آيات كثيرة ترددت في مؤلفات البلاغيين، والدارسين لإعجاز القرآن؛ لكن هذا الاختيار والإعجاب والانبهار لم يكن نابعا من تفضيل الآيات من جانب الفصاحة، وإنما جاء نتيجة الحديث عن فنون بلاغية معينة أو أحكام وقوانين ينبغي ذكرها في موضعها. والقرآن الكريم لم ينزل ليكون قواعد للفنون وللأحكام والقوانين فقط، مما يجعل البلاغيين يذكرون جميع آياته البينات في علوم البلاغة شرحا وتحليلا وتبيانا، فهذا مجال المفسرين، وإنما هو كتاب عقيدة يدعو الناس إلى الإيمان والتقوى والعمل الصالح بآيات بينات، وفي نفس الآن يشرع لهم الأحكام والقوانين التي تسعدهم في حياتهم الدنيا، وتجعل أعمالهم مقبولة عند الله. وكل كلام كيفما بلغت درجة بلاغته لا يمكن أن يكون قواعد للفنون البلاغية. وكتاب الله لم يخرج عن القاعدة التي كان العرب يفرغون فيها كلامهم البياني على وجه الصحة. إن كلامهم المختار هو الذي جاء سهلا مطبوعا، ومنقحا بدون تكلف وتمحل، قد تجد في القصيدة كلها فنا من فنون البلاغة أو تخلو منها لأنهم

(1) سورة هود، الآية 44.

(2) سورة البقرة، الآية 186.

(3) سورة البقرة، الآية 178.

(4) سر الفصاحة، الآية 263.

كانوا أحرص الناس على أن يكون بيانهم بعيدا عن التكلف. والبلاغيون حين اختاروا آيات بينات من كتاب الله للاستشهاد بها على فنون البلاغة فإنهم كانوا يدرسون تلك الوجوه من البيان في آيات معينة للبحث عن استعارة نادرة، أو تشبيه طريف، أو تمثيل بارع، أو تطبيق خفي، وغيرها من الفنون التي جاء كتاب الله أنموذجا مثاليا لها. ومن هنا فإننا لا نتفق مع الخفاجي في كون آيات كتاب الله تختلف في وجوه البيان والفصاحة؛ ولا ندري السبب الذي جعله يذكر ذلك. وهو في كل موضع من كتابه يردد عبارات تنم عن علو بلاغة القرآن على سائر بلاغات العرب، كما كان يقف طويلا عند حسن كلامه، وصحة نسقه، وقوة نظمه، وجمال انسجامه مع الأغراض والمضامين الروحية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية ؛ ولم يجد فيه مطعنا واحدا في الاستحالة والتناقض والاضطراب والتفكك الذي وجده في أشعار العرب. وبرغم وجود هذا النص في كتابه فإن كتابه يعد مصدرا من مصادر البيان القرآني، والبيان العربي عامة، لأنه لم يقلل من شأن هذا البيان، أو يشكك فيه.

المبحث الثالث

نظرات في منهج التفسير البياني عند عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ"

كان القرآن الكريم، وما زال وسيظل، كتاب العربية الأكبر الذي استعان به العلماء لضبط قواعد اللغة والنحو والبلاغة والأساليب، ولكون القرآن مصدرا لأصول هذه القواعد ظل على مدى العصور والأزمان معينا لا ينضب، وكنزا لا يفنى ؛ يحتكم إليه العلماء ويجعلونه الحجة في ما وقع فيه خلاف في البيان وقواعد اللغة، ولهذا السبب اتجه العلماء في مرحلة مبكرة من تاريخ الفكر الإسلامي إلى التفسير البياني للقرآن للبحث في إعجازه وخصائصه الأسلوبية. وبرغم أن الكتاب أنزل بلسان العرب ولغتهم، فإنهم وجدوا فيه أسلوبا يفوق أسلوبهم، وبيانا يعلو على بيانهم. وهذا ما جعل القرآن يتحداهم بالإتيان بسورة منه أو بآية، وهم الذين كانوا يجولون في ميدان البيان بأشعارهم البليغة وحكمهم الرصينة، وخطبهم المحكمة، وأمثالهم السائرة. وقد أدرك الفصحاء والبلغاء منهم أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله. وأشار الكتاب العزيز في آيات كثيرة إلى هذه الخصائص البيانية الرفيعة. قال تعالى : ﴿ **ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[1]. وقوله عز من قائل : ﴿ **ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿ **وهذا لسان عربي مبين** ﴾[4].

انطلاقاً من هذه الحقيقة الثابتة عكف العلماء على دراسة هذا البيان السامي لاستجلاء معانيه الدقيقة وصيغه المحكمة. لكن هذه الحقيقة لم تمنع العلماء من الاستعانة بشعر العرب ولغاتها لفهم المعاني، وقد فعل ذلك الصحابة، رضوان الله عليهم. روي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال على المنبر : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ **أو يأخذهم على**

---

(1) سورة هود، الآية 1.

(2) سورة الحجر، الآية 1.

(3) سورة الكهف، الآية 1.

(4) سورة النحل، الآية 103.

تخوف ﴾[1] ؟ فسكتوا، فقام شيخ من "هذيل" فقال : هذه لغتنا، التخوف : التنقص، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تامكا قردا   كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

ومن هنا نص العلماء على أن الذي يتعاطى للتفسير ينبغي أن يكون ملما بفقه اللغة، وبمعاني أشعار العرب التي درسها العلماء في علمي المعاني والبيان. قال الزمخشري : «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللهﷺ بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ»[2].

ومثل هذا الكلام ردده السكاكي حينما تحدث عن علمي البيان والمعاني، فقال : «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى، وتقدس من كلامه، مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل»[3].

هذا الاهتمام البالغ بالبيان القرآني جعل مصادر اللغة والنحو والبلاغة والمعاني تمتلئ بآيات الذكر الحكيم للاحتجاج على سلامة معنى أو تركيب أو صياغة؛ فأصبح القرآن كتاب العربية الأكبر الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستغني عنه باحث في علوم اللغة العربية.

منهج التفسير عند بنت الشاطئ :

تعد الباحثة والأديبة عبد الرحمن بنت الشاطئ من أبرز الدارسين لأدب العربية وبيانه في العصر الحديث. وقد تفرغت في مرحلة من حياتها، بعدما نضجت فكرا وعلما، للاهتمام بالتفسير البياني لكتاب الله باعتباره كتاب العربية الأكبر، والجامع لخصائص فقه اللغة وبيانها، فلا الشعر ولا الخطب ولا الأمثال بقادرة أن تجلو هذه الخصائص مثلما يكشفها القرآن الكريم. وهذا ما جعلها ترتاب في كونها فهمت فقه

---

(1) سورة النحل، الآية 47.

(2) الكشاف : 1/16-17.

(3) مفتاح العلوم : 162.

اللغة قبل عكوفها على كتاب الله : «ومنذ سنين وأنا أقوم بهذه المحاولة في دراسة النص القرآني لغة وبيانا، تطبيقا للمنهج الذي تلقيته، وعلى كثرة ما اشتغلت به من روائع النصوص الأخرى، فاني لا أستطيع بحال أن أعبر عما كان يبهرني من جلال هذه المحاولة، وما راضتني به، عقلا وذوقا ووجدانا، إلى الحد الذي جعلني أتساءل في ارتياب : هل كنت قبلها قد صح لي فقه لغتي العربية، وإدراك أسرار بيانها ؟»[1].

لقد ساور الباحثة هذا الارتياب لكونها وجدت القرآن بلغ ذروة عالية في الإحكام والإعجاز، إنه كتاب لم تشبه شائبة مثل النصوص الشعرية والنثرية التي تعرضت للتحريف والوضع والتصحيف. وهذا ما جعل الباحثة تتدبر معاني النص القرآني وأسلوبه وصياغته بدقة متناهية في التمعن والنظر الصائب عقلا ووجدانا وفهما لأسرار كلمته.كما أنها جعلت البيان القرآني شاهدا على فقه اللغة وبلاغة العربية وبيانها؛ فما وجد في نصوص الشعر والنثر من اضطراب وخلل، ولو كانت تلك النصوص صادرة عن الفحول وأصحاب القول الرصين، فان تقويمها يكون في النص القرآني الذي لاعوج فيه ولا خلل : «فكنت كلما ازددت تعمقا في الدرس، وفقها للعربية، وقفت مبهورة أمام جلال هذا النص المحكم، وعدت أتلو من معجز آياته ما أدركت معه لماذا أعيا العرب ـ وهم أصحاب الفن القولي، واللغة طوع لسانهم ـ أن يأتوا بسورة من مثله»[2].

ولكي تبرز الباحثة نقاء النص القرآني وصفاءه، وما بلغ من ذروة عالية في الإحكام والإعجاز، عمدت إلى منهج يختلف عن المنهج التقليدي الأثري الذي اعتمده المفسرون القدماء ،وإن كانت لا تنكر جهودهم في بيان الأسرار البيانية للقرآن، إلا أن هذه الجهود قد شابتها عند بعض الدارسين تأويلات بعيدة عن نص القرآن، كما خضع بعضها لأذواق وعقليات وبيئات المفسرين ؛ وهذا ما جعلها تقترح منهجا اعتبرته أدق من مناهج القدماء في كشف بيان القرآن وأسراره، وهذا المنهج ليس من اجتهاد الباحثة، وإنما أخذته من أستاذها "أمين الخولي"، هذا الباحث الجليل الذي اعترفت بأفضاله عليها وعلى الباحثين في علوم البلاغة عامة وبيان القرآن خاصة، إذ كان له رأي سديد ونظر نافذ في أسرار كلمة القرآن، وما تحمل من دلالات في التعبير بدقة عن المقصود. والضوابط التي اعتمدها في منهجه تخلو من الأهواء والميول الفردية والتسرع في الأحكام، ويمكن إجمالها في الآتي :

أولاً : جمع الآيات التي تعين على فهم الموضوع المدروس.

---

(1) مقدمة التفسير البياني : 14/1.

(2) نفسه : 14/1-15.

ثانياً : ترتيب الآيات بحسب ظروف الزمان والمكان وأسباب النزول، مع جعل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول. وهذا القيد ينفي عن الآيات ما علق بها من فهم محدد بسبب النزول، لأن أسباب النزول وقع فيها خلاف. وهذا لا ينفي الاستئناس بالمرويات في أسباب النزول لفهم القرائن والأسباب والمسببات.

ثالثاً : فهم دلالات ألفاظ القرآن باستقراء كل ما ورد من صيغ اللفظ في آيات أخرى، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في الآيات الأخرى، مع مراعاة الاستعمال الحسي والمجازي.

رابعاً : ينظر إلى التعابير بمثل ما ينظر إلى الألفاظ، مع الاستئناس بأقوال المفسرين لقبول ما يقبله النص، ورفض ما أقحم فيه من إسرائيليات، وميول فردية، وبدع المتأولين.

خامساً : جعل آيات القرآن حجة في فقه اللغة وقواعد البلاغة. وما ذكره النحويون والبلاغيون يعرض على النص القرآني لتصحيحه، انطلاقا من كون النص القرآني أحكم وأبلغ من كل قول.

هذه الضوابط في البحث تعتبرها بنت الشاطئ منهجا متكاملا، ومحيطا بكل ما يمكن أن يبرز سر الكلمة القرآنية في صفائها ودقتها التي حيرت جهابذة القول. وهذا المنهج يختلف عن المنهج التقليدي الذي تتداخل فيه الرؤى الشخصية، والأهواء والميول حتى أصبحت التفاسير ـ عند البعض ـ عبارة عن آراء شخصية، لا صلة لها بمضمون كتاب الله، وبأحكامه التي تبنى عليها قضايا فقهية وخلقية واجتماعية، أرادها كتاب الله أن تكون مميزة لهذه الأمة في دينها ومعاملاتها وسلوكها وأخلاقها.

ولكي نبرز منهج الباحثة بجلاء نقف على الطرق التي اتبعتها في تفسيرها للآيات البينات التي حاولت من خلالها إظهار عظمة كتاب الله، وتفرده على سائر الكتب.

تفسير القرآن بعضه ببعض :

هذا المنهج وإن وقعت الإشارة إليه عند القدماء، فإن الأكثرية منهم لم تطبقه في تفسيرها، لكونها سلكت طريقة شرح الألفاظ والتعابير بمعزل عما يماثلها في آيات أخرى، ومن هنا تقف الباحثة على السبب الذي جعلهم يقعون في التعسف والتكلف والخلط في أحيان كثيرة، ولهذا دعت أن يكون منهج تفسير القرآن بعضه ببعض هو المنهج المعتمد في تفسير كتاب الله، لأن هذا المنهج أقرب إلى الدقة، وأبعد من الوقوع في الخطأ، إنه المنهج الذي يكشف الأسرار البيانية كما فهمها الأعراب الخلص. ومن

الآيات التي درستها الباحثة بهذا المنهج القويم، وتوصلت به إلى نتائج اعتبرتها أقرب لروح مضامين كتاب الله قوله تعالى : ﴿ **والضحى والليل إذا سجا** ﴾[1].

أجمع المفسرون على أن القسم بالواو يأتي بمعنى التعظيم للمقسم به، ووقفوا عند الآيات التي جاء فيها القسم بالواو لبيان وجوه الإعظام والحكمة ؛ ففي الليل ذكروا أنه لباس وسكينة للجسم والعقل، وأنه في آيات أخرى فزع وخوف ووقت غم. هذا التضارب في التأويل كان نتيجة فكرة سيطرت على عقول المفسرين، وهي أن القسم بالواو يأتي بمعنى التعظيم دوما. أما الباحثة فإنها ترى تحديد صيغة القسم بالليل في هذه الآية قد جاء مقيدا بـ ﴿ **إذا سجا** ﴾، وهو قيد قد وجدته تكرر في آيات أخرى في قوله تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى** ﴾[2]. وقوله : ﴿ **والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها** ﴾[3]. وقوله : ﴿ **والليل إذا يسري** ﴾[4]. وقوله : ﴿ **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس** ﴾[5].

هذا الاستقراء لظاهرة أسلوبية في البيان القرآني جعل الباحثة ترى المعنى مقيدا ؛ فالقسم هنا يعبر عن مدركات حسية وراءها صورة معنوية مماثلة، أي أن المدرك الحسي ليس إلا قوة للفت إلى ما هو معنوي من دعوة إلى الهدى والحق واليقين، وبيان ما في الضلال والكفر من باطل : «فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس وإذا يغشى وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة. وهذا البيان للمعنوي بالحسي، هو الذي يمكن أن نعرضه على إقسام القرآن بالواو، فتقبلها دون تكلف أو قسر في التأويل»[6].

هذه الملحوظة في التفسير، وإن اختلفت فيها الباحثة مع القدماء، فان ما يجعلنا نطمئن إليها أنها :

أولاً : جاءت بعد استقراء للآيات المتماثلة في الصيغة.

ثانياً : أنها وجدت الصور المعنوية تأتي مماثلة للصور المادية المدركة، فالمقسم به في آية الضحى واقع حسي مشهود، وهو تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم

---

(1) سورة الضحى، الآيتان 1-2.
(2) سورة الليل، الآيتان 1-2.
(3) سورة الشمس، الآيات 1-4.
(4) سورة الفجر، الآية 4.
(5) سورة التكوير، الآيتان 17-18.
(6) التفسير البياني : 26/1.

فتور الليل إذا سكن. هذا المدرك الحسي هو الذي يقود إلى معنى «فترة سكون، يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق»[1].

ثالثاً : هذا التفسير يركز على الجانب المعنوي الذي يلائم البيان القرآني، ولا يبتعد عن طبيعة الأساليب العربية التي تخرج عن معناها لتفيد معنى آخر، لوجود قرينة دالة على ذلك، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالمجاز، وهو كثير في اللغة العربية.

ومما ذكرته الباحثة في هذا التخريج قوله تعالى : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾[2].

جاءت هذه الآية في سياق نفي التوديع والقلى عن الرسولﷺ، وليطمئن أن مرحلة فتور الوحي لم تكن عن قلى. ودلت عبارة "الآخرة" على اليوم الآخر، والأولى على الحياة الدنيا. وهذه الدلالة جاءت في آيات أخرى باقتران الآخرة والأولى بواو العطف في قوله تعالى : ﴿ **فلله الآخرة والأولى** ﴾[3]، ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾[4]، ﴿ **له الحمد في الأولى والآخرة** ﴾[5]، ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾[6]. أما عبارتا : الآخرة والأولى فقد ارتبطتا بحالة خاصة، ولهذا ينبغي تفسيرها وفق هذه الحالة، وهي نفي التوديع، وتأكيد خير الأخرى على الأولى[7].

وقال تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى** ﴾[8].

وكذلك ينبغي أن ينظر إلى هذه الآيات من خلال ما تقدمها ،فهي تثبت قلب الرسول عليه السلام،وتبين نعم الله عليه حينما كان يتيما فآواه ووقاه ذل اليتم وقهره،ثم هداه إلى الحق واليقين بعدما كان حائرا فيما كان عليه قومه من ضلال، ثم أغناه بفضله وكرمه : «أفما يكفي هذا ليطمئن المصطفى إلى أن الله غير تاركه ولا مودعه؟ وهل تركه حين كان صبيا يتيما معرضا لما يتعرض له الصبية اليتامى من قهر وضيا ع؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة، حائرا يرهقه التفكير في ضلال قومه ثم لا يدري سبيل النجاة؟»[9].

---

(1) المرجع نفسه.

(2) سورة الضحى، الآية 4.

(3) سورة النجم، الآية 25.

(4) سورة النازعات، الآية 25.

(5) سورة القصص، الآية 70.

(6) سورة الليل، الآية 13.

(7) التفسير البياني : 38/1.

(8) سورة الضحى، الآيات 5-8.

(9) التفسير البياني : 1/44-47.

لكن مجموعة من المفسرين لم تلتفت إلى هذه البساطة في البيان القرآني، فقد ذهب "الرازي" إلى تأويل اليتيم بالدرة اليتيمة، والضلال بمعنى الضلال عن القبلة، وعن أمور الدنيا وشؤون التجارة حتى هداه الله فربحت تجارته ؛ والغنى هو الإثراء المادي بمال خديجة، رضي الله عنها، وبمال أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وبالغنائم حينما أمر الله نبيه بالجهاد[1].

وكل هذه المعاني لم ترد عند الاحتكام إلى آيات القرآن الكريم التي وردت فيها هذه الألفاظ، فاليتم استعمل في الكتاب بمعناه اللغوي، وأضيف إليه الجور وأكل المال ظلما. قال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾[2].

واستعمل مع الدع، وهو الدفع العنيف مع جفوة في قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين** ﴾[3].

ولفظة "أغنى" جاءت في الكتاب غير مرادفة للثراء، كما أسندت إلى غير المال، قال تعالى : ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم** ﴾[4]. وقال عز من قائل : ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء** ﴾[5].

وثابت في السيرة الصحيحة أن الرسول عليه السلام لم تتغير حياته بعد البعثة، وبعدما أفاء الله عليه الغنائم؛ فقد ظل في تعفف وقناعة وزهد، وتواضع في أكله ولباسه ومسكنه. كل هذا يرد التأويلات البعيدة التي لا تتفق مع النص القرآني، ومع سيرة الرسول عليه السلام. وإن ما تطمئن إليه الباحثة أن الله أغناه «بالتعفف وسد الحاجة، فلم يذله فقر المال، كما لم يكسر اليتم نفسه، بل وقاه الله وقاية نفسية معنوية من آثار اليتم والفقر والضلال، وليست وقاية مادية ترد إليه أباه الذي مات قبل مولده، وتملأ خزانته بالمال، وتهيئ له رغد العيش»[6].

وقال تعالى : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾[7].

---

(1) المرجع نفسه : 1/44-47.

(2) سورة النساء، الآية 10.

(3) سورة الماعون، الآيات 1-3.

(4) سورة الأعراف، الآية 48.

(5) سورة هود، الآية 101.

(6) التفسير البياني : 1/51.

(7) سورة الشرح، الآية 1.

اعتبر جل المفسرين الشرح هنا معنويا خالصا،أي شرح الله صدر نبيه، عليه السلام، للطمأنينة والهدى والإيمان ونور الحق واليقين بعدما كان في حيرة يضيق لها صدره. لكن قلة منهم اعتمدت رواية ابن عباس حيث جعل الشرح معنى ماديا، وهو شق الصدر، فقال : «إن جبريل شق صدر الرسول عليه السلام حينما كان صبيا، فاخرج قلبه وغسله ونقاه من المعاصي، ثم ملأه علما وإيمانا». هذا التأويل المادي للشرح ـ كما ترى الباحثة ـ يتنافى مع ما ورد في آيات أخرى. قال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[1]. وقوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾[2].

الشرح في الآيتين معنوي خالص، ولهذا فإن الباحثة تطمئن للمعنى الذي ذهب إليه جل المفسرين، وهو الهداية، «وهذا التتبع يزيدنا بعدا عن المعنى المادي لشرح الصدر، ويجعلنا أكثر طمأنينة إلى أنه هدى الإيمان، ونور الحق، وراحة اليقين، والسلام النفسي»[3].

والباحثة كعادتها حينما تستعرض المعاني الحقيقية والمجازية لألفاظ القرآن وتفسيرات القدامى لها، فإنها تميل إلى أقرب الشروح التي تجلي البيان القرآني في أكمل صفائه ورونقه، مع تطابقه مع النزول وأحوال المخاطبين، ومراعاة الوضع النفسي، فقوله تعالى : ﴿ **ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك** ﴾[4].

تقف الباحثة لبيان المعاني الحقيقية والمجازية للفظتي "الوضع" و "الوزر"، وما ذكر المفسرون في شرحهما، فقد قال الراغب : «هو ما كنت فيه من إصر الجاهلية، وأعفيت منه بما خصصت به عن تعاطي ما كان عليه قومك»، وذكر قتادة أن النبيﷺ، كانت له ذنوب قد أثقلته فغفرها تعالى له». أما الشيخ محمد عبده فقد راعى في التفسير ما يلائم الحالة النفسية والاجتماعية التي كان عليها الرسول عليه السلام، فقال : «إن الكلام على التمثيل، فإن ما كان يحمله عليه السلام من ثقل الاهتمام بشأن قومه، وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحي عليه بالإرشاد، لم يكن ثقلا حسيا ينقض منه الظهر، ولكنه كان هما نفسيا يفوق ألمه ألم ذلك الثقل الحسي الممثل به. فعبر عن الهم الذي تبخع له النفوس بالحمل الذي تقصم له الظهور»[5].

---

(1) سورة الزمر، الآية 22.

(2) سورة الأنعام، الآية 125.

(3) التفسير البياني : 60/1.

(4) سورة الشرح، الآيتان 2-3.

(5) التفسير البياني : 66/1.

هذا التفسير يلائم البيان القرآني، ويراعي الحالة التي كان عليها نبي الله بين قومه، فلذلك قالت الباحثة : «وهو ما نستريح إليه، ونؤيده بما ذكرنا في تفسير آية الضحى»[1].

وتارة أخرى تجد الباحثة تلتفت إلى ملحوظات المفسرين في التراكيب، وتقف عند دقتهم في التعبير عن المراد بواسطة تلك التراكيب التي جاءت معجزة، وغاية في الدقة الأسلوبية، فلذلك دعت الشراح أن يراعوا هذا الإعجاز الذي بهر فحول القول. ففي قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا** ﴾[2]، لاحظت أن المفسرين التفتوا إلى استعمال "مع" بدلا من بعد وما يشبهها، فقال الزمخشري : «إن "مع" للصحبة، ومعنى اصطحاب اليسر والعسر أن الله أراد أن يصيبهم ـ يعني المؤمنين ـ بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية القلوب».

لقد استحسنت الباحثة هذا التفسير، ونعتته بالملحظ الدقيق، لكنها لاحظت عليه أن التعبير يفتقد إلى الدقة في موضعين :

الأول : في قوله "يصيبهم" في مقام البشرى دون ضرورة بيانية تقتضيه.

والثاني : أن الآية تقوية للرسول بخاصة، لا للمؤمنين بوجه عام، والسياق قبلها وبعدها يجعل هذا التخصيص أولى بالمقام[3].

كما أشارت إلى ملحوظة الشيخ محمد عبده، وهي قوله : «والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لابد منه، كأنه معه»، فقالت : «والأولى إسقاط كاف التشبيه، وفهم الآيتين على أن اليسر مقترن بالعسر، إذ تفيد "مع" المصاحبة لا التشبيه»[4].

هذا التتبع يظهر حرص الباحثة على التزام المنهج الذي يمكن الدارس والباحث في البيان القرآني من التعرف بدقة على مضامين كتاب الله، سواء كان التعبير جملة أو كلمة أو حرفا. وقد كان العلماء منذ بدء البحث في البيان القرآني يحرصون على بيان تراكيب القرآن جملة وتفصيلا، لا يهملون في ذلك حرفا واحدا باعتبار أن كلام الله جاء ليبين شريعة متكاملة في مقاصدها الدينية والدنيوية.

وقال تعالى : ﴿ **وقال الإنسان ما لها** ﴾[5].

---

(1) المرجع نفسه.

(2) سورة الشرح، الآيتان 5-6.

(3) التفسير البياني : 69/1.

(4) المرجع نفسه.

(5) سورة الزلزلة، الآية 3.

هذه الآية الكريمة تصف دهشة الإنسان وتعجبه من زلزلة الأرض يوم القيامة، وما يعتريه من خوف وقلق أمام هذا الاضطراب العظيم في الأرض التي كان يراها من قبل هادئة، وكان يعيش فيها في أمن وسلام. وقد ذهب مجموعة من المفسرين إلى أن المقصود بالإنسان هنا الكافر الذي لم يكن من قبل يؤمن بالله والبعث، فلذلك فانه يرى شيئا عجيبا لم يخطر على باله نتيجة عدم الإيمان. لكن الباحثة بالاستئناس بتعابير القرآن في آيات أخرى ترى أن الإنسان هنا هو الإنسان على الإطلاق بدون تمييز بين المؤمن والكافر؛ وقد جاء في سورة الحج هذا التعميم، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[1].

إن البيان القرآني من خلال هاتين الآيتين في سورة الحج يقتضي أن يكون معنى الإنسان في سورة الزلزلة هو الإنسان عامة من غير تخصيص أو تمييز : «ولسنا نرى وجها لتخصيص الإنسان هنا بالكافر، فاللغة لا تعين على هذا التخصيص، والاستعمال القرآني للفظ الإنسان لا يؤيده. ثم هو تخصيص لا يقوى به المعنى، فلأن تكون رجة الزلزلة وهول الموقف مما يروع الإنسان على الإطلاق، كافرا كان أو مؤمنا، أقوى من أن يقتصر الدهش والعجب على الكافر وحده»[2].

تجنب الإفراط في التأويل :

إن الأخذ بما جاء في البيان القرآني دون زيادة أو إيغال أو تأويل لمعان لم يشر إليها من النبي ،عليه السلام، ومن الصحابة، رضوان الله عليهم، ومن التابعين الذين كانوا يحرصون على الأخذ من جلة الصحابة، هو منهج اعتمدته الباحثة في التفسير لكي ترد تأويلات المتأولين الذين كانوا يطلقون العنان لخيالهم ليبدع ما شاء من شروح وتفسير لا يلائم النص القرآني، وهذا ما جعل الاختلاف بين المفسرين واضحا وجليا . إن الاعتماد على ما جاء في الخبر الصحيح من الرسول والصحابة والتابعين مع الاستئناس بما ذكره القرآن في آيات أخرى منهج قويم يصون النص القرآني من الإيغال في الشروح التي لا أساس لها في الكتاب. ففي قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[3]، ذكر بعض المفسرين أن العطاء ألف قصر في الجنة، موادها من اللؤلؤ، وترابها من المسك. وقالوا : هو الظفر بالأعداء وفتح مكة ودخول الناس في دين الله

---

(1) سورة الحج، الآيتان 1-2.

(2) التفسير البياني : 86/1.

(3) سورة الضحى، الآية 5.

أفواجا، وما تحقق من الفتوحات الكبرى على أيدي الخلفاء. وقيل : الشفاعة والمغفرة. وبرغم أن هذه التفاسير لا تبتعد عما تحقق في دولة الإسلام من انتصارات وفتوحات كبرى في مشرق الأرض ومغربها، فإن الباحثة ترى تحديد العطاء بهذا الشكل ـ وإن بلغ مرتبة عالية ـ لا يليق بجلال الموقف، ولا يبلغ مبلغ الرضى الذي أراده البيان القرآني، فهو أوسع وأكبر من أن يحيط به فكر أو خيال مهما جمح به تصور الأشياء[1].

وكذلك ذهب المفسرون في تأويل "الذكر" مذاهب متعددة في قوله تعالى : ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾[2]. فمنهم من جعل الذكر رفعة في الدنيا والآخرة، وأن الله سبحانه وتعالى جعل ذكر اسمه مقروناً بذكر اسم الرسول الكريم في الشهادة والآذان والإقامة والتشهد. وهذه التأويلات عند بعض المفسرين تشير إلى مكانة رسول الله عند ربه، لكن هذا التحديد للرفعة قد يحد في تقدير ما للنبوة من جلال وقدر عند الله، فهي في غير حاجة إلى هذا التحديد، «وتغني النبوة عن تحديد هذا الرفع للذكر بكذا وكيت، مما عده أصحاب التأويل، فحسب محمد أن اصطفاه الله رسولا، ليكون له من هذا الاصطفاء ما يجاوز كل مطمح لبشر يتيم عاقل، ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[3].

وقال تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾[4].

ذهب المفسرون في هذه الآية أيضا إلى تحديد الفراغ والنصب، فقالوا : هو الفراغ من الصلاة، ومن جهاد العدو، ومن أمر الدنيا، للنصب للعبادة والذكر والدعاء. لكن الآية لم تحدد فيما يكون الفراغ والنصب، وما ذكره المفسرون يغفل ـ في رأي الباحثة ـ السياق الذي وجدت فيه الآية، فهي قد جاءت بـ "فاء" جعلتها مرتبطة بما قبلها في كون العسر يصاحبه يسر لا محالة. وهذا ما ينبغي أن يكون النظر إليه في حال الفراغ والنصب من غير تأويل بحسب ميول كل مفسر : «فإذا لم يكن بد من تحديد متعلق الفراغ، فلسنا بحيث نطمئن إلى شيء فيه غير ما سبقته الآيات المحكمات، وهو أنه سبحانه قد أفرغ بال رسوله مما كان يجهده من حيرة، ويثقله من وزر ينقض ظهره. هو فراغ اليسر بعد العسر، والراحة النفسية بعد الشدة والكرب؛ فلينصب المصطفى لتكاليف رسالته وأعباء منصبه، بلاغا لرسالة ربه، وجهادا في سبيلها»[5].

---

(1) التفسير البياني : 40/1.

(2) سورة الشرح، الآية 4.

(3) التفسير البياني : 68/1.

(4) سورة الشرح، الآية 7.

(5) التفسير البياني : 75/1.

موقف الباحثة من قواعد النحو والبلاغة في البيان القرآني:

أفرط بعض المفسرين في التكلف والتمحل، وهم يحاولون الملاءمة بين قواعد النحاة والبلاغيين، وبين ما جاء في النص القرآني، فأوقعهم هذا التكلف في الغموض والتزيد والإحالة، وغابت عنهم أسرار البيان القرآني. والسبب في ذلك هو أنهم عرضوا الآيات البينات على قواعد النحاة والبلاغيين، والتمسوا تخريجا لها وفق ما نصت عليه القواعد التي وضعها النحاة والبلاغيون، فإذا وجدوا ما يخالفها التمسوا وجوها في التخريج تجعل النص القرآني يساير تلك القواعد الموضوعة. وهذا المنهج ترى فيه الباحثة تقصيرا واضحاً ومخلاً بالبيان القرآني، لأن هذا البيان هو الذي يجب أن تعرض عليه قواعد النحاة والبلاغيين وما جاء في أشعار العرب من معان ودلالات وتصوير ،فما وافق ما في الكتاب كان صوابا ينبغي العمل به، وما خالفه يعد شاذا فيجب طرحه. والسبب الذي جعلها تؤمن بهذا المنهج هو أن النصوص الشعرية والنثرية أصابها التحريف والوضع والتغيير والتبديل، بينما كتاب الله بقي سالما كما نزل على الرسول الأمين الذي بلغه بصدق ،وحفظه الله من كل تحريف وتغيير،ولهذا قالت الباحثة إننا «نحتكم إلى الكتاب العربي المبين المحكم في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين، ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه لتسوية قواعد الصنعة وضوابط علوم البلاغة»[1].

وقد وقفت الباحثة على ما وقع فيه المفسرون من تمحل في الصنعة الإعرابية وقواعد البلاغة في قوله تعالى: ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾[2].

ذهب المفسرون مذاهب متباينة في تأويل حذف ضمير الخطاب في "قلى"، فقالوا: إنه اختصار لفظي لظهور المحذوف، وقالوا: إن اتفاق الفواصل أوجب حذف الكاف. وهذا التأويل ـ في رأي الباحثة ـ يخرج البيان القرآني من ذروته وسموه، لأن تعليل الحذف برعاية الفاصلة يجعل البيان يقوم على اعتبار لفظي محض، لكن الذي يليق بالبيان القرآني أن يكون الحذف لاعتبار معنوي يقويه الأداء اللفظي. وهذه الرؤية أساسها أن البيان في كتاب الله يعطي الاعتبار للمعنى قبل اللفظ، ولو كان الاعتبار يقوم على أساس اللفظ لما جاء قوله تعالى: ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ بلفظة "حدث"، ولكانت لفظة "فخبر" أولى في مقام رعاية

(1) التفسير البياني: 11/1.

(2) سورة الضحى، الآية 3.

الفواصل. ومن هنا ترى الحذف جاء لغرض معنوي بالغ الدقة في اللطف، وهو «تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس : ما قلاك، لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة»[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[2].

وقف المفسرون عند الصنعة الإعرابية ليستقيم لهم ما وضعه النحاة من قواعد. والقاعدة التي ذكرها النحاة أن اللام في "سوف" إذا كانت للقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، وإن كانت للابتداء تدخل على الجملة من المبتدأ والخبر. ومن هنا جاء تكلفهم لتسوية الصنعة الإعرابية في الآية، فقالوا : لابد من تقدير مبتدأ محذوف : ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى.

وقد قارنت الباحثة بين التعبير القرآني وبين التعبير المؤول في الصنعة الإعرابية، فوجدت البيان القرآني غنيا عن هذا التأويل، فقالت : «والبيان إنما يتسق هنا ويتكامل بلفظ "سوى" إيناسا للرسول المصطفى بأنه كان وسوف يظل موضع عناية ربه، في أمسه وغده، في أولاه وأخراه»[3].

ومما أثار انتباه الباحثة في الصنعة الإعرابية عند المفسرين وقوفهم عند الأفعال التي جاءت مبنية للمجهول في قوله تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور** ﴾[5].

لقد رأت أن هذا الأسلوب ظاهرة بيانية مطردة في بيان أحداث اليوم الآخر، فقد جاء البناء للمجهول فيها للتركيز على الحدث، بينما المفسرون شغلوا بالبحث عن الفاعل : «وفي منهجنا لا يجوز أن نتأول الفاعل، مع وضوح العمد في البيان القرآني إلى صرف النظر عنه، ولا أن نتعلق بما لم يشأ لنا الكتاب المحكم أن نتعلق به، وقد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث»[6].

---

(1) التفسير البياني : 35/1.

(2) سورة الضحى، الآية 5.

(3) التفسير البياني : 41/1.

(4) سورة الزلزلة، الآية 1.

(5) سورة العاديات، الآيتان 9-10.

(6) التفسير البياني : 81/1.

هذه بعض نظرات وملحوظات في منهج التفسير البياني للقرآن الكريم عند الباحثة بنت الشاطئ التي عرفت باهتمامها البالغ بكتاب الله باعتباره كتابا محكما في مضامينه، ومعجزا في أساليبه، يهدي إلى الهدى، ويرشد إلى الإيمان بكلام عربي بلغ النهاية في الفصاحة والبلاغة التي كان يتسابق إليها الأعراب الخلص. أما المنهج الذي اتبعته الباحثة فهو منهج يجعل النص القرآني هو الحكم والفيصل في كل قضية بيانية ودلالية وتركيبية، فهو النص الذي يجعله الباحثون حجة لصحة شواهد الشعر، وبلاغة الخطباء والبلغاء، تعرض عليه هذه النصوص ليتبين بلاغتها وفصاحتها. كما أن من مزايا هذا المنهج أن يبعد عن النص القرآني ما علق به من غلو وزيادة، وما أقحم فيه من إسرائيليات.

المبحث الرابع

نظرات في بيان القرآن في كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب[1]

قال الله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾[2].

تحتفظ المكتبة العربية والإسلامية بذخائر ثمينة من المخطوطات في مختلف ميادين العلم والمعرفة، وبرغم الصحوة التي عرفتها الدول العربية والإسلامية في أوائل القرن العشرين بعد تخلصها من الاستعمار، وإقبال عدد كبير من الباحثين والدارسين على إحياء هذه المكتبة عن طريق التحقيق والدراسة والنشر، فإن عددا كبيرا من المخطوطات لم تصل إليها يد الباحثين، وهي الآن حبيسة المكتبات العامة والخاصة، يلفها الإهمال، وقد تضيع مع مرور الزمن إذا بقيت على هذا الحال.

والواقع أن التراث قد أصابته آفة الإهمال بدرجات متفاوتة عند جميع الأمم على اختلاف أجناسها وأوطانها، لكن تراثنا العربي والإسلامي أخذ نصيبه الأكبر من هذه الآفة نتيجة عوامل كثيرة، لعل أبرزها طول المرحلة المظلمة التي مر بها العالم العربي والإسلامي في عصر الانحطاط، وابتلاؤه في القرن التاسع عشر باستعمار استيطاني وفكري عمل كل ما في جهده لكي يطمس معالم الفكر العربي والإسلامي بإهماله اللغة العربية، ونشر الجهل والخرافات والشعوذة بين العوام، وتحريف مقاصد الشريعة الإسلامية، ولولا ثلة قليلة من الوطنيين الأحرار الذين كانت لهم غيرة على الإسلام والعروبة لضاعت اللغة العربية، وأصبح تاريخ وفكر الإسلام مرحلة تاريخية مجهولة المعالم.

وإذا كنا نجد العذر الموضوعي للإهمال في مرحلتي الانحطاط والاستعمار، لأن الأمة كانت مغلوبة على أمرها، فأي عذر يسوغ الإهمال في مرحلة أصبحت الدول العربية والإسلامية فيها ذات سيادة في تدبير شؤونها، وتصريف أمورها ؟ لقد تأسست

---

(1) هو أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، من أعلام القرن الرابع الهجري، كان عميق المعرفة بعلوم اللغة العربية وآدابها، ومطلعاً على الفلسفة والمنطق.

(2) سورة النحل، الآية 103.

في هذه الدول جامعات ومعاهد عليا تضم نخبة جيدة من الباحثين والدارسين لهم القدرة على إحياء التراث بتحقيقه، ودراسة قضاياه، ونشره، لكي يستفيد منه الباحثون في ميادين اختصاصاتهم. وإن كتاب "البرهان في وجوه البيان" وجه من وجوه تراثنا الذي نجا من هذا الإهمال وأخذ حظه في التحقيق ليكون شاهداً على مرحلة من تاريخ الفكر العربي الذي تميز بالقدرة على حوار فكر الأمم الأخرى انطلاقاً من ثوابتنا : القرآن الكريم، ومن أصالتنا : اللغة العربية.

إن تفاعل الفكر العربي والإسلامي مع فكر الأمم التي بلغت حظاً كبيراً من المعرفة العقلية لدليل على أن ثوابتنا وأصولنا على أساس عقلي، وهي قادرة على الحوار والجدل والأخذ والرد في جميع الأزمنة.

والبحث في خصائص بيان القرآن وبيان العرب كان سمة بارزة في مؤلفات العلماء بدءا من القرن الثاني الهجري إلى المرحلة الراهنة، وكانت الأسباب الدافعة إلى الإهتمام بالبيان متعددة، لعل أبرزها السبب الديني والأدبي والسياسي والإجتماعي. وكان المجتمع الإسلامي، بعد الفتوحات الكبرى والاستقرار في الأمصار الجديدة، في مخاض قوي مع حضارة وثقافة وفكر الأمم التي دخلت في الإسلام بعد الفتوحات. وكان لهذه الأمم حظ كبير في الأدب والفلسفة والمنطق والعلوم العقلية التي ترجم الكثير منها إلى اللغة العربية، وعرف العلماء قدرها، واستفادوا من مناهجها في دراسة علوم اللغة العربية خاصة. وكان العلماء بجانب اهتمامهم بهذه العلوم العقلية يدرسون كتاب الله، وحديث رسوله عليه السلام، وأشعار العرب، فوضعوا قواعد اللغة والنحو والعروض والبلاغة، وألفوا المصنفات في تفسير القرآن وضبط الحديث، وفي التفكير الفلسفي الإسلامي. وكان العرب في هذه المرحلة يتعرضون لهجمة عنيفة من طرف الشعوبيين الذين كانوا يحقدون على العرب، ويستهجنون تراثهم وتقاليدهم وعاداتهم، لاسيما حينما أصبح أمر السياسة والإدارة والجيش بيد العنصر الفارسي. وأشعار بشار ابن برد تمثل خير تمثيل هذه الظاهرة، من ذلك قوله مخاطباً عربياً :

أحين كسيت ـ بعد العري ـ خزا ونادمت الكرام على العقار ؟
تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار، حسبك من خسار[1]

وكان ابن وهب الكاتب أحد العلماء الذين تصدوا للرد على أفكار الشعوبيين الذين حاولوا طمس كل محاسن العرب، ولعل دراسة البيان العربي، وإظهار محاسنه

---

(1) ضحى الإسلام : 39/1.

كان أحد الوجوه التي تكشف أباطيل الشعوبيين. لقد تناول هذا العالم البيان العربي بالدرس والتحليل في كتاب الله وتراث العرب بمنهج علمي تحليلي استقرائي، ودليل عقلي مدعم بالحجة والبرهان، فأثبت عبقرية اللغة العربية، وفضل بيانها الذي فاق بيان الأمم الأخرى.

وإذا كان ابن وهب يقر في بداية كتابه أنه لم يكن سباقاً لذكر وجوه البيان في كتاب الله وتراث العرب، وإنما اقتصر عمله فيه على الإيضاح والتفسير والجمع والاختصار، حيث قال : «وقد ذكرت في كتابي هذا جملاً من أقسام البيان، وفقراً من آداب الحكماء وأهل هذا اللسان، لم نسبق المتقدمين إليها، ولكن شرحت في بعض قولي ما أجملوه، واختصرت في بعض ما أطالوه، وأوضحت في كثير منه ما أوعروه، وجمعت في مواضع منه ما فرقوه، ليخف بالاختصار حفظه، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه»[1].

فإنه قد أبان محاسن البيان وكشف ما تضمنه من دلالات في كتاب الله عز وجل، وفي تراث العرب بمنهج علمي، على سلامة العقل، وعمق التفكير، وقوة الحجة، رد به جدل الشعوبيين العقيم، وحججهم الواهية.

ولكي يحيط ابن وهب بأوجه البيان من جميع جوانبه فإنه قسمه إلى أربعة أقسام، وهي :

1. بيان الأشياء بذواتها.
2. بيان يحصل في القلب عند الفكر واللب.
3. بيان باللسان.
4. بيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد وغاب.

ولكون هذه الأقسام غير منفصلة عن بعضها من حيث الرؤية الشاملة للبيان فإن ما يبرز تصوره بشكل أدق قسمان، وهما : بيان الأشياء بذواتها، وبيان بالقول أو العبارة. وسنعنى في بحثنا هذا بهذين القسمين.

1. بيان الأشياء بذواتها :

إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الوجود منظماً غاية التنظيم، وأوجد الكائنات الحية المتلائمة في طبيعته مع النظام الكوني. ولذلك كان أساس الوجود هو التوازن للحفاظ على الأشياء ـ كما أرادها الخالق ـ فلا يزيد شيء، أو ينقص عنه إلا لغاية وعلة

---

(1) البرهان في وجوه البيان، ص 51.

أرادها الله. والتوازن والاعتدال أثر من آثار الله في هذا الوجود، وبديع خلقه، وقدرته المطلقة، ولذلك ينبغي لكل عاقل أن يتدبر أسرار هذا الوجود بحكمة وتعقل لتتبين له الأشياء على حقيقتها، قال الله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾[1]، وقال عز من قائل : ﴿ **إن في ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾[2]، وقال أيضاً : ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾[3].

والتوسم والتعقل والتذكر سمات تميز الكائن العاقل الذي يفحص الأشياء بحكمة وتدبر، ويسعى إلى طلبها بالفكر النير، «إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبر بمعانيها لمن اعتبر، وإن بعض بيانها ظاهر، وبعضه باطن»[4].

والعقل الذي يميز به الإنسان بين الأشياء هو أعظم نعمة وهبها الله له، فبالعقل تحمل المسؤولية، وتميز عن باقي المخلوقات الأخرى، وأصبح سيداً في الوجود، يدير أموره بالشكل الذي يعود عليه بالنفع.

وإذا كان الظاهر من الأشياء يدرك بالحس، أو بنظرة لا تحتاج إلى مزيد من الإمعان، لأنها متحدثة عن نفسها :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[5].

فإن تبين الباطن منها يحتاج إلى ضروب من الاستدلال، ووجوه من القياس لمقارنة الأشكال والنظائر بعضها ببعض، ولذلك يرى ابن وهب أن معرفة الباطن بقدر ما يحتاج إلى القياس يحتاج كذلك إلى الخبر، وقد أشار كتاب الله إلى الجهتين معاً في آيات كثيرة، داعياً ذوي النهى والأبصار عدم تعطيل العقل، وشبه الذين يعطلون الفكر بالبهائم، قال ابن وهب ذاكراً جهة القياس التي حثت عليها الآيات البينات : «وحجتنا في القياس أن الله عز وجل قال : ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾[6]. كذلك الأمثال التي جاءت في الكتاب كمثل كذا وكذا في مواضع كثيرة[7]، وذلك كله تشبيه وقياس»[8].

(1) سورة الحجر، الآية 75.

(2) سورة النحل، الآية 13.

(3) سورة العنكبوت، الآية 35.

(4) البرهان في وجوه البيان، ص 65.

(5) البيت لأبي نواس، انظر رفع الحجب المستورة : 681/2.

(6) سورة الحشر، الآية 2.

(7) ذكر القرآن أمثالاً كثيرة للدلالة على صحة الخبر، كقوله تعالى : ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم الأمثال** ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 45).

(8) البرهان في وجوه البيان، ص 66.

أما حجة الأخذ بالخبر في كتاب الله فهي قوية، لأن ما جاء في الكتاب، وما حدثنا به الرسل والأنبياء وأعلام الأمة هي أخبار يقينية ينبغي تدبر معانيها، وبحث ما فيها من دلائل : «وأما الخبر فحجتنا فيه من الكتاب قول الله عز وجل : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[1]، ﴿ **فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** ﴾[2].

إن الحث على السؤال هو دعوة إلى تقصي الأخبار والمعلومات التي تفيدنا علماً، وتزيل شكاً، وتجلو حقائق. وقد حصر ابن وهب الخبر في نوعين : خبر يقين، وخبر تصديق. وإذا كان خبر التصديق يحتاج إليه الناس في معاملاتهم وتجارتهم حيث يؤخذ ممن حسن الظن به، ولم يعرف بفسق وكذب، فإن خبر اليقين يلزم العقل الإقرار بصحته، لأن مصدره من الله وأنبيائه ورسله، وهو ثلاثة أقسام :

الأول : خبر الاستفاضة والتواتر : وقد ألزمنا الله بهذا النوع حجج الأنبياء عليهم السلام «ونحن لم نشاهدهم، ولم نر آياتهم، ولم نسمع احتجاجهم على قولهم»[3].

الثاني : خبر الرسل الذين قامت البراهين والحجج على صدقهم، وعلى ظهور المعجزات التي لا يجوز أن تكون بنوع من الحيل، «ليعلم أنهم عن الله عز وجل، نطقوا، وعليه في إخبارهم عنه صدقوا، فتعم الحجة بهم الغافل والجاهل، والمميز والعاقل، فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[4].

الثالث : ما تواترت أخبار الخاصة به، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة التصديق بهذه الأخبار، لأنها حجة على العامة، قال تعالى : ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل** ﴾[5]. فقد جعل «علم العلماء - وهم الخاصة - حجة على العامة»[6].

وقد يتوصل إلى العلم بطريق ثالث غير القياس والخبر، وهو العلم بالظن، إلا أن فيه حقاً وباطلاً لكونه يعتمد على التخمين، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾[7].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 7.

(2) سورة يونس، الآية 94، وانظر : البرهان في وجوه البيان، ص 66.

(3) البرهان في وجوه البيان، ص 76.

(4) المصدر نفسه، ص 77.

(5) سورة الشعراء، الآية 197.

(6) البرهان في وجوه البيان، ص 78.

(7) سورة الحجرات، الآية 12.

وإذا كان الظن قد يتحصل به العلم عند ابن وهب فلأن بعض العقول السليمة، الثابتة العلم، المعتدلة في تمييزها للأشياء، قد يصدق ظنها، فيكون أقرب إلى الصحة، ولهذا قيل : «ظن الرجل قطعة من عقله». وقال الشاعر القديم أوس بن حجر :

الأَلْمَعِيُّ الذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّـــ ـــنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقد أخرج الله الظن في آيات كثيرة مخرج اليقين، فقال : ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾[1]. وقوله : ﴿ **فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾[2]. لكن قبول الظن على وجه الصحة يبقى مشروطاً صدوره من ذوي العلم والتجربة والفطنة.

2. البيان بالقول أو العبارة :

إن البيان بالقول هو دلالة العبارات، وإذا كانت العبارة تختلف باختلاف اللغات فهي غير مختلفة في الإبانة عن ذوات الأشياء كما هي. وقد قسم ابن وهب دلالة القول إلى ظاهر وباطن، فالظاهر غير محتاج إلى تفسير، والباطن يحتاج إلى التفسير، ويتوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر، وفي كتاب الله عبارات يتوصل إليها بالتمييز والقياس من مثل قوله تعالى : ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾[3]. فالله سبحانه وتعالى لم يفوض للناس أن يعملوا ما شاءوا، لأنه لم يخلهم من الأمر والنهي، ولهذا كان مجيء الرسل عليهم السلام من أجل تنبيه الناس، وإرشادهم إلى سبيل الخير والصلاح.

وقوله تعالى : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[4]، إنه سبحانه وتعالى لم يحبب للناس الكفر، أو يطلق لهم العنان فيه «وإن كان ظاهر التفويض إليهم فإن باطنه التهديد والوعيد لهم. ويدل على عقب هذا ﴿ **إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب، وساءت مرتفقاً** ﴾»[5].

وفي كتاب الله عبارات عرفنا معناها من الخبر، مثل الصلاة والصيام والكفر، «فلولا ما أتانا من الخبر في شرح مراد الله عز وجل، في الصلاة والصيام ومعنى الكفر لما عرفنا باطن ذلك، ولا مراد الله عز وجل في الصلاة والصيام ومعنى الكفر»[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية 119.

(2) سورة الكهف، الآية 52.

(3) سورة فصلت، الآية 40.

(4) سورة الكهف، الآية 29.

(5) البرهان في وجوه البيان، ص 93.

(6) المصدر نفسه.

هذه الإشارات والتنبيهات في دلالة العبارات جعلت كتاب "البرهان في وجوه البيان" مصدراً أساسياً في فن القول، وخصائص البيان القرآني. فقد تضمن آيات كثيرة في التشبيهات البليغة، والاستعارات النادرة، والكنايات اللطيفة، وفنون كثيرة عدت أنموذجاً في فن القول، نذكر منها "الوحي" الذي هو الإبانة عما في النفس بغير المشافهة، ويأتي على وجوه كثيرة، ومما ورد في كتاب الله "الإشارة" كقوله تعالى : ﴿ **فخرج على قومه من المحراب، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً** ﴾[1]. والوحي المسموع من الملك، كقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى** ﴾[2]. والوحي في المنام، وهو الرؤيا الصحيحة، كقوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ﴾[3]. والإلهام كقوله : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾[4].

أما الإيجاز الذي قصدت به العرب مخاطبة ذوي الأفهام الثاقبة، والإطناب الذي يستعمل لمخاطبة العوام الذين يحتاجون إلى التكرير والتفصيل والزيادة، فكتاب الله حافل بهما في المواضع التي تطلب في كل غرض، «استعمل الله عز وجل، في مواضع من كتابه تكرير القصص، وتعريف القول ليفهم من يبعد فهمه، ويعلم من قصر علمه، واستعمل في مواضع أخرى الإيجاز والاختصار لذوي العقول والأبصار»[5].

هكذا جاءت العبارات القرآنية تحمل معاني سامية، وأغراضاً شريفة، وحكماً بالغة الدلالة بلغة العرب التي بلغت ذروة عالية في البيان والإفصاح، وزادها كتاب الله جمالاً وسعة وقدرة كبيرة على التواصل، ورحم الله شاعر الأمة حافظ إبراهيم الذي عبر عن هذه الخصائص الدلالية والبيانية في لغة القرآن حينما قال :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية　　　وما ضقت عن آي به وعظات

وإن البحث في مصادر البيان العربي والقرآني يكشف أسراراً عميقة لهذه اللغة التي اكتملت لها الخصائص التركيبية والدلالية والصوتية في كتاب الله الذي خاطب

(1) سورة مريم، الآية 11.

(2) سورة النجم، الآيتان 4-5.

(3) سورة القصص، الآية 6.

(4) سورة النحل، الآية 68.

(5) البرهان في وجوه البيان، ص 155.

الناس بلغة عربية فصيحة، حملت أسمى عقيدة تنير للإنسانية في كل زمان ومكان مسالك الخير والإصلاح.

إن اللغة العربية بفضل كتاب الله الذي جعلها لغة قادرة على الترسل في أغراض عديدة أصبحت في فترة وجيزة بعد الفتوحات الإسلامية لغة العلم والفكر والتأليف في العلوم الدقيقة، وهي تختزن لآلئ ودرراً في التركيب والدلالة ما زال البحث اللغوي واللساني يكشف عن خباياها، ولعل الإقبال على لغة القرآن وأخباره وقصصه يكشف مزيداً من هذه اللغة البيانية.

الفصل الثاني

مباحث الإعجاز في البيان القرآني

المبحث الأول

مفهوم الإعجاز عند أبي بكر الباقلاني[1]

قال الله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[2].

كان نزول القرآن الكريم أعظم حدث في تاريخ البشرية، فقد شرع لهم قوانين وأحكاما ونظما لم يكونوا قادرين على صياغتها أو الاهتداء إليها، لأنها شرائع الله وأحكامه التي جاءت مراعية لظروف الناس في كل زمان ومكان. وكان نزوله باللغة العربية، لغة البيان والفصاحة التي كان العرب يعتزون بها حدثا آخر ذا دلالة وقدر كبير في بيئة الأعراب خاصة؛ لقد كانت هذه الأمة أمة البيان بجميع الخصائص والمميزات، تملك قدرات عالية في التعبير والبيان والإفصاح عن مشاعرها، والمعرفة بجميع وجوه البلاغة والدلالة على المقصود بشتى السبل والطرق البيانية، مما يجعل السامع تأخذه الدهشة والإعجاب مما يسمع؛ فأشعارهم وأقوالهم وخطبهم وأمثالهم التي وصلت إلينا هي أقوى دليل على امتلاكهم هذه القدرات العالية في البيان والفصاحة والإبلاغ، إذ يجد فيها الدارس أدبا رفيعا، وحكما بليغة، وأمثالا سائرة، ومعاني سامية، وتراكيب روعي فيها الدقة في قواعد النحو الذي يجعلها تبلغ المقاصد بوضوح؛ كل هذا ينبئ عن جودة أفكارهم، وصحة طباعهم التي كانوا يعملون على تقويمها بالممارسة والاحتكاك فيما بينهم وبخاصة في النوادي الثقافية، والأسواق الأدبية حتى صار كلامهم معروفا بالقوانين البلاغية التي «تتدارسه في أنديتها، ويستدرك به بعضهم على بعض»[3].

---

(1) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، نشأ في البصرة، وأخذ عن علمائها علم الكلام وفقه مالك بن أنس، وكان يلقب بشيخ السنة ولسان الأمة، توفي سنة 403هـ.

(2) سورة البقرة، الآيتان 23-24.

(3) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 26.

ولمكانة البلاغة والفصاحة في بيئتهم كانوا يعدون العي والحصر من العيوب، فتعودوا بالله منهما، وطلبوا السلامة والنجاة من شرهما. قال النمر بن تولب :

أعذني رب من حصر وعي   ومن نفس أعالجها علاجا[1]

هذه الأمة التي بلغت منزلة عظيمة، وقدرا كبيرا في البيان والفصاحة، واشتكت من العجز منهما، شاء الله عز وجل أن يجعل سر معجزة رسولهﷺ من جنس ما كانوا يفتخرون به، ويعتزون بامتلاكه. لقد نزل القرآن الكريم على الرسول الأكرم بلغة هؤلاء الأعراب التي كانوا يستعملونها في شعرهم وخطبهم وأمثالهم، بعباراتها وحروفها ونحوها وصرفها واشتقاقاتها، لكن لغة كلام الله ليست شعرا ولا خطبا ولا نمطا من أنماط أقوالهم، إنها كلام متفرد نزل من رب العزة ليكون دليلا على نبوة المصطفى، وهاديا الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان القرآن يتميز بسهولة لغته، وسلاسة تعبيره، وقرب معانيه ومقاصده إلى الأذهان، فان هذه الخصائص التي ميزته عن بقية الكلام تعد سرا من أسرار معجزته، لأن العرب، وهم أمة البيان، أدركوا، برغم معارضتهم للدعوة، أنه كلام لا يمكن لأحد، مهما بلغت مكانته في الفصاحة والبلاغة وقوة البيان، أن يأتي بمثله. قال الباقلاني : «وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر»[2].

ويبلغ الصراع مداه بين الرسولﷺ وبين المعارضين للدعوة عندما يقرعهم الله، ويتحداهم بأن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن الكريم ـ وفي العرب آنذاك من كان يضرب به المثل في الفصاحة ورجاحة العقل[3] ـ فلم يفعلوا شيئا، وظلوا عاجزين برغم تكرار التحدي، وطول التقريع لهم بالعجز.

قال الباقلاني : «ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة، وهم على ما هم عليه من الذرابة

(1) البيان والتبيين : 3/1.

(2) دلائل الإعجاز : 7.

(3) أشار الجاحظ إلى أن الله عز وجل ذكر لنبيه، عليه السلام، في آيات كثيرة «حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول» (البيان والتبيين : 8/1).

والسلاطة والمعرفة بوجوه الفصاحة، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته، وأنهم يضعفون عن مجاراته، ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به»[1].

إن أساليب القرآن وتراكيبه التي أعجزت الفصحاء في زمن الفصاحة أصبحت بالنسبة للعلماء النموذج الأمثل لتعليم الناس طريقة تكوين الأساليب الرصينة، والتراكيب البليغة، فكانت دراستهم للغة كتاب الله تركز على كيفية مجيء أساليبه في الإعراب والمعاني والدلالة، لكونه أسمى أسلوب ينبغي أن يقتدي به الدارسون للغة العربية، فهذا أبو عبيدة المتوفى سنة 210هـ يؤلف كتاب "مجاز القرآن" ليبين للناس أن المعاني والأساليب القرآنية بلغت ذروة في البيان مقارنة بلغة الأعراب، فكما تلتمس وجوه الإعراب والغريب والمعاني من الشعر العربي، فان كتاب الله أجدر أن تلتمس منه هذه الأغراض[2].

ثم ألف ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ كتاب "تأويل مشكل القرآن" ليبحث الجوانب الخفية في ألفاظ القرآن ومعانيه ومجازاته وأغراضه، وفي المجازات خاصة بلغ القرآن نمطاً رفيعاً في التعبير عن الأغراض بأساليب لا يتوصل إلى مكامنها إلا ذوو البصيرة، والمتمكنون من لغة الأعراب، وبذلك كانت المجازات عنده مدخلاً لبيان طبيعة التعبير في الآيات المحكمة والمتشابهة : «وابن قتيبة عندما تعرض للمجاز كان ينطلق من البحث في طبيعة الآيات المحكمة والمتشابهة، وجهل المسلم بمعاني المجاز، لا سيما في الآيات التي تفيد التجسيم والتشخيص، فهذا لا يؤدي إلى الجهل بأساليب القرآن فقط، وإنما يؤدي إلى الجهل بالدين، والتشكيك في حقيقته. ومن هنا كان البحث في المجاز هو بحث في التعبير القرآني، وفهم دلالته وخصائصه الأسلوبية، وهذا هو السبيل الذي يعصم المسلم من الوقوع في الشرك والضلال»[3].

وقد نهجت كتب كثيرة مثل هذا النهج للوقوف على خصائص الأسلوب القرآني مع مراعاة علاقة تلك الأساليب بما يدعو إليه الدين من هداية وتقوى[4].

وكتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني يعد صورة جلية لما انتهى إليه البحث في مفهوم الإعجاز في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس. لقد نقد الباقلاني

---

(1) إعجاز القرآن : 31.

(2) مجاز القرآن : 8/1.

(3) انظر كتابنا "البديع في التراث النقدي والبلاغي : دراسة نقدية، ص 58.

(4) من هذه الكتب، كتاب "نظم القرآن" للجاحظ، وهو من الكتب المفقودة، وقد تناول فيه مميزات بلاغة القرآن وفصاحته، وكتاب "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرماني، المتوفى سنة 384هـ.

مجموعة من العلماء الذين سبقوه في التأليف في معاني القرآن، ولاسيما أصحاب صنعة العربية الذين بذلوا جهدا كبيرا في إعرابه وغامض نحوه وصرفه، وأهملوا إيضاح وجه معجزته في تراكيبه ومعانيه ودلالته التي هي أظهر في كتاب الله، فقد اعتبر هذا الجانب هو الذي ينبغي أن يخص بتعميق البحث فيه، فقال : «وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانته، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة، ودقيق الكلام في الأعراض»[1].

من خلال هذه الملحوظة يسأل الدارس والباحث عن مكامن وأسرار الإعجاز القرآني عند الباقلاني، كيف اهتدى إلى هذه الأسرار ؟ وما هي اجتهاداته التي أوصلته إلى حقيقته ؟ وهل توفق في سبر أغواره ومكامنه ؟

إن الدارس لفكر الباقلاني في هذا الميدان لا يمكن أن يغفل الإشارة إلى أصول ثابتة في البحث في بيان القرآن الكريم. وهذه الأصول يمكن حصرها في رأي الباقلاني في الآتي :

أولاً : إن القرآن عمدة الدين، وقد تناقله الخلف عن السلف، ووقف على تفاصيله أصحاب الخلاف، والذين أكرمهم الله بالإيمان، فلم يجدوا طريقا للطعن فيه، «فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود الأسباب في أنه أتي بهذا القرآن من عند الله تعالى؛ فهذا أصل»[2].

ثانياً : إن الذين شككوا في القرآن لم تكن لهم حجة يعتمدونها في ذلك، ثم إنهم لم يستطيعوا ـ برغم مرور السنين ـ أن يأتوا بمثله، «إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك؛ وهذا أصل ثان»[3].

ثالثاً : إن عدم إيمان فئة من القوم لا يمكن أن يتخذ حجة في عدم صدق الرسالة، لأن الناس لم يكونوا على مرتبة واحدة في الفصاحة والبلاغة، والعلم بالأساليب التي يقع بها الإعجاز، فلهذا كانت فئات كبيرة من الذين دخلوا الإسلام هم الذين أدركوا إعجاز القرآن، وما أخبر به من معجزات وخوارق، وعرفوا أيضا أنهم غير

(1) إعجاز القرآن : 6.

(2) المصدر نفسه : 21.

(3) إعجاز القرآن : 22.

قادرين على الإتيان بمثله «ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافوا إلى القبول جملة واحدة»[1].

رابعاً : إن القرآن تضمن الإخبار عن أمور الغيب، وعن أحداث عظام وقعت في تاريخ البشرية، وهذا سر من أسرار نبوة الرسول الكريم : «وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه»[2]. والنبيﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فلم يكن في استطاعته الرجوع إلى الصحف ليعرف بعضاً من هذه الأخبار، هذا بالإضافة إلى أن معظم تلك الأقاصيص والأمور العظام لم ترد في صحف المتقدمين بذلك السرد العجيب، والتفصيل الدقيق «وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بمجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير، من حين خلق الله آدم، عليه السلام، إلى حين مبعثه»[3].

هذه الأصول التي نص عليها الباقلاني في حديثه عن إعجاز كتاب الله تظهر أنه كان يعتبر الإعجاز القرآني في نظمه وأسلوبه وسياقه وأخباره وغيبياته وقصصه، فهذه الأمور لا يمكن أن يأتي بها النبي الأمي الذي عرف بين قومه أنه لم يقرأ كتاباً واحداً، أو صحيفة مما دونه المتقدمون.

الفنون الأدبية التي كانت عند العرب قبل نزول القرآن :

إن الفنون الأدبية التي كانت معروفة عند العرب قبل نزول القرآن الكريم نوعان : الشعر، وهو ديوانهم. والنثر، وتدخل فيه الخطابة والأمثال والأقوال المأثورة. والنوع الأول كان أكثر شيوعا وانتشارا بين العرب، لأنه كان مجالا للتغني بأمجادهم ومكارم أخلاقهم، وتدوين أيامهم، وما قام به فرسانهم وأجوادهم. ولكثرة انتشاره بين القبائل في الجاهلية لم يستطع الرواة والعلماء في عصر التدوين الإحاطة بجميع أشعار العرب وفرسانهم وأجوادهم، بل بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب وفرسانها وأجوادها. قال ابن سلام : «ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب»[4].

وقد تميز الشعر عند العرب بالوزن والقافية، وهذا ما جعل بعض المعارضين للدعوة يعدون بعض الآيات التي جاءت موزونة من جنس الشعر، واتهموا الرسول بأنه

---

(1) المصدر نفسه : 40.

(2) المصدر نفسه : 48.

(3) المصدر نفسه : 50.

(4) طبقات فحول الشعراء : 3/1.

شاعر، ينظم الكلام مثل ما كان يفعل شعراء عصره. وقد أبطل الله، عز وجل، زعمهم هذا بقوله : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾[1].

ويرى الباحثون أن العرب لما نسبوا الرسولﷺ إلى الشعر كان ذلك نابعا من عجزهم، لأن الشعر كان له سلطان وهيبة في نفوسهم. قال ابن رشيق القيرواني : «ألا ترى العرب كيف نسبوا النبيﷺ إلى الشعر لما غلبوا، وتبين عجزهم، فقالوا : هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق»[2].

وإذا كان الشعر العربي يتميز بتساوي الأجزاء في الطول والقصر، والسواكن والحركات، كما هو معروف عند العلماء بالشعر والأوزان والقوافي[3]، فان الكلام الموزون في القرآن الكريم لا يخضع لهذا النظام الشعري، ولا يشبهه من قريب أو بعيد. والتمييز بين ضروب الكلام وبخاصة بين الشعر الموزون، وبين ما جاء في كتاب الله من آيات موزونة، يعرفه أصحاب البيان، ومن تمرسوا بالتمييز بين جنس واحد من الكلام، فهم قادرون على التمييز بين شعر وشعر، وبين خطبة وخطبة، لمعرفة أيها أجود من الأخرى. والعلماء الذين عكفوا على دراسة البيان القرآني كانوا يعرفون الأسباب التي جعلت الشعراء وأصحاب الفن القولي يعجزون عن الإتيان بمثل كلام الله، وكانوا يدركون أن قول الله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[4].

قال الباقلاني : «فان قيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر، وإن كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب، وذلك أحد أقسام كلام العرب. قيل : من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر، والسواكن والحركات، فإن خرج عن ذلك لم يكن موزوناً (...) وقد علمنا أن القرآن ليس من هذا القبيل»[5].

أما السجع فهو مثل الشعر من حيث المزاوجة بين أجزاء الجمل. لكن هذا النوع من البديع لم يذكر أثناء المواجهة بين الرسولﷺ وبين أعداء الدعوة، ولذلك نجد مجموعة من البلاغيين يعدون ـ من الجانب الفني ـ بعض الآيات سجعا وفواصل. والباقلاني نفى نفيا قاطعا إطلاق مصطلح السجع على الآيات البينات، لأن هذا النوع من البديع كان أسلوبا

(1) سورة يس، الآية 69.

(2) العمدة في محاسن الشعر : 75/1.

(3) انظر كتابنا "بناء القافية وطرق تأصيلها".

(4) سورة الإسراء، الآية 88.

(5) إعجاز القرآن : 84-85.

مستعملا عند الكهان في الجاهلية، والكهانة تنافي النبوات والرسالات السماوية، فضلا عن ذلك فان أسلوب السجع يختلف كل الاختلاف عن أسلوب القرآن الكريم، فذاك يقترن بالتكلف والتعمل، وأسلوب القرآن يتميز بالسهولة والخلو من التكلف. قال في بيان ذلك : «وهذا خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجازه»[1].

ومن هنا وجدنا من نفى السجع عن القرآن يسمي الآيات المتساوية الأجزاء "فواصل"، وحجتهم في ذلك أن الفواصل تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، أما السجع فهو عيب لأنه يقصد في نفسه، ثم يحمل المعنى عليه، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **كتاب فصلت آياته** ﴾[2].

وأن الذين سموا تلك الآيات سجعاً كانوا يرون السجع ليس عيبا في حد ذاته، وأن ذمه في قول الرسولﷺ «أسجعاً كسجع الكهان» ليس ذماً عاماً، وإنما هو مخصوص بسجع الكهان[3].

ونجد من البلاغيين من بحث القضية من جانب التوفيق بين الرأيين، وهذا ما فعله الخفاجي حيث بحث هذه القضية من جانب السهولة والتكلف، فرأى أن الأسجاع تكون محمودة مثل الفواصل إذا جاءت طوعا وتابعة للمعاني، أما إذا اقترنت مع التكلف فهي مذمومة ولو كانت فواصل، فقال : «إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه، والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعا، وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل. ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين ـ أعني المتماثل والمتقارب ـ من أن يكون طوعا سهلا وتابعا للمعاني، وبالضد من ذلك، حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض»[4].

هذا الاتجاه الذي عبر عنه الخفاجي لا يتحرج من تسمية ما ورد في القرآن من آي متماثلة الحروف والمقاطع سجعاً، ومن هنا وجدنا عدداً كبيراً من البلاغيين ودارسي الأساليب يستشهدون بآيات من القرآن عند ذكرهم فن السجع، وقالوا : إن هذه الآيات جاءت قرائنها متساوية، وهذا وجه من وجوه البلاغة التي كانت العرب تعتز بها، كقوله تعالى : ﴿ **في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود** ﴾[5].

(1) المصدر نفسه : 87.
(2) سورة فصلت، الآية 2. وانظر سر الفصاحة : 202.
(3) كتاب الصناعتين : 286.
(4) سر الفصاحة : 203.
(5) سورة الواقعة، الآيتان 27-28.

البديع وإعجاز القرآن :

كان البديع عند القدماء يذكر لبيان أسرار تراكيب اللغة العربية، وتفوقها على سائر اللغات ؛ فلذلك وجدناهم يقفون على ألوان من الاستعارات والتشبيهات والكنايات، باعتبار أن هذه لون من البديع الذي كانت العرب تزين به أشعارها. وقد ذكر الجاحظ بصريح العبارة أن اللغة العربية تسمو على سائر اللغات بالبديع حيث قال : «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان»[1]. والبديع عنده هو الاستعارة التي تغير الدلالة. لهذه الأسباب عكف العلماء على دراسة وجوه المحاسن في البديع، وكان بديع القرآن يأخذ حظا كبيرا من هذه الدراسات، حتى إن بعض البلاغيين جعله دالا على إعجاز كتاب الله. وهذا هو السبب الذي جعل الباقلاني يخصص مبحثاً للحديث عن السجع، وألوان أخرى من البديع ليبين ما إذا كان البديع يتضمن إعجازاً، فقال : «إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟»[2].

ومعروف عند جميع الدارسين والباحثين أن القرآن الكريم نزل بلغة الأعراب التي احتوت على الاستعارات والمجازات والتشبيهات، لكن هذه وغيرها من ضروب البديع تميزت في كتاب الله بالسهولة والطبع والإعجاز، أما في الشعر فهي صنعة فنية يتوصل إليها بالتدريب والممارسة، فهذه «الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها»[3]. أما بديع القرآن وفصاحته وتركيبه فهي تسمو على التحسين والتزيين والتصنع، «والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له، والتوصل إليه بحال»[4].

ولذلك كان على الباقلاني أن يبحث عن وجوه أخرى لبيان إعجاز القرآن، فكانت هذه الوجوه ـ في رأيه ـ مجتمعة فيما تضمن من نظم شريف، وتأليف بديع، ورصف عجيب تحار فيه العقول.

ولننظر كيف حاول الباقلاني كشف ما سماه نظماً ورصفاً وتأليفاً في البيان القرآني لإظهار سر إعجازه. فمما ذكره من الآيات التي تضمنت هذه الخصائص

---

(1) البيان والتبيين : 4/55-56.

(2) إعجاز القرآن : 101.

(3) المصدر نفسه : 162.

(4) المصدر السابق.

قوله تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1].

هذه الآية الكريمة دلت على قدرة الله وعزته وعلو أمره؛ وقد جاءت مجموعة في جمل تميزت بالسلاسة والرصانة والعذوبة، بحيث يظهر في كل جملة منها الرونق والبهاء اللذان فاقا كل بيان وبلاغة وفصاحة عرفتها العرب. قال الباقلاني : «انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره؛ أليس كل كلمة منها في نفسها غرة ؟ وبمنفردها درة ؟ وهو ـ مع ذلك ـ يبين أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي.

ولست أقول إنه شمل الإطباق المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل ـ وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه ـ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة، فإذا ألفت ازدادت به حسنا وإحسانا، وزادتك ـ إذا تأملت ـ معرفة وإيمانا»[2].

وبالرغم من ذكر الباقلاني فنون البديع الواردة في الآية الكريمة، فإنه لم ير سر الإعجاز فيها، بل في هذه الكلمات التي رصفت رصفاً بديعاً، فأثرت في النفوس هذا التأثير البالغ حتى كأن كل جملة منها تصلح أن تكون رسالة أو خطبة أو فقرة بديعة.

وقد نهج الباقلاني هذا النهج في جميع الآيات التي أثبتها في كتابه، ليقرر النتيجة التي آمن بها وهي أن كتاب الله في كل عباراته وتراكيبه وفنونه هو «أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسماه»[3].

وفكرة التقليل من أهمية البديع في إعجاز القرآن الكريم نجدها عند بلاغي آخر جاء بعد الباقلاني، وهو عبد القاهر الجرجاني الذي عد بأبحاثه الرصينة في الإعجاز وأسراره إمام البلاغيين في عصره وبعد عصره، فقد وجدناه عندما تحدث عن استعارة بديعة في القرآن الكريم وهي : ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾[4] قد اعتبر المزية والمحاسن فيها في النظم والتراكيب، وليس في الاستعارة ـ وهي أجود وأبدع ـ فقال : «ومن دقيق ذلك وخفيه أنك

(1) سورة الأنعام، الآية 96.

(2) إعجاز القرآن : 286.

(3) المصدر نفسه : 426.

(4) سورة مريم، الآية 4.

ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه»[1].

وآراء الباقلاني لم تجد صداها عند عبد القاهر الجرجاني فقط، وإنما وجدت عند الباحثين عامة الذين عنوا بالدرس البياني في القرآن، وبأسرار جماله، لا يستثنى منهم القدماء والمحدثون، فبالنسبة للمحدثين نجد السيد رشيد رضا ومحمد عبده ومصطفى صادق الرافعي وسيد قطب، فهؤلاء نصوا في دراساتهم البيانية على مزايا التراكيب القرآنية، وما تضمنت من جمال في الكلمة والعبارة والسياق ؛ وكانت لهم استنباطات سديدة، وتخريجات ذكية، أبانت بشكل واضح مزايا الأسلوب القرآني المشرق الجذاب، وذلك بالنظر فيما ذكره القدماء وبخاصة الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني. ذكر مصطفى صادق الرافعي روح التركيب القرآني، وما تضمن من حلاوة وعذوبة فاقت السحر، فقال إنها : «لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه، وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين»[2].

هذا الكلام من تأثير الدارسين القدماء ،ومنهم الباقلاني الذي قال في مزية النظم القرآني : «لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال؛ بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى»[3].

هذه هي خصائص أسلوب القرآن الكريم الذي تحدى جهابذة الكلام في بيئة نزوله، وما زال يتحدى كل متطاول ومتشكك في عصرنا الحديث بما يكشف فيه العلماء من أسرار علمية، ونظرات نافذة لحقائق الكون والحياة والإنسان، تلك الأسرار التي عجز الزمان عن إبطالها، لأنها قامت عليها أدلة وبراهين ثابتة، يشاهدها الإنسان، ويلمسها بيده، ويختبرها بآلاته العلمية المتطورة.

---

(1) دلائل الإعجاز : 79.

(2) تاريخ آداب العرب : 260/3.

(3) إعجاز القرآن : 305.

المبحث الثاني

مباحث الإعجاز القرآني في كتاب "الطراز" ليحيى العلوي[1]

لقد جعل البلاغيون العرب إبراز خصائص الإعجاز في كتاب الله هدفهم الأول من الدرس البلاغي. وهذا الهدف لم يصرفهم عن النظر في أقوال رسول الله ﷺ، باعتبار تلك الأقوال قد بلغت النهاية في الفصاحة وبلاغة القول، وهو الذي عليه السلام، قد أوتي جوامع الكلم، وكان أفصح من نطق بلغة الضاد. كما كان اهتمامهم كبيرا بشعر العرب وخطبهم وأمثالهم لأنها بلغت مكانة عالية في تهذيب أذواق الناس، والسمو بوجدانهم، وصقل مواهبهم. فكان هذا الدرس البياني المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله، عليه السلام، وتراث العرب الشعري والنثري يعد منبعا صافيا في تاريخ هذه الأمة التي عبرت عن وجدانها وآمالها بالكلمة التي تنفذ في أعماق القلب. وقد نصوا في مقدمات كتبهم على هذا المقصد النبيل، وأظهروا أن الغاية التي رسموها في أذهانهم للدرس البلاغي كانت واضحة وجلية، ألا وهي إبراز مكامن إعجاز كتاب الله من خلال الكلمة المعبرة بأسمى الدلالات. قال عبد القاهر الجرجاني : «وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر»[2].

ولم يخرج يحيى العلوي عن هذا المنهج الذي وضعه البلاغيون قبله، ولذلك وجدناه ينص عند حديثه عن ثمرة علم البيان على القصد الديني الذي به يعرف سر إعجاز كتاب الله، فقال : «واعلم أنه يراد لمقصدين، المقصد الأول منها مقصد ديني، وهو الاطلاع على معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسول الله ﷺ، إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان والاطلاع على غوره»[3].

---

(1) هو يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، من أعلام النقد والبلاغة في القرن الثامن، توفي نحو سنة 749هـ، وكتابه "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" تضمن قضايا عميقة في أسرار الإعجاز.

(2) دلائل الإعجاز : 7.

(3) الطراز : 32/1. والمقصد الثاني هو الاطلاع على أسرار بلاغة العرب في منظومها ومنثورها.

وإذا كانت أساليب القرآن تشبه أساليب العرب في معانيها ولغتها وإعرابها : «وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني»[1]، فإن يحيى العلوي مثل البلاغيين المتقدمين يرى أن كلام الله يختلف عن كلام العرب من حيث علوه وتساميه، وبلوغه الدرجة الرفيعة في البيان. أما كلام العرب، وإن فاقت به جميع الأمم من حيث الإفصاح وسلامة التراكيب، فإنه لم يستو في درجة واحدة من البيان، فمنه ما بلغ المرتبة العالية، ومنه ما انحط عنها إما لخطأ في الإعراب، أو عيب في التراكيب والمعاني : «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ؟ إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه»[2].

ولهذا السبب كان الاستشهاد بالقرآن عند البلاغيين بجانب الأشعار وأقوال العرب قصد بيان الفوارق بين كلام رب العزة، وبين كلام البلغاء والفصحاء الذين لهم فضل تميز ومعرفة بالكلام. ولا سبيل إلى معرفة هذه الفوارق إلا بدراسة خصائص البيان العربي، ومعرفة الوجوه التي يحسن فيها كلام على كلام، وشعر على شعر. وقد نص يحيى العلوي على هذه الخصائص والوجوه عندما ذكر أن معرفة الإعجاز لا تتم إلا بالاطلاع على قواعد علم البيان، فقال : «هو العلم الذي يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأن الإجماع متحقق من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز، وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم، وإحكام أساسه»[3].

وذلك أن الذي لا يستطيع التمييز بين موضع الإيجاز والإطناب، أو التصريح والكناية، أو الحقيقة والمجاز، أو المبالغة والغلو والإفراط، لا يمكنه أن يفهم كلام العرب، ولا يصل إلى حقيقة الإعجاز في كتاب الله كما فهمها أصحاب الكلمة البليغة، فالذي قال في القرآن حينما سمعه : «إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمغدق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة»[4]، كان يميز بين كلام العرب في منظومها ومنثورها، وبين ما جاء في كتاب الله من آيات بينات.

وقد اجتهد يحيى العلوي في كل ما أورده من فنون البلاغة في الوقوف على الخصائص التي تميز كلام الله وأحاديث رسوله، عليه السلام، عن بقية ما أبدعه العرب

(1) مجاز القرآن : 8/1.

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه : 7.

(3) الطراز : 3/1.

(4) المصدر نفسه : 218/3. والقائل هو الوليد بن المغيرة.

من فنون القول. وسننظر في الأساليب والفنون التي ركز عليها لإظهار سر الإعجاز في كلام رب العزة.

المجاز في تعابير القرآن :

لقد أنكر بعض العلماء وجود المجاز في كلام العرب وفي القرآن الكريم : «وهناك من يرفض مجيء المجاز في الكتاب الكريم تشددا في التنزيه، أو خطأ في التصور»[1]. وحجتهم في ذلك أن المجاز يناقض الحقيقة، وكتاب الله ينبغي أن ينزه عما يبتعد عن الحقائق. وهذا الرأي فيه غلو،لأن تراكيب العرب التي جاء القرآن على منوالها تدل في سياقها أنها تشتمل على الحقيقة والمجاز، والمجاز عند العرب لا يناقض الحقيقة[2]، وقد ميزوا بينهما بوجود قرائن دالة على المقصود، أو يعرف من سياق الكلام : «فإنكار الحقيقة في اللغة إفراط، وإنكار المجاز تفريط»[3].

وإذا كانت اللغة لا تخلو من حقيقة ومجاز، فان السامع ينبغي أن يتوفر على حس لغوي ونقدي يجعله يميز بين النوعين؛ وبهذا يتمكن من إدراك الدلالات والمقاصد من مجازات العرب، وما جاء على الحقيقة. وإذا كان القارئ لا يميز بين الحقيقة والمجاز فانه لا محالة يجهل مقاصد الآيات التي ظاهرها تجسيم، وهي خالية منه إلا أنها عبرت عن المقصد بالمجاز. ومعرفة المجاز هو جزء من المعرفة العامة باللغة في إعرابها واشتقاقها، ولذلك كان العلماء ينصون على وجوب معرفة اللغة العربية لأنها المدخل لمعرفة حقائق الدين. وقد جاء في القرآن آيات كثيرة ذكرت فيها الجهة والاستواء والأعضاء، منسوبة لله سبحانه وتعالى الذي جل عن صفات المخلوقات، والذي يجهل اللغة العربية في حقيقتها ومجازها يتوهم أنها صفات جاءت على جهة التحقيق، بينما هي واردة على جهة المجاز، لأن الله قد أخبرنا في كتابه المحكم أنه لا يشبه أي مخلوق : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[4]. ومما جاء في الكتاب العزيز يوهم التشبيه وليس بتشبه قوله تعالى : ﴿ **والسماوات مطويات بيمينه** ﴾[5]، وقوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾[6]، إن توهم اليد أنها جاءت على الحقيقة يوقع في التجسيم والتشبيه الذي نزه

---

(1) التصوير البياني : 211.

(2) ذكر ابن رشيق فضيلة المجاز في كلام العرب فقال : «العرب كثيرا ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها؛ فانه دليل على الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها على سائر اللغات» (العمدة : 455/1).

(3) الطراز : 45/1.

(4) سورة الشورى، الآية 9.

(5) سورة الزمر، الآية 64.

(6) سورة المائدة، الآية 66.

الله سبحانه وتعالى نفسه عنه، ولذلك ينبغي أن ينظر لليمين واليد على جهة المجاز. والذين تمرسوا بكلام العرب في حقيقته ومجازه يدركون أن المقصود باليد هنا فعلها، وهي القدرة على الشيء. قال يحيى العلوي : «ووجه المجاز من جهة أن اليد محل القدرة، أو من جهة أن اليد آلة في الفعل، والفعل لا يمكن حصوله إلا بواسطة القدرة»[1].

والمجاز يمكن أن يكون دالا وواضحا، لا يحتاج إلى أدلة وبراهين، وقد يكون دقيقا وخفيا، لا يدرك إلا من الذين تمرسوا بالأساليب؛ وقد كان الأعراب الخلص يدركون من المجازات ما هو أخفى وأدق، كقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾[3].

إن اهتزاز الأرض وإخراج نباتها الذي نسب إليها، لا يمكن أن يقبله عاقل بحجة أن الأرض لا تفعل شيئا من تلقاء نفسها، ولذلك كان النظر إليها من جهة المجاز هو الاستعمال اللغوي السليم، والفهم للعبارات على وجهها الصحيح؛ فالفاعل على الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وإنما نسب الفعل للأرض على جهة المجاز. وقد جاء المجاز في مثل هذا السياق دالا على ما نوع كتاب الله من أساليب ودلالات كانت العرب تتفنن في مثلها، قال العلوي «ومن عجيب سياقها، وحلاوة طعمها ومذاقها، اشتمالها على المجازات»[4].

ويبلغ المجاز ذروة روعته وجماله عندما يصاغ عن طريق الاستعارة، وهي أعلى مراتب الكلام، وقد جاءت في القرآن الكريم دالة على المحاسن والبدائع التي لم يتوفق العرب في أمثالها، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾[5].

إن استعارة الذوق في اللباس، واللباس في الجوع والخوف، وما سبقت به الاستعارة من ذكر الأمن والاطمئنان والرغد، يجعلها أبدع ما يكون الإبداع من حيث التقابل بين المتناقضات. كما كان لعنصري التخييل والتحقيق أثرهما البليغ في إظهار محاسن هذه الاستعارة ؛ وذلك أن استعارة اللباس للجوع والخوف يجعل الوهم يرتقي في تصور التغطية والستر وأحوالهما، وهذا تخييل بارع، وفي النظر إليها من جهة

---

(1) الطراز : 69/1.

(2) سورة فصلت، الآية 38.

(3) سورة الحج، الآية 5.

(4) الطراز : 236/1.

(5) سورة النحل، الآية 112.

التحقيق : «أن ما يرى على الإنسان عند شدة الخوف والجوع من الضعف والهزال، وانتقاع اللون، وعلو الصفرة، ورثاثة الهيئة، ورقة الحال، وحصول القلق والفشل، يضاهي الملابس في اختلاف أحوالها وألوانها»[1].

التناسب والتلاؤم في تعابير القرآن :

إن الأساليب التي تأتي عن طريق التناسب والتلاؤم تكون أمكن في النفس، وأكثر تأثيراً في المتلقي. وقد نص البلاغيون الذين عنوا بالأساليب خاصة، ومنهم حازم القرطاجني، على أن المستحسنين اللذين يأتيان عن طريق التناسب «أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد»[2].

وقد أوضح يحيى العلوي في آيات عديدة محاسن التناسب في أساليب القرآن الكريم، بالإضافة إلى النظر في جودة نظمها، وحسن سياقها، ورشاقة عبارتها، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾[3].

إن في مد العينين من الدلالات ما بلغ منتهى الدقة في بيان التهافت على المحاسن والجمال، ولذلك جاءت الآية بصيغة النهي لما في ذلك من شدة الفتون والتهافت على المحاسن. وقد أعاد الله سبحانه وتعالى هذا النهي في آية أخرى، فقال عز من قائل : ﴿ **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا** ﴾[4]، ونجد في هذه الاستعارة التعبير عن زينة الدنيا وبهجتها ولذتها بالزهرة، وهو تعبير متلائم ومتناسب لا يخفى على أهل النظر لما في الزهرة من متعة النظر والرائحة الطيبة[5].

ولا يدرك محاسن وجمال هذا التناسب القرآني البديع إلا من رأى نقيضها في كلام البلغاء، ومن كانوا يتسابقون إلى القول البليغ، شعرا كان أو خطبة، إذ نجد من الشعراء الكبار من يخفى عليه أوجه التناسب ومدى تأثيرها في المتلقي، فيقع في سخف الكلام الذي لا يضاهيه في السخف شيء آخر كقول الشاعر :

ما لرجل المال أضحت تشتكي منها الكلالا[6]

---

(1) الطراز : 236/1.

(2) منهاج البلغاء : 45.

(3) سورة طه، الآية 129.

(4) سورة الحجر، الآية 88.

(5) الطراز : 239/1.

(6) المصدر نفسه : 242/1.

أو في مثل قول الشاعر بشار، وهو من فحول الشعراء المحدثين الذين سنوا للشعر طرائق بديعة :

وجذت رقاب الوصل أسياف هجرها وقدت لرجل البين نعلين من خدي[1]

لقد علق ابن رشيق القيرواني على أمثال هذه الاستعارة، وما فيها من رداءة، وانعدام التناسب بين الأشياء الذي هو الأساس في تحسين المعاني والمباني، فرأى أن التناسب بين البين والرجل، وبين الرقاب والوصل منعدما ورديئا، فقال : «فما أهجن رجل البين وأقبح استعارتها ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها، وكذلك رقاب المال»[2].

ومن هنا يدرك الباحث في خصائص الأساليب أن ما يجد من استعارات بديعة في كتاب الله، أو في تشبيهاته وباقي الفنون التي وردت فيه، قد تميزت بالتفرد والمحاسن والجمال القولي الذي انعدم في كثير من أقوال البلغاء والفصحاء ؛ فهذه تشبيهات القرآن الكريم التي بلغت مداها في التناسب والتلاؤم الذي يدركه كل من له شعور وإحساس بالجمال، كتشبيه الحور العين بالمرجان والياقوت في شدة الحمرة والرقة في قوله تعالى : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[3]، وتشبيه النساء بالبيض المكنون في رقته ولطفه وصفائه في قوله تعالى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾[4]، وتشبيه القمر في نهاية رحلته، وقد أتعبه المسير، بالعرجون القديم في قوله تعالى : ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾[5]، أما استعارات القرآن فقد بلغت من الجمال منتهاه، كما رأينا في الاستعارة المتقدمة، وفي قوله تعالى، وقد استعار التكبر والعلو للماء الذي ارتفع وجاوز حده : ﴿ **إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية** ﴾[6]، واستعارة العقم للريح القوية التي تفسد كل شيء مرت عليه في قوله تعالى : ﴿ **وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾[7].

هذه الاستعارات والتشبيهات المتناسبة والمتلائمة تبين أن أساليب القرآن تتحكم فيها قوانين البلاغة والفصاحة التي بلغت درجة عالية في التناسب الذي يحقق للكلام جماله ورونقه، وقد صدق الله العظيم حينما وصف كتابه العزيز بالعلو

(1) العمدة : 1/461-462.

(2) المصدر نفسه.

(3) سورة الرحمن، الآية 58.

(4) سورة الصافات، الآية 49.

(5) سورة يس، الآية 39.

(6) سورة الحاقة، الآية 11.

(7) سورة الذاريات، الآية 41.

والسلامة من كل عيب أو خلل، فقال عز من قائل: ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾[2].

وتجد في القرآن الكريم التناسب عن طريق التقابل بين الألفاظ والمعاني، وهذا يوفر للكلام حسن التأليف والتصريف، إذ تأتي اللفظة مقابلة لما يراد لها من معان، كقوله تعالى: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾[3]. قال يحيى العلوي يذكر ما احتوت عليه الآية من تقابل عجيب: «فانظر إلى هذا التقابل العجيب في هذه الآية، ما أحسن تأليفه وأعجب تصريفه فلقد جمع فيه بين متقابلات ثلاث، الأولى منها مأمور بها، والثلاث التوابع منهي عنها»[4].

وللتدقيق في بيان تناسب آيات القرآن الكريم أورد العلوي آية يبدو في ظاهر عباراتها أنه لا يمكن الجمع بينها، بينما هي ـ حين التأمل ـ في منتهى التآلف والانسجام، وهي قوله تعالى: ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[5].

قد يظن من لا يدرك جهات التناسب بين الأشياء أن الجمع بين الجوع والظمأ، وبين العري والضحى هو المستحسن في هذا الموضع؛ لكن بعد التمعن في المعاني والمقاصد والدلالات من هذه الآية الكريمة نجد أن الجمع بين الجوع والعري، وبين الظمأ والضحى ـ كما جاء في الآية ـ هو الوضع المناسب لما يلائم الإنسان من حاجات، وما يشعر به،وقد أوضح العلوي العلاقة التي أوجدت هذا التناسب البديع بين العبارات، وما يلائمها من معان، فقال: «فقرن الجوع بالعري، لما للإنسان فيهما من مزيد المشقة، وعظيم الألم بملابستهما، وأراد مناسبة الاستظلال للري، فقرن بينهما لما في ذلك من مزيد الامتنان وإكماله»[6].

ثم أبرز وجهاً آخر في هذا التناسب، فقال: «ووجه آخر وهو أن الجوع يلحق منه ألم في باطن الإنسان، وتلتهب منه أحشاؤه، والعري يلحق منه ألم في ظاهر جسد الإنسان، فلهذا جمع بينهما لما كان أحدهما يتعلق بالظاهر، والآخر يتعلق بالباطن؛

---

(1) سورة فصلت، الآية 3.

(2) سورة الزمر، الآية 27.

(3) سورة النحل، الآية 90.

(4) الطراز: 374/2.

(5) سورة طه، الآية 118.

(6) الطراز: 149/3.

وهكذا حال الظمأ فانه يحرق كبد الإنسان، ويوقد في فؤاده النار، والضحى يحرق جسده الظاهر، فلأجل هذا ضم كل واحد إلى ما له به تعلق لتحصل المناسبة»[1].

وقد تنبه الشعراء الفحول إلى هذا التناسب البديع في القرآن الكريم، والى هذه الظواهر البلاغية التي تفرد بها كتاب الله، فأبدعوا ما شاءوا في أشعارهم في الجمع بين الأشياء لتحقيق التناسب البديع، والرونق والجمال، مقتدين في ذلك بكتاب الله الذي علمهم أسرار الجمال والإبداع في المعاني والأغراض، فهذا الشاعر المتنبي الذي اشتهر في الأدب العربي، ودوت أشعاره في شرق الأرض وغربها لما وفر لها من جمال وإبداع متميز يأخذ من كتاب الله النموذج الأمثل في التناسب، فقال :

فالعرب منه مع الكدري طائرة والروم طائرة منه مع الحجل

لقد ضم الكدري للعرب لكونه يعيش في الصحاري والقفار، وضم الحجل للروم لأنه يستوطن شطوط الأنهار، فكانت المناسبة في موضعها مما أضفى عليها حسناً وجمالاً : «وبلاد الروم فيها الأنهار الكثيرة، فلأجل هذه المناسبة والتزامها ضم كل واحد إلى ما يليق به ويناسبه بعض المناسبة»[2].

ولم تقتصر المناسبة في كتاب الله على التلاؤم بين المعاني والألفاظ، وإنما شمل التناسب الألفاظ في حد ذاتها، وأزمنة الأفعال، ولذلك نجد القرآن يتجنب استعمال كل ما هو ثقيل على اللسان، وما استعمل في زمن محدد، حتى لا يكون في أسلوبه ركاكة وثقل على السامع، ومشقة في ترديدها، ومثل ما تجنبه كتاب الله من الأفعال : (وذر وودع)، فقد استغنى عنهما في الماضي بفعل (ترك)، وهو أخف على اللسان كقوله تعالى : ﴿ **وتركهم في ظلمات لا يبصرون** ﴾[3]. واستعمل فعل (وذر) في المضارع والأمر فقط، كقوله تعالى : ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[4]. وقوله تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا** ﴾[5].

قال يحيى العلوي : «وهذا من غريب الاستعمال وبديعه، أن يكون الماضي وان كان أصلا لغيره من الأفعال، بعيدا في الاستعمال، وفي هذا دلالة على أن الفصيح لا يوجد بطريق الأصالة والفرعية، وإنما طريقه كثرة الاستعمال والاطراد»[6].

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه : 150/3.

(3) سورة البقرة، الآية 16.

(4) سورة الأنعام، الآية 111.

(5) سورة الزخرف، الآية 83.

(6) الطراز : 42/3.

هذه الملحوظة التي ذكرها العلوي في الاستعمال اللغوي لها دلالة كبيرة عند اللغويين في العصر الحديث، إذ توصلوا إلى أن اللغة مثل الكائن الحي، تستمر بالاستعمال، وتموت بالإهمال، كما أن ما يستمر منها هو المتداول والمستعمل على ألسنة الناس، وما يقبله ذوقهم منها، إما لخفته أو جماله. وقد هداه إلى هذه الملحوظة الطريفة ما وجد من لغة في كتاب الله الذي استعمل ما خف على اللسان، وما عذب وحلا في الأفئدة.

ومما حرص عليه القرآن في ذكر اللفظة المناسبة التي تشعر بالجمال مجيئه في آيات كثيرة بلفظة "الأحبار" جمعاً، كقوله تعالى : ﴿ **إن كثيرا من الأحبار والرهبان** ﴾[1]. وقوله : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم** ﴾[2]. وهذا ما جعل يحيى العلوي يعتبر مجيء الأحبار جمعا في كتاب الله دليلا على فصاحتها، إذ القياس في البلاغة والفصاحة هو كتاب الله، عز وجل : «فلا جرم بأن موقعها في الجموع أحسن من موقعها في الإفراد»[3].

ومما ينبغي ذكره في هذا الموضع مجيء لفظة الأرض في القرآن مفردة، وإذا احتيج إلى «جمعها أتي بما يدل على جمعها دون جمع لفظها»[4] كقوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن** ﴾[5].

إن استعمال هذه الألفاظ والصيغ في الإفراد فقط، أو الجموع، يبين كيف جاءت أساليب القرآن الكريم مراعية للقواعد الصحيحة والذوق السليم، فلا تجد عوجا أو اضطرابا أو خللا أو لفظة نابية أو صيغة شاذة أو غموضا يحوج السامع إلى الحيرة وعدم الاهتداء إلى المعنى بسهولة. هذا الإحكام في معاني كتاب الله ومبانيه لم يأت صدفة، وإنما هو إحكام من الله الذي أتقن كل شيء صنعا وخلقا، وما وقف الأعراب عاجزين عن الإتيان بمثله، والقرآن يتحداهم ويكرر التحدي، إلا لكونهم قد أدركوا هذه المزايا التي لم يعرفوها في شعرهم أو خطبهم، فهو كلام الله الذي ما كان لأحد ـ وما زال ـ القدرة على خلق مثله، ولو كانت آية واحدة : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** ﴾[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية 34.

(2) سورة التوبة، الآية 31.

(3) الطراز : 45/3.

(4) المصدر نفسه.

(5) سورة الطلاق، الآية 12.

(6) سورة يونس، الآية 37.

المبالغة في أساليب القرآن :

المبالغة من الأساليب التي وقف عندها البلاغيون في أشعار العرب وأقوالهم المنثورة، وهي ظاهرة أسلوبية شائعة عند القدماء والمحدثين، لكن منها ما استحسنه النقاد، ومنها ما رفضوه بحجة الخروج عن المعقول والمقبول عقلا وحساً. وكلام الله باعتباره أسلوبا عربيا استعمل هذا الفن في آياته البينات للدلالة على معان كثيرة، وقد حققت المبالغة محاسن بليغة في الأسلوب القرآني، لم ينكرها النقاد مثل ما رفضوا الكثير من مبالغات الشعراء، لأن مبالغة القرآن تميزت بالقصد والاعتدال، وبالتعبير عن مضامين كثيرة لا تفيد إلا بأسلوب المبالغة. وكان للعلوي رأي في المبالغة، سواء التي جاءت في أشعار العرب أو في كتاب الله، فقد رأى فيها وجها من وجوه البلاغة الرفيعة، وان وجودها في القول البليغ يحقق غايات ومقاصد بيانية بديعة، فقال : «أما من عاب المبالغة فقد أخطأ، فإن المبالغة فضيلة عظيمة لا يمكن دفعها وإنكارها، ولولا أنها في أعلى مراتب البيان لما جاء القرآن ملاحظا لها في أكثر أحواله، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها»[1].

ومن هذا الأسلوب ما ورد من تكرار وترادف في الصفات قصد إعظام حال الموصوف، ورفع شأنه، كقوله تعالى : ﴿ **الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور** ﴾[2].

إن هذا التكرار في الجمل لم يخرج الآية إلى التمحل والاستثقال بقدر ما أظهر إعظاما لحال الموصوف، والزيادة في بيان أوصافه، وهذه مبالغة محمودة يقتضيها البيان والقول الرصين. قال العلوي : «فانظر إلى تعديد هذه الجمل، ومجيئها من غير حرف عطف، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف، وأشادت من قدره ورفعت من حاله، وأبانت المقصود على أحسن هيأته»[3].

إن المبالغة المعتدلة التي يتجنب فيها المبدع الإفراط والتفريط هي المستحسنة، لأن العقل يقبلها لكونها متلائمة مع ما يشاهده الإنسان، وما يلمسه ويحسه. قال العلوي : «لكن خير الأمور أوسطها، فما كان من الكلام جاريا على حد الاستقامة من

---

(1) الطراز : 122/3.

(2) سورة النور، الآية 35.

(3) الطراز : 124/3.

غير إفراط ولا تفريط، فهو الحسن لا مراء فيه، فيكون فيه نوع من المبالغة من غير خروج ولا تجاوز حد»[1].

ومثل المبالغة التي ابتعدت عن الغلو والإحالة والتزيد قوله تعالى : ﴿ **أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها** ﴾[2].

فالمبالغة هنا جاءت للدلالة على بيان وصف الظلمة المتراكمة، وهي لم تخرج عما يشاهده الإنسان في الليالي الشديدة الظلام حيث لا يرى شيئا حتى أطراف جسمه.

بلاغة التلميح في أساليب القرآن :

التلميح والرمز والإشارة الدالة من مميزات اللغة العربية التي انفردت بأساليب لا توجد في لغات أخرى، وهذا هو السبب الذي جعل العلماء القدماء يعتبرون اللغة العربية أفضل اللغات على الإطلاق. وقد ورد من هذا الأسلوب معان كثيرة في الشعر القديم والمحدث، ومنها ما دل على النهاية في بلوغ الأوصاف والنعوت. وفي كتاب الله وردت آيات عديدة فيها تلميح إلى أمثال سائرة، وكلام مأثور، كقوله تعالى : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[6].

والقصد من ضرب الأمثال في القرآن الكريم جعل الآيات البينات أعلق في الأذهان، ومؤثرة في أولي الألباب. والمثل ـ كما ذكر النقاد ـ إذا جاء محكما وموجزا كما في أمثال القرآن أكسب الكلام لطفا ورشاقة، وبراعة رائقة، وتغلغل في النفوس، واستحكم فيها، ولا أدل على ذلك مما يردده الناس من أمثال قديمة وحديثة، توجه الناس إلى مقاصد الخير، وتعظهم في دنياهم. إلا أن أمثال القرآن فاقت كل مثل،

---

(1) الطراز : 122/3.

(2) سورة النور، الآية 40.

(3) سورة النور، الآية 35.

(4) سورة العنكبوت، الآية 43.

(5) سورة الروم، الآية 57.

(6) سورة إبراهيم، الآية 27.

وأصبحت عند البلغاء والفصحاء، أنموذجا، يقتدون بها في أقوالهم ، ويصوغون منها معانيهم، ولا أدل على ذلك من قول أبي تمام، وهو من هو في الشعر والبلاغة :

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس[1]

وذلك لأن تلك الأمثال تضمنت إعجازاً، وروعة في البيان والإحكام.

ومن أمثال القرآن التي وقعت فيها الإشارة إلى أقوال مأثورة قوله تعالى : ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهى البيوت لبيت العنكبوت** ﴾[2]. فقد وقع التلميح إلى المثل السائر : «أرق من نسج العنكبوت، وأضعف من بيتها».

وقوله تعالى : ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[3]، فيه تلميح إلى المثل : «أجهل من حمار، وأبلد من عير».

وقوله تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾[4]، فيه إشارة إلى قولهم : «فلان ألهث من كلب».

هذه التلميحات البليغة، والأمثال المعجزة، في كتاب الله، بالإضافة إلى أنها حققت غايتها النبيلة في تنبيه الغافلين والضالين، فإنها لما بلغت من إحكام وجودة، جعلت الناس ينسون الأقوال المأثورة التي سبقتها، وأصبحوا يرددون أمثال القرآن للدلالة على الغرض المقصود : «وقد يتمثل بالمثل على غير ما تمثل به الأول، فربما حسن موقعه من الكلام الثاني أكثر من حسنه في الكلام الأول»[5].

إن هذه النظرات القيمة، والتحليلات العميقة، تبين اهتمام العلماء بكتاب الله حتى في المرحلة التي اعتبرها الباحثون مرحلة الانحطاط والجمود والتكرار وانعدام الإبداع؛ إن يحيى العلوي عاش في هذه المرحلة، لكنه أبدع في تحليله كل الإبداع لقضايا البلاغة عامة، وبلاغة القرآن والحديث خاصة؛ وإبداعه ونظراته الصائبة لا تقل عما أبدعه الأوائل أمثال الجاحظ والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، هؤلاء الذين ظلت أسماؤهم مرتبطة بالأدب العربي والبيان القرآني.

---

(1) وقعت الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ (سورة النور، الآية 35).

(2) سورة العنكبوت، الآية 41.

(3) سورة الجمعة، الآية 5.

(4) سورة الأعراف، الآية 176.

(5) منهاج البلغاء : 40.

المبحث الثالث

خصائص النظم في القرآن

«واعلم أنك إذا حذقت في هذا الفن لصدق همتك واستفراغ جهدك فيه وبالحري، أمكنك التسلق به إلى العثور على السبب في إنزال رب العزة قرآنه المجيد على هذه المناهج، إن شاء الله»[1].

لماذا عني اللغويون والنحاة والأسلوبيون بالنظم ؟ وما الذي يميز نظم القرآن من نظم البلغاء ؟ وأين تكمن وجوه الاختلاف ووجوه الشبه بين النظمين ؟ وما الذي جعل نظم القرآن يتفرد بالإحسان المطلق ؟

هذه الأسئلة وغيرها قد تكون المفتاح الذي يسهل معرفة أسرار هذا العلم الذي يعد ثمرة طيبة لجهود أسلافنا في مباحث علوم اللغة العربية أي مباحث اللغة والنحو والبلاغة، وهي مباحث ثرة وغنية بالمعارف تظهر ما بذله العلماء القدامى من جهود جبارة لكشف مكامن عبقرية اللغة العربية باعتبارها لغة الأدب والفكر والعلم والبحث.

إن مباحث النظم هي التي تمكن الدارس من معرفة خصائص التراكيب، والوجوه التي يحسن فيها أو يقبح، وما يطرأ من تغيير عليها يوجه المعنى نحو مقاصد أخرى. وهذه المباحث تجعل اللغة غنية بالدلالات والتعابير، وهو غنى متعدد الوجوه، وكثير الفروع، تتداخل فيه قواعد النحو، وفنون البلاغة، وكل ما يمس اللغة من تطور في تراكيبها.

والتغيير الذي يحدث في التراكيب قد يكون ناتجا عن ذكر الشيء وحذفه، أو تعريفه وتنكيره، أو تقديمه وتأخيره، أو وضع الفعل موضع الاسم، أو الاسم موضع الفعل، وغيرها من الوجوه التي درسها العلماء القدامى في أبواب النحو والبلاغة، ودرسها المحدثون في مباحث الأسلوبية.

وتتبع هذه الظواهر يحتاج إلى معرفة شاملة بقواعد النحو واللغة والمعاني، مع وجود فطنة وقدرة عقلية متميزة لمعرفة ملحوظات العلماء، فيوضع كل تركيب في موضعه الذي يليق به، ويرد كل تعبير إلى أصله الذي اشتق منه، ولذلك فإن على الباحث

---

(1) مفتاح العلوم : 175.

في الخصائص الأسلوبية أي في حقول المعاني والمباني أن لا يهمل النظر في الفروق التي توجد بين تركيب وتركيب مهما بدت جزئية أو بسيطة. هذا هو المنهج الذي اتبعه علماؤنا القدامى، فتوصلوا به إلى قواعد دقيقة تتحكم في الظواهر صرفية كانت أو نحوية أو أسلوبية.

واللغة العربية لغة تفردت بدقائق صرفية ونحوية وتركيبية يقل أن نجد مثيلا لها في لغات أخرى. إن معانيها تتغير تغيرا جزئيا أو كليا لمجرد زيادة لفظ أو حرف، أو تقديمهما في موضع يوجب التأخير، أو أن يعرف اسم في موضع وينكر في موضع آخر. وقد اختلف الباحثون في الوجوه التي يحسن فيها النظم، وتباينت آراؤهم فيها لدقتها، أو لإمكان تأويلها على وجوه كثيرة، وهذا الاختلاف هو الذي جعل العلماء يحرصون على بحث الجزئيات في كل تركيب، فقد يبدو التركيب بسيطا في ظاهره إلا أن بساطته هي سر من أسرار تفوقه وتفرده بخصائص دلالية وبيانية. فهذا الكندي الفيلسوف العربي المشهور ـ وقد كانت له آراء في اللغة ومعاني الشعر عبر عنها في مواطن عديدة[1] ـ يزعم أن في كلام العرب حشوا بقوله : إنهم يقولون :

عبد الله قائم.

وإن عبد الله قائم.

وإن عبد الله لقائم.

بينما المعنى ـ على حد زعمه ـ واحد، ولكن العارفين بأسرار تراكيب كلام العرب أظهروا له أن الزيادة غيرت الدلالة تغييرا جذريا، فقال له أبو العباس ثعلب ـ وكان أعلم الناس بالعربية في زمانه ـ : «بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم : عبد الله قائم، إخبار عن قيامه. وقولهم : إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل. وقولهم : إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه. فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني»[2].

---

(1) قيل إن الكندي كان حاضراً في مجلس أحمد بن المعتصم حينما مدحه أبو تمام بقصيدة منها قوله :

أبليت هذا المجد أبعد غاية ... فيه وأكرم شيمة ونحاس

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال الكندي لأبي تمام، وأراد الطعن عليه، الأمير فوق من وصفت، فأطرق أبو تمام قليلاً ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها، وهما :

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

قال الكندي : فعجبنا من سرعته وفطنته.

(2) دلائل الإعجاز : 242.

هذا التغيير في المعاني جاء نتيجة الزيادة، ولو بدت في ظاهرها بسيطة. ومن هنا يدرك الباحث أن التراكيب في اللغة العربية التي تتفرع وتتعدد وجوهها لم تكن اعتباطية، وإنما روعي فيها الدقة والضبط لسلامة المعنى من الغموض والإحالة.

كما أن الحركات الإعرابية تؤثر في توجيه التركيب والمعنى، فقد اختلف العلماء في تخريج نصب "الطير" في قوله تعالى: ﴿ **يا جبال أوبي معه والطير** ﴾[1]. كان عيسى بن عمر يرى النصب على النداء، كما يقال: يا زيد والحارث. لكن أبا عمرو بن العلاء رد هذا التأويل وقال: «لو كانت على النداء لكانت رفعا، ولكنها على إضمار: وسخرنا الطير»[2].

وقد أشار عباس محمود العقاد إلى دور الإعراب في المعنى فقال: «وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة، توافرت لها جملا مفهومة بعد أن توافرت لها حروفا تجمع مخارج النطق الإنساني على أفصحها وأوفاها، وبعد أن توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والأوزان»[3].

والبحث في خصائص نظم القرآن من خلال الحركات الإعرابية، وتنوع التراكيب يظهر أسرارا عميقة في المعاني التي تختزنها اللغة العربية، ولذلك بدأت العناية ببحث بيان القرآن لكشف أسرار تركيبه ولغته ونحوه منذ القرن الثاني الهجري، وهي الفترة التي بدأ فيها العلماء يجمعون التراث الجاهلي والإسلامي، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لدراسة أغراضه ومعانيه بجانب كتاب الله الذي اعتبروه مصدرا أساسيا لكل العلوم الشرعية واللغوية. واستمرت العناية بكتاب الله باهتمام كبير، وتقص دقيق حتى عصرنا الحاضر. وبرغم كثرة الدراسات الممتدة في الزمان والمكان فإن أسلوبه المعجز ما زال يكشف بدائع وأسرارا في التراكيب والمعاني.

ومن العلماء القدامى الذين درسوا نظم القرآن دراسة أسلوبية اعتمدت على المقارنة بينه وبين أسلوب العرب أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة 210هـ، لقد بحث هذا العالم ضروب الدلالات والتراكيب في القرآن وفي أسلوب العرب، ولاحظ أن التنوع في الأسلوبين يأتي عن طريق وجوه عديدة، القصد منها تقوية المعنى وتأكيده وإيضاحه وتحسينه، وسمى تلك الظواهر الأسلوبية مجازا[4]. ومما استشهد به من الآيات

---

(1) سورة سبأ، الآية 11.

(2) طبقات فحول الشعراء: 1/20-21.

(3) اللغة الشاعرة: 19.

(4) مفهوم المجاز عنده يختلف عن تعريف البلاغيين له، حيث عرفوه بأنه: نقل اللفظ من معناه الحقيقي إلى معنى آخر لوجود قرينة دالة عليه.

البينات التي سماها مجازا، وهي نمط من نظم القرآن البليغ قوله تعالى : ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة** ﴾[1].

إن زيادة حرف الباء في هذا الأسلوب لها مزية بيانية ودلالية وهي تأكيد الكلام، والتأكيد في اللغة العربية له وجوه وطرق عديدة، وكلها تدل على عبقرية اللغة في تنوع الأساليب خاصة، والغاية منه إثارة الانتباه للشيء وزيادة الاهتمام به. ومنه قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة** ﴾[2]. فقد زيدت "ما" لأجل تأكيد الكلام أيضاً[3].

وفي التقديم والتأخير وجد أبو عبيدة أسلوب القرآن قد روعي فيه جودة النظم، وحسن الترتيب، والبعد عن الالتباس والاشتكال، وهي خصائص بيانية يدركها أصحاب الطبع، ودارسو الأساليب، كقوله تعالى : ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾[4]، أي وعنده أجل مسمى، بمعنى وقت مؤقت[5]. والذي أوجب التقديم في هذه الآية الكريمة تعظيم شأن يوم القيامة، لأن الشيء إذا قدم تتجه العناية إليه أكثر من وجوده في حشو الكلام أو آخره. وقوله تعالى : ﴿ **لنريك من آياتنا الكبرى** ﴾[6]، أي لنريك الكبرى من آياتنا، بمعنى من عجائبنا[7].

والغاية التي حققتها هذه الظاهرة الأسلوبية هي نفسها التي تحققت في الآية السابقة، أي تقديم ما هو أولى بالعناية ولذلك كان التقديم والتأخير في كتاب الله مجالا لتحقيق غايات نبيلة في المعاني تدرك بالتقصي الدقيق للتركيب كقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[8]. إن التقديم حدد فئة معينة تخشى الله عن دراية وعلم ويقين، وهم العلماء الذين لهم القدرة الكافية لمعرفة آيات الله، وعجيب خلقه، وحسن صنعه وتدبيره، وهو اللطيف الخبير. فلذلك كان التقديم هو الذي يخرج هذا المعنى بالقوة إلى الوجود، بينما التأخير يجعل الخشية غير مقصورة على العلماء وحدهم، والفرق كبير بين الدلالتين.

---

(1) سورة مريم، الآية 25.

(2) سورة البقرة، الآية 26.

(3) مجاز القرآن : 35/1. ويجوز أن ترفع بعوضة فتكون (ما) موصولة، صلتها الجملة، وحذف صدر الجملة، أي هو بعوضة.

(4) سورة الأنعام، الآية 2.

(5) مجاز القرآن : 185/1.

(6) سورة طه، الآية 23.

(7) مجاز القرآن : 18/2.

(8) سورة فاطر، الآية 28.

كما عني أبو عبيدة بما جاء في أسلوب العرب من خروج الكلام عن ظاهره لإفادة معنى آخر. وهذه الظاهرة الأسلوبية تبين طرق تعدد الخطاب عند العرب قل نظيرها في لغات أخرى، كالإيماء والإشارة واللمحة والاقتضاب والالتفات والتفسير والتقسيم، وغيرها من الفنون التي دلت على الاقتدار والتمكن من الأقاويل البليغة، قال حازم حينما تحدث عن القوانين التي استنبطها أرسطو من الشعر اليوناني : «ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم، وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية»[1].

وفي القرآن الكريم مثل هذه الضروب من الأساليب عبرت عن معان جليلة، ومقاصد شريفة، وأغراض نبيلة في العقيدة والشريعة والأخلاق، جاءت غاية في الإحكام، وتمام الكمال والبيان والإبداع، في تركيب سليم، وتصوير طريف، جمع ألوانا من التناسب لفظا ومعنى حيث تتداخل الصيغ لتشكل نسيجا من التصوير البديع، والخيال الخلاق والمعنى الطريف، فكانت النموذج الأمثل في الأساليب البيانية البديعة.

ومن الآيات التي تبدو في الظاهر أنها بمعنى الاستفهام، وهي بمعنى الإخبار، وهذان الأسلوبان يختلفان في طريقة الأداء، لكنهما يلتقيان في التعبير البليغ الذي تتداخل فيه الصيغ قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم آ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون** ﴾[2].

إن المعنى في الآية إخبار إلا أنه خرج مخرج الاستفهام للدلالة على معان يقصر على أدائها أسلوب الإخبار المباشر[3]. وقوله تعالى : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾[4]. لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها معنى الإيجاب، لأن الملائكة لا تستفهم ربها[5]. وقيل في معناها هي تعجب من أن يستخلف الله مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وأن الملائكة عرفوا ذلك بإخبار من الله أو من جهة اللوح لما ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم المعصومون.

(1) منهاج البلغاء : 69.

(2) سورة البقرة، الآية 5.

(3) مجاز القرآن : 31/1.

(4) سورة البقرة، الآية 30.

(5) مجاز القرآن : 35/1-36.

وقوله تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أ هؤلاء إياكم كانوا يعبدون** ﴾[1]، الألف ليست استفهاما وإنما هي إيجاب وإخبار وتقرير للذين عبدوا الملائكة[2]. وهو تقرير للكفار، لأن الملائكة منزهون مما وجه لهم في هذا التقرير، وبهذا اللون من الخطاب يكون تقريع الكفار أشد إيلاما، وأعظم وقعا من الخطاب المباشر.

وقوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾[3]، هذا الأسلوب تفهيم، وليس استفهاما عن جهل[4]، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بالسرائر، وبكل جهر وهمس كيفما بلغ خفاؤه، ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[5]. ولذلك كان رد عيسى عليه السلام : ﴿ **قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب** ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ **أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[6]. الألف وإن كانت تبدو في الظاهر للاستفهام أو الشك، إلا أنها خرجت عن هذا المعنى لتفيد التقرير. والمعنى أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين، ولا يهتدون للصواب[7].

هذه التراكيب خرجت دلالاتها عن الأسلوب المباشر، ولذلك سماها أبو عبيدة مجازا. ومثل هذه الأساليب هي التي اعتمدها البلاغيون في دراسة النظم، لأن تغيير الدلالة فيها تتحكم فيه قواعد النحو التي تضبط اللغة في بنيتها، إذ لا يمكن أن تقوم اللغة بوظيفتها في التواصل إذا لم تكن قواعد نحوها وصرفها قد ضبطت، ولذلك كانت ضروب الأساليب التي ذكرها أبو عبيدة مفتاحا لفهم الإعجاز وخصائص التراكيب البيانية، لأن كتاب الله مليء بها، والجهل بها يحرف الدلالة عن مقاصدها.

ومن هنا وجدنا العلماء يعكفون على دراستها بعد أبي عبيدة مثل ما فعل ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ، فقد درس معاني الآيات البينات في كتابه "تأويل مشكل القرآن" من جهة النظم، وسمى مثل أبي عبيدة كل تغيير في الدلالة مجازاً، واعتبر

---

(1) سورة سبأ، الآية 40.

(2) مجاز القرآن : 105/2.

(3) سورة المائدة، الآية 116.

(4) مجاز القرآن : 184/1.

(5) سورة ق، الآية 16.

(6) سورة البقرة، الآية 169.

(7) مجاز القرآن : 63/1.

التغيير الذي يقع في الدلالة ناتجاً عن زيادة أو حذف، أو تقديم وتأخير، من أجل تقرير معنى، أو توضيح شيء مبهم، أو كشف فكرة غامضة، أو رفع لبس. ولذلك كانت العرب تهذب شعرها وتنقحه، وتعيد النظر فيه من أجل أن يستقيم المعنى وتتضح الرؤيا.

ومما ذكره ابن قتيبة في مجاز القرآن أسلوب التقديم في قوله تعالى : ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** ﴾[1]. جاء التقديم هنا من أجل الزيادة في التوضيح، وبيان القصد من الوعد، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل، فتقول : أخلفت الوعد، وأخلفت الرسل[2]. لكن مزيته في هذا التركيب البياني البديع عن طريق التقديم خاصة هو أن يعلم السامع أن الله لا يخلف الوعد أصلا، فكان ذكر الرسل بعد الوعد من أجل أن يؤذن سبحانه وتعالى أنه «إذا لم يخلف وعده أحدا، وليس من شأنه إخلاف المواعد، كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟»[3].

وأشار ابن قتيبة إلى أسلوب التكرير في القرآن، وذكر أنه جاء من أجل إشباع المعنى، والاتساع في الألفاظ، وهما ظاهرتان متميزتان في أسلوب اللغة العربية. وقد عني العلماء بدراسة التكرير لتحليل خصائصه التركيبية والأسلوبية، ولإظهار ما تختزنه اللغة من قدرات متنوعة في الدلالة والأصوات[4]. ومن تكرير القرآن الذي أشار إليه ابن قتيبة، وقد جاء لأجل الإشباع والاتساع قوله تعالى : ﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾[5]. إن النخل والرمان يدخلان في الفواكه، لكنهما أفردا لمزية خاصة. قال ابن قتيبة : «النخل والرمان من الفاكهة، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما»[6]. ومن الباحثين في المعاني من يرى العطف نتج لاختلاف الفاكهتين في تأثيرهما على الجسم، فالنخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء. وهذا تخريج بديع لما يتوفر عليه أسلوب القرآن من تنوع في الدلالات.

ولكون الغاية الأسلوبية من التكرار في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ هي الافتنان والخروج من شيء إلى آخر أحسن منه كثر تكرارها، وهذا الأسلوب يفضل الأسلوب الذي يقتصر على لون واحد من التعبير. قال حازم : «إذ

(1) سورة إبراهيم، الآية 47.

(2) تأويل مشكل القرآن : 158.

(3) الكشاف : 384/2.

(4) انظر مبحث "التكرير" في كتاب "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع".

(5) سورة الرحمن، الآية 67.

(6) تأويل مشكل القرآن : 187.

المذهب المستحسن في الكلام أن يفتن في ضروب الإبداعات الموقعة فيه، وأن يتوخى في جميع ذلك تناسب الانتقالات وحسن الاقترانات، وكلما كان الكلام مقتصرا به على فن واحد من الإبداعات، وإن كان حسنا في نفسه، لم يحسن لأن ذلك مؤد إلى سآمة النفس، فإن شيمتها الضجر مما يتردد والولع بما يتجدد»[1]. ومن هنا وجدنا تراكيب القرآن تتغير فيها رتبة الاسم أو الفعل أو الحرف لتحقيق غايات أسلوبية كان العرب الأوائل يدركون أسرارها البيانية. قال تعالى: ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة** ﴾[2]. وفي سياق آخر قال تعالى: ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾[3]. وقال عز من قائل: ﴿ **لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل** ﴾[4]. وقوله: ﴿ **لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل** ﴾[5].

هذا التغيير له تأثير على توجيه المعنى لغايات ومقاصد شريفة. قال السكاكي في بيان أهمية التغيير على المعنى في الآيتين الأخيرتين: «ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث، فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد إلى ذكره، فصيره هذا العارض أهم»[6]. بهذه الإشارات وغيرها كان العلماء يدرسون معاني الآيات البينات، وقد وجدوا النظم فيها دقيقا في تركيبه، عميقا في معانيه، منزها من كل عيب في اللفظ والمعنى، ذكر السيوطي خصائص ألفاظ القرآن فقال: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وماعداها وماعدا الألفاظ المتفرعات عنها، والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة»[7].

إن دراسة فقه اللغة من أجل كشف ما تختزنه من دلالات ، وتنوع في التراكيب هي التي هدت الدارسين للتوصل إلى هذه الحقائق، لأن «أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[8].

---

(1) منهاج البلغاء : 61.
(2) سورة القصص، الآية 20.
(3) سورة يس، الآية 20.
(4) سورة المؤمنين، الآية 83.
(5) سورة النمل، الآية 68.
(6) مفتاح العلوم : 239.
(7) المزهر : 201/1.
(8) الخصائص : 40/1.

ولغة القرآن هي اللغة التي كانت متداولة في المجتمع الجاهلي على مستوى الإبداع الأدبي والفكري والتواصل الاجتماعي، وإن معرفة ما تختزنه من قدرة على الاشتقاق لتوليد المعاني يظهر سر عبقريتها وقدرتها على أن تكون لغة الأدب والعلم والإدارة.

قال الخفاجي مشيرا إلى هذه الظاهرة : «إن لفظة "ق ر م" من الثلاثي، لها ستة تراكيب، وهي "ق ر م"، "ق م ر"، "ر ق م"، "ر م ق"، "م ق ر"، "م ر ق". فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد، وهو القوة والشدة، فالقرم شدة شهوة اللحم، وقمر الرجل إذا غلب من يقامره، والرقم الداهية، وهي الشدة التي تلحق الإنسان من أمره، وعيش مرمق أي ضيق، وذلك نوع من الشدة أيضا، والمقر : شبه الصبر، يقال : أمقر الشيء إذا أمر، وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة، ومرق السهم : إذا نفر من الرمية، وذلك لشدة مضائه وقوته»[1].

والعرب بسليقتهم، وفطرتهم السليمة، وذوقهم الرفيع، وبما اكتسبوه طيلة عقود طويلة من الزمن من مهارات لغوية وأدبية في شعرهم وخطبهم قد أدركوا قوانين اللغة إدراكا جيدا، وعرفوا ما يحسن منها في موضع، وما لا يحسن في موضع آخر، وما يتناسب مع سياق، وما لا يتناسب مع سياق آخر. فلذلك كان تمييزهم سليما ودقيقا بين كلامهم وكلام الله، فلاحظوا تفاوتا كبيرا بينهما، واعترفوا بأن كلام الله لم يسمعوا به قط في عذوبته وسلامته وحسنه. جاء في "السيرة" أن علية القوم من قريش اجتمعوا مع الوليد بن المغيرة، وكان ذا سن فيهم، ليحسموا أمرهم في الرسول عليه السلام، فقالوا له : «فقل وأقم لنا رأيا نقول به، فقال : بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا : نقول كاهن، قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا : فنقول : مجنون، قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا : فنقول : شاعر، قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا : فنقول : ساحر، قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة ـ قال ابن هشام : ويقال : لغدق ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»[2].

(1) سر الفصاحة : 200.

(2) السيرة : 1/288-289.

وقد أشار كتاب الله إلى هذا الاضطراب الذي كانوا فيه، فقال عز من قائل : ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج** ﴾[1]. وفي قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك، إنكم لفي قول مختلف** ﴾[2]. وهو اضطراب يبين الحيرة التي كانوا فيها، لأنهم كانوا يعلمون أن القرآن الكريم ليس كلاما عاديا، وأن كل ما قالوا فيه لن يجد قبولا من الناس ولهذا كان عليهم أن يتفقوا على قول قد يكون أقرب لتضليل عامة الناس.

إن نظم القرآن لا يخرج عن أصول نظم اللغة العربية التي كانت لغة القوم قبل مجيء الإسلام، ولذلك فإن أسلوبه بني على أساس قوانين تضمن سلامة تراكيبه، ومنها قانون النحو : «وإذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا تتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه»[3]. كما بني على النمط البياني الرفيع الذي يتجنب كل ما يفسد الأسلوب كالحوشي والغريب والغموض والتنافر والمعاظلة، فاختيرت ألفاظه وتعابيره على أساس مراعاة التناسق فيما بينها وبين الجمل، ولهذه الأسباب أصبحت خصائص الفصاحة والبلاغة تستخرج من آياته البينات. إن قوله تعالى : ﴿ **وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾[7]، جاء أسلوبها في غاية الرصانة، والدلالة على البلاغة الرفيعة التي تراعي سلامة الخطاب والتواصل بين المتكلم والمخاطب، وذلك أن الجمل المؤكدة بـ "إن" جاءت لحاجة سياق الكلام إلى هذا الضرب من الخطاب، إذ لا يمكننا أن نتصور في هذه الآيات سمو المعنى، وقوة تأثيره في المتلقي إيجابا بدون أسلوب التأكيد، والبلغاء الذين ظل أدبهم يتحدى الزمان والمكان، ولم يصب بالابتذال والإسفاف، كانوا يصوغون كلامهم على هذا النمط البليغ، «ويرون سلوك هذا الأسلوب في أمثال هذه المقامات من كمال البلاغة، وإصابة المحز»[8].

---

(1) سورة ق، الآية 5.

(2) سورة الذاريات، الآيتان 7-8.

(3) دلائل الإعجاز : 23.

(4) سورة يوسف، الآية 53.

(5) سورة هود، الآية 37.

(6) سورة التوبة، الآية 103.

(7) سورة الحج، الآية 1.

(8) مفتاح العلوم : 172.

هكذا يوجه أسلوب القرآن البلغاء شعراء وكتابا ومترسلين إلى طريقة اختيار كلامهم على وجه الصحة كما تقتضيه الفطرة السليمة تركيبا ومعنى وتواصلا.

وتبلغ تراكيب القرآن مبلغا كبيرا في دقة المعاني، وفي الحرص على سلامة الأسلوب، ليتوفر له كمال البيان مبنى ومعنى في أساليب لا يدرك غاياتها ومراميها إلا البلغاء، من ذلك الأسلوب الذي يحتاج لتأكيد أو عدمه بناء على وجود قرائن تعرف من السياق، ومثل هذه الأساليب تقوي ملكة البيان في الموهوبين وترشدهم إلى سلوك نهج المتفوقين في البيان، كقوله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم** ﴾[1] دقة التركيب، وسلامة المعنى في هذه الآية الكريمة تبدو في طريقة الجواب، ففي الجواب الأول وردت الصيغة خالية من التأكيد، وفي الثاني جاءت مؤكدة، وهنا يكمن السر في التركيب البياني، فما هو ؟ إن أسلوب الآية راعى المقام، وهو حال من جاء الخطاب على لسانهم، وهم المنافقون الذين تجدهم في كل مجتمع يسعون إلى هدم أسسه وأخلاقه وقيمه بأقوالهم وأفعالهم ودسائسهم الخبيثة، فذكر القرآن جانبا من سلوكهم المشين ليحتاط المسلمون من أفعالهم الظاهرة والخفية. إن الآية تصف الأحوال النفسية، والسلوك الشاذ لفئة من المنافقين في عصر الدعوة الإسلامية، امتلأت قلوبهم بالضغائن والأحقاد على المسلمين، ولكونهم يخفون هذه المظاهر جاء الأسلوب مختلفا في سياق واحد حيث كان خطابهم للمؤمنين مختلفا عن خطابهم لإخوانهم الشياطين، فهم إذا لقوا المؤمنين قالوا : ﴿ **آمنا** ﴾ ـ بغير تأكيد ـ وهذا الأسلوب دال على ضعف اعتقادهم وتخاذلهم في مواقفهم مع المؤمنين. أما إذا لقوا أمثالهم من المنافقين الذين هم على مذهبهم في الحقد والكراهية وبغض المسلمين والإسلام فإن جوابهم كان بالتأكيد ـ ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ ـ وهذا يظهر بشكل جلي ما في قلوبهم من نفاق وضعف في الإيمان، وتخاذل في نصرة الإسلام. إن التأكيد وعدمه قد روعي فيه المقام ونوع الخطاب، ولو جاء التأكيد في الموضعين أو خلا منهما معا لكان التركيب غير معبر بدقة عن أحوال القوم، وملابسات سلوكهم فعلا وقولا في الظاهر والباطن، وكتاب الله منزه عن العبث في المعاني والأغراض.

إن فهم أسلوب القرآن يحتاج إلى استحضار كل الوسائل التي ترتبط بسلوك القوم، ومواقفهم من الرسول عليه السلام، وبالأحوال الاجتماعية والفكرية السائدة في المجتمع آنذاك، وبما كان يصدر من مكر وخداع من الحاقدين على الإسلام.

---

(1) سورة البقرة، الآية 14.

وقال تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرا** ﴾[1]. المعنى في قوله تعالى : ﴿ **كأن لم يسمعها** ﴾، و﴿ **كأن في أذنيه وقرا** ﴾ واحد، وهو الإخبار بتأكيدين، وإن كان المعنى الثاني آكد من الأول. والمقصود هو بيان أن تلاوة الآيات البينات ليس لها فائدة أو تأثير على الذين يصرون على الكفر، ويمعنون في الضلال. فهذه الجماعة لم تفتح قلوبها لهذا النور، ولم تتهيأ لبحث ما فيه من معان، فلذلك شبهوا وهم على هذه الحالة بمن في آذانهم وقر يحجب كل شيء يمكن أن ينفذ إليها، فكيف يتدبرون نور الآيات البينات، وهم على هذه الحال ؟

وإذا كان المعنى في الجملتين يحقق هذا الغرض فإن البلاغة تقتضي أن لا تكون الجملة الثانية معطوفة على الأولى، لأن التأكيد يزيد في بيان المعنى، وهو الإصرار على الكفر، والإمعان في الضلال. ولو ارتبطت الجملتان بالواو لما كان للمعنى الذي أشارت إليه الآية أثر، فيكون التشبيه الثاني زيادة وتكرارا غير مطلوبين.

وإثبات الواو وحذفها في الآيات البينات له شأن عجيب في تصحيح المعاني، ولذلك ينبغي تدبرها بإمعان لبيان ما اشتمل عليه كتاب الله من سمو في البيان والإعجاز، فقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾[3] نرى حذفا في الأولى، وإثباتا في الثانية، وليس هناك عبث وإنما جاء الحذف والإثبات لتأكيد معنى جدير بالبيان القرآني الذي سما على سائر الأساليب. قال أبو علي الفارسي : «أقول في قوله تعالى : "فتحت" بغير واو، وإنما ذلك لأنها مغلقة، فكان مجيئهم شرطا في فتحها، فقوله "فتحت" فيه معنى الشرط. وأما قوله : "وفتحت" في الجنة بالواو فهذه واو الحال، كأنه قال : جاؤوها وهي مفتحة الأبواب، أي هذه حالها».

وقد علق السجلماسي على هذا التخريج البديع، فقال : «وهذا قول في غاية الحسن، صادر عن تحقيق مثل أبي علي، ويشهد له أمران، أحدهما : العادة المطردة شاهدا في إهانة المعذبين بالسجون من إغلاقها حتى يردوا عليها، وإكرام المنعمين بإعداد فتح الأبواب لهم مبادرة واهتماما، والثاني : النظير من قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** ﴾»[4].

(1) سورة لقمان، الآية 7.

(2) سورة الزمر، الآية 71.

(3) سورة الزمر، الآية 73.

(4) المنزع البديع : 191.

هذه البلاغة الرفيعة، والبيان السامي، والإعجاز المطلق هي التي جعلت عالما بيانيا أدرك الأسرار في أساليب العرب وأسلوب القرآن، وهو الجاحظ، يقول : «ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها»[1].

إن تنوع الأساليب في كتاب الله تقريرا وإثباتا ونفيا ظاهرة متميزة، ومن هنا يكون البحث في طريقة إفراغ المعاني سبيلا لفهم صحة التركيب في الأسلوب القرآني.

ومن الآيات التي خاطب بها الله سبحانه وتعالى رسله الكرام بأسلوب التأكيد، والرسل لا يحتاجون إلى تأكيد، لأنهم مختارون من صفوة الناس، يؤمنون بوحدانية الله، ولا يترددون في تبليغ رسالاته كما أمروا، ولذلك يكون القصد من التأكيد هو حث الرسل على الصبر، وتثبيت فؤادهم ليتحملوا أثقال الدعوة التي تكون مصحوبة دائما بإذاية الأشرار بلسانهم وأفعالهم وسلوكهم الشاذ الذي لم يسلم منه الرسل منذ بدء الخليقة إلى خاتم الرسل محمد عليه السلام. قال تعالى : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾[2].

إن الرسل لا ينتابهم أدنى شك في وجود الله، ووحدانيته، وقدرته، وفي وجوب عبادته وطاعته في كل ما أمر به، وهم خير من عبد الله، كانوا دائمي الذكر والخشية والطاعة، لم تلههم تجارة، ولا لهو ولا سلطان ولا جاه ولا عرض من أعراض الدنيا عن عبادة الله. والبحث في سر هذا الخطاب يقتضي مراعاة المقام، والظرف الذي قيل فيه، ولعل أول ما يراعى هو الإحساس بخلق الشعور بالاطمئنان، والثقة بالنفس في موضع الاضطراب النفسي حين تضيق السبل، ويبدو المخرج منها شبه مستحيل. وهنا يكون خطاب التأكيد عاملا مساعدا على تثبيت العزيمة، وتقوية الإيمان، وتوطيد النفس في المضي على النهج القويم، والثبات على المبدأ السليم، والتشبث بكلمة الحق التي تعلو فوق كل باطل مهما طال، لأن العسر يعقبه يسر مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا** ﴾[3]. والله بالغ أمره، وناصر من يستمسك به، ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾[4].

(1) دلائل الإعجاز : 194.

(2) سورة طه، الآية 14.

(3) سورة الشرح، الآيتان 5-6.

(4) سورة الضحى، الآية 3.

وكذلك حقق أسلوب التأكيد هذه الغاية النبيلة في قوله تعالى : ﴿ **إني أنا الله رب العالمين** ﴾[1]. وقوله تعالى : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾[2]. هذا الخطاب التأكيدي يقوي الإيمان بالله، ويزيد المخاطب شجاعة وقدرة على التحمل والصبر لا سيما في موضع الهول الذي يفقد فيه الإنسان كل توازن في التفكير والسلوك، فيعلم أن وراءه قوة لا تغلب ولا تقهر تقف بجانبه تعينه وتأخذ بيده في كل الظروف والأحوال، إنه الله رب العالمين القاهر فوق عباده، من بيده الخير، وإليه المصير، لا يرد دعوة مظلوم، ولا يعين ظالما.

وقد ازداد الخطاب في الآيتين الكريمتين قوة بعاملين أساسيين، الأول : أن موسى عليه السلام كان في موضع الشعور بالخوف الشديد، والقلق النفسي الحاد، وقد أحاط به الشر من كل جانب. والثاني : وجود لفظ "الأعلى" الذي أضفى على التعبير قوة لا حدود لها لطمأنة موسى عليه السلام، ووعده بإحراز النصر والغلبة.

ومن سمات عبقرية اللغة العربية أنها تحقق مثل هذه الزيادة والإشباع في المعاني بغير التعبير التأكيدي حيث تتسع الدلالات بأسلوب الإيجاز خاصة، كما نجد في قوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾[4].

إن المتقين مهتدون أصلا بتقواهم وسلوكهم وخشيتهم ربهم في السر والعلانية، ولكن الآية الكريمة تشير بصياغتها إلى الزيادة فيما هو ثابت عندهم، وهذه رحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين المخلصين حيث يزيد في تقواهم وهداهم لينالوا رضوانا أكبر، ورحمة واسعة من الله، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[5].

إن وجوه النظم في القرآن تأخذ أبعادا متعددة وطرقا كثيرة، وكلها تحقق الإحسان، والسلامة في المباني والمعاني في كتاب أحكمت آياته لتكون نورا تهتدي به الإنسانية في كل زمان ومكان. إن أسلوبه المتكامل في خصائصه البيانية والتركيبية، والمعبر عن أسرار القدرة الإلهية المتحكمة في كل شيء وهي قدرة لا تحد بحد ولا تقف عند زمان أو مكان، تظهر مزاياه في كل تركيب وتعبير، ولذلك تجد هذا الأسلوب يتحدى

---

(1) سورة القصص، الآية 30.

(2) سورة طه، الآية 68.

(3) سورة البقرة، الآية 1.

(4) سورة الفاتحة، الآية 5.

(5) سورة الأنبياء، الآية 107.

كل المدارس اللغوية والأدبية والأسلوبية في عصرنا الحديث، لكونه يختزن محاسن وأسرارا مازالت الأبحاث تكشفها وتجليها، فإذا نظرنا إلى طريقة الإسناد في قوله تعالى : ﴿ **وفجرنا الأرض عيونا** ﴾[1] فإننا نجد الأسلوب الإلهي الشمولي في معانيه معبرا عن هذه القدرة المحيطة بكل شيء، منها ما هو ظاهر للعيان لا يحتاج إلى دليل وبرهان، ومنها ما ندركه بالتفحص الدقيق، والرؤية العميقة في العلاقات المترابطة والمتشابهة بين المخلوقات في هذا الكون الذي ترعاه عناية إلهية أحكمت كل شيء. إن الأرض على امتدادها، واختلاف تضاريسها من سهول وجبال وصحاري صارت بهذا التركيب المعجز عيونا متفجرة لا تتوقف ولا يغيض ماؤها، ينبع في كل موضع منها ليعيد الحياة والشباب والنضرة والسرور للكائنات الحية، وبذلك تستمر الحياة التي أوجدها الله لغاية نبيلة وهي إسعاد المخلوقات. وهذا من شأنه أن يجعل الكائنات تشعر بالأمن والاطمئنان لأنها ترى سر استمرارها ووجودها في هذا النبع الدافق، رحمة من الله بعباده. كما دل هذا الإسناد على القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وعظمته التي أحاطت بكل ما في هذا الوجود، لأنه المالك لهذا الكون، يتصرف فيه كيف يشاء إبداعا وإحسانا وتدبيرا، لا يعلم كنهه وأسراره إلا هو. وفي هذا الإسناد يتحقق وعد الله لمخلوقاته، وعدله المطلق، فهو الرزاق والمانح والمعطي، ولذلك أوجد في كل مكان أسباب الحياة حفاظا على بقاء الكائنات واستمرارها حتى يأذن سبحانه وتعالى بفناء هذا الوجود. وبما أن الماء هو العنصر الأول والأساسي في الحفاظ على مقومات الحياة، فإننا نجد الله سبحانه وتعالى يذكره في آيات كثيرة، ليدرك عباده أثر هذه النعمة عليهم. قال تعالى : ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾[6]،

(1) سورة القمر، الآية 12.
(2) سورة الأنعام، الآية 100.
(3) سورة الرعد، الآية 19.
(4) سورة إبراهيم، الآية 34.
(5) سورة النحل، الآيتان 10-11.
(6) سورة الحج، الآية 5.

وقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض يخرج به زرعا مختلفا ألوانه** ﴾[1].

وآيات كثيرة جليلة وعظيمة ذكرت أثر هذه النعمة على المخلوقات، وهي جزء ضئيل من نعم الله سبحانه وتعالى التي لا تعد ولا تحصى. ولذلك تجد هذه النعمة لا يخلو منها مكان يمكن أن تكون فيه حياة. ففي الصحاري واحات، وفي الأراضي المقفرة الجرداء تجد مواضع يتفجر منها الماء الزلال، فتنشأ الواحات الوارفات الظلال، والجنان والرياض، وتخضر الأرض الموات، فتبدي زينتها، وبديع منظرها، وهذا عدل من الله سبحانه وتعالى لأنه لم يحرم الإنسان وكل الكائنات الحية من أسباب الحياة في أي مكان برغم اختلاف المناخ والتضاريس والتربة. وليست العبرة بالنظر إلى قلة هذه النعمة في هذا المكان وكثرتها في ذاك، وإنما الغاية هي أن ينظر الإنسان إلى وجودها، ومقدار نفعها، وكيف تسهم في الحفاظ على حياته. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار». ولذلك تجد الأمم والشعوب ـ بعدما أدركت قيمة الماء، وأهميته في حياتها ومستقبلها ـ تسعى إلى حماية ثرواتها المائية، وتحافظ عليها، وتفكر في منابع الماء، لأنه الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الحياة، وتعمل على استخراجه ومعالجته وتصفيته. ويرى الباحثون أن الصراع بين الأمم في المستقبل سيكون على الثروة المائية دون باقي الثروات الأخرى، وقد بدأت بوادر هذا الصراع تظهر في جهات متعددة من العالم.

هكذا نرى الأسلوب القرآني يقف ببيانه المتلألئ العقود والمتفرد بالبدائع عند الدلالات العميقة لإبراز أسرار الوجود، ونظام الكون، والغاية من إيجاد الكائنات الحية، وإلى طريقة الحفاظ عليها من أجل تماسك المجتمع واستمراره، وهي الغاية النبيلة التي تحمل الإنسان مسؤوليته فيها في هذه الحياة الدنيا، لأن العمل الصالح جزء من عبادة الله، وامتثال أوامره، إنها سنة الله في الكون، ولن تجد لسنته تبديلا، ولذلك تظل الغاية من تحليل أسلوب القرآن السامي هي السعي للإحاطة بأسرار الوجود، وعجائبه التي تبرهن على قدرة الله التي لا تحدها حدود.

إن أسلوب القرآن بهذه الدلالات والأسرار العميقة في الحياة والوجود حير البلغاء والفصحاء في عصر البيان، ومازال يحير الأدباء والأسلوبيين والعلماء في عصرنا الحاضر بما تضمن من إشارات خفية بالغة الدلالة في بيان سر تكوين الطبيعة

---

(1) سورة الزمر، الآية 21.

والكائنات الحية. والعلم برغم ما حقق من إنجازات باهرة على جميع المستويات مازال عاجزا عن تعليل الكثير من ظواهر الطبيعة، وسلوك الكائنات الحية، وتفاعلها مع محيطها. والنظر في أسلوب القرآن عبارة عبارة، وجملة جملة، وصياغة صياغة، هو المفتاح لتدبر معاني هذه الإشارات الكونية الدقيقة، وهي إشارات تدفع العقول للتدبر فيها بعقل متفتح، وبصيرة نافذة في حقيقة الأشياء، كقوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون** ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[4].

هذه الآيات البينات وغيرها دلت دلالة قوية على أن الكون مليء بالأسرار والخوارق التي يعلم الله سر تكوينها وعملها، لكن ينبغي على الإنسان استعمال عقله وفكره وبصيرته ووجدانه ليعرفها وينتفع بها في حياته، ثم يقر من خلالها بعظمة الخالق الذي أحكم كل شيء. وغايتنا من هذه المباحث هي التعرف على الخصائص البيانية في كتاب الله تاركين الإشارات العلمية لذوي الاختصاص في العلوم الدقيقة الذين لهم القدرة على الربط بين الحقائق العلمية، وبين الآيات البينات التي أشارت إليها.

ومن الأساليب في كتاب الله التي تكشف أسرار البيان الأسلوب الذي يأتي مفسرا بعد الإضمار، حيث يكون الإضمار بمثابة التنبيه والتقدمة للشيء، وهذا التركيب يجعل السامع متهيئا لمعرفة النتائج فيحصل عنده بعد التفسير ارتياح واطمئنان، ولهذه الغاية تجد خصائصه الأسلوبية تجمع بين التلويح والتصريح، وبين الإجمال والتفصيل، وهنا يكمن السر في روعة أسلوبه، وفخامة بيانه، لأن مجيء التصريح بعد التلويح يستدعي تطلعا زائدا للأمر، وتشوقا لمعرفته، وقد حقق به البلغاء معاني طريفة، وصورا بديعة أداء وتخييلا ومحاكاة، ولهذا قالوا : «إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك

(1) سورة آل عمران، الآية 190.

(2) سورة الأنعام، الآية 128.

(3) سورة إبراهيم، الآيات 34-36.

(4) سورة الذاريات، الآيتان 20-21.

أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار»[1]. ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار** ﴾[2]، وقوله: ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾[3]. لقد بلغ الإضمار في هذا التركيب مبلغا عظيما في الدلالة، وفيما أحدثه من أثر نفسي على المخاطبين، لأن في الضمير إبهاما يجعل السامع يتطلع إلى مغزاه، ثم يأتي بعد ذلك سر دلالته حيث ينتقل عمى العيون إلى عمى القلوب الذي لا يفلح معه المجرم مهما بذل من جهد وسعي لكونه أخطأ الطريق الذي يبلغه مأمنه وفلاحه. والعربي الفصيح الذي يعرف أسرار الكلمة البليغة، وما يطرأ عليها بالحذف أو الإثبات، أو التلويح والتصريح يدرك أن تغيير هذا الأسلوب بحذف الضمير يخرج الكلام من الإحسان الذي أفرغ فيه إلى الكلام العادي الذي لا تتعلق به الأطماع، ولا يتسابق إليه ذوو الهمم، فإذا قيل: إن الأبصار لا تعمى، وإن المجرم لا يفلح، فإن التعبير يفقد التلويح والتصريح اللذين من أجلهما اكتسبا إحسانا وتفوقا. وهذا جزء من الأسرار البيانية التي كان العربي يقف أمامها حائرا ومتعجبا من أسلوب وسياق وتركيب يشبه كلامه لكنه عاجز عن الإتيان بمثله، وكم من الشعراء الفحول انصرفوا عن قول الشعر بعد سماعهم بيان القرآن السامي.

ومن خصائص نظم القرآن المتميز أننا نجد الكلمة تكرر أو تحذف، فإذا بحثنا سر التكرار أو الحذف وجدنا الأسلوب لا يستقيم إلا على الصورة والهيئة التي أفرغ فيها. قال عز من قائل: ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾[4]، في هذا التعبير القرآني محذوفات أشار إليها العلماء وهي ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم.

ولبيان أن الزوائد حذفت لاعتبارات نظمية، نذكر منها أن بعض المحذوفات يكون القصد منها جعل المخاطب يعول على شهادة العقل بدل شهادة اللفظ، وكم بين الشهادتين من فرق يدركه العقلاء وأصحاب البيان! والأسلوب القرآني في هذه المحذوفات قد نحا هذا المنحى البليغ الذي يعتمد شهادة العقل قبل شهادة اللفظ، لأنه كلام يخاطب العقول اليقظة، والقلوب الواعية، والنفوس المطمئنة.

أما إذا كان الذكر والتصريح في بعض المواطن يفيد ما لا يفيده الاختصار والحذف فإن التعبير القرآني يأتي حافلا بالتكرار، لأن فائدة الزيادة تكون لغاية لعل أبرزها تثبيت المعنى، أو إيضاحه، أو الترغيب فيه، وهذه مقاصد بيانية جليلة، وأهداف

---

(1) دلائل الإعجاز: 102.

(2) سورة الحج، الآية 46.

(3) سورة يونس، الآية 17.

(4) سورة النحل، الآية 9.

شريفة ونبيلة يسعى إليها كتاب الله في آيات كثيرة، كقوله تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾[1]. إن الإضمار في هذه الآية لا يفيد المعنى مثل ما أفاد التصريح، لأن القصد هو تمكين الدلالة في ذهن السامع، وفي هذه الحالة يحسن تكرار اللفظ والمعنى معاً.

وكذلك تجد هذا القصد البياني في قوله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[2]. إن تكرار "العمى" من شأنه أن يمكن المعنى في ذهن المتلقي، بحيث يجعله يميز بين عمى القلوب الذي هو ضلال وخذلان وخسران مبين، وبين عمى الأبصار الذي هو آفة حسية قد يكون ضررها مؤثرا في نفسية الفرد لكنه أقل من الآفة المعنوية التي هي خسران في الدنيا والآخرة. ولهذا تجد الكثير ممن فقدوا حاسة البصر قد فتح الله بصيرتهم بالعلم والتقوى والهدى، وأفادوا الناس في دينهم ودنياهم. أما الذين عميت بصيرتهم فلم يصدر منهم إلا الخذلان والخسران الذي أضرهم وأضر غيرهم. ومن لطف تراكيب "النظم" في القرآن الصيغ التي جاءت فيها الألفاظ نكرة كقوله تعالى : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[4]، وقوله، وهو أصدق القائلين : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[5].

إن الألفاظ التي وردت نكرة في هذه الآيات البينات وهي "حياة" و"شفاء" جاءت مراعية لقانون البلاغة الذي أجهد العرب أنفسهم في ضبطه لتكون لغتهم لغة البيان. إن النكرة في تراكيب اللغة العربية تفتح مجالا رحبا لتأويل المعاني بخلاف المعرفة التي تحدد الشيء وتقيده، فلا يجد الفكر حرية في الاتساع في المعاني والتأويل والاستنباط. ولفظة "حياة" التي جاءت في سورة "البقرة" ارتبطت بظاهرة اجتماعية لها دلالة كبيرة في استقرار المجتمع وأمنه وتماسكه وذلك أن القصاص يجعل كل فرد يفكر فيما سيكون عليه حاله لو أقدم على قتل إنسان بريء، والمجتمع الذي لا يحميه قانون هو عبارة عن غابة ممتلئة بالوحوش، يفترس فيها القوي الضعيف بدون رحمة، لذلك كان قانون القصاص الإلهي أسمى قانون تسعد به البشرية، وتحقق به وجودها الإنساني.

---

(1) سورة الإسراء، الآية 105.

(2) سورة الحج، الآية 46.

(3) سورة البقرة، الآية 95.

(4) سورة البقرة، الآية 179.

(5) سورة النحل، الآية 69.

والبحث في هذه اللفظة النكرة ضمن قانون القصاص يقود الأفراد والجماعات إلى الإحساس بالأمن الشامل، والاستقرار المطلق، والشعور الفياض بالأمل في المستقبل، هذا الشعور والإحساس يدفعان المرء إلى الثقة بالنفس تجعله ينصرف إلى البناء والإعمار في مجتمع يشعر فيه أنه يوفر له الأمن لنفسه وأسرته وممتلكاته، فلا يخشى ظالما أو طاغيا مهما بلغت سطوته وجبروته. وبهذا القانون يتجلى عدل الله المطلق الذي يتساوى فيه الناس جميعهم، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، شريفهم وحقيرهم، إنه العدل الذي يحقق به الإنسان وجوده باعتباره خليفة الله في الأرض، والخلافة مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، تتمثل في الاستقامة على التقوى والهدى والصلاح الذي أمر به الشرع، والقيام بالواجب الديني الذي ينال به العبد رضى الله، ويسعد به نفسه ومجتمعه. وقانون القصاص الإلهي هو ما تسعى إلى تحقيقه الأمم المتحضرة في عصرنا الحديث على اختلاف معتقداتها ومذاهبها السياسية والفكرية. إن دساتير هذه الأمم، ونظمها الاجتماعية والاقتصادية تنادي بسلطة القانون الذي يعلو فوق جميع الناس، حكاما كانوا أو محكومين، من أجل إيجاد الاستقرار في مجتمع يشعر فيه المستضعفون بالأمن. هذا هو القانون الذي يكسر شوكة الحكام الطغاة، والجماعات المتمردة التي تسعى لتحقيق المكاسب المادية والسياسية بقتل الناس.

إن النظم في القرآن تعبير سليم، وصياغة محكمة، ومعان بالغة الدلالة في تهذيب النفس، ونشر المحبة والتسامح والوئام، وتحقيق العدل شريعة وقانونا وسلوكا. والمتأمل في كل عبارة وصياغة من آيات الكتاب المحكم يرى نسقا منتظما، ورونقا عجيبا، وبهاء مشرقا، ورصفا بديعا، وسموا باهرا، «وأنه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله، ولا تأليف سورة منه، أو آية بقدر سورة»[1] إنه التعبير الذي تنقطع فيه الأطماع، «وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز»[2].

إن تراكيب كلام الله بقدر ما تحتاج لفهمها إلى المعرفة بقواعد النحو، وفنون البلاغة وهما عماد النظم وأساسه، فإنها تحتاج كذلك إلى ذوق مهذب، وطبع سليم، وفكر نير قادر على التمييز بين الحسن والأحسن، والجيد والأجود، وهو السبيل الذي مهد لعلمائنا القدامى كشف درر البيان العربي، وأسرار كلام الله المعجز، «ولا بد مع ذلك من الذوق الصحيح، والفكر المائز بين ما يناسب وما لا يناسب، وما يصح وما لا يصح

(1) نكت الانتصار لنقل القرآن : 59.

(2) دلائل الإعجاز : 29.

بالاستناد إلى تلك القوانين على كل جهة من جهات الاعتبار في ضروب التناسب. وغير ذلك مما يقصد تحسين الكلام به»[1].

والدارس لتطور الأساليب على المستوى الدلالي والتركيبي والصوتي لا يمكنه بأي حال من الأحوال إغفال نظم القرآن لمعرفة الخصائص التركيبية في اللغة العربية. كما أن الدارس للظواهر الطبيعية، وما يحدث فيها من تغيير منتظم لا يمكنه أن يغفل الإشارات التي ذكرتها الآيات البينات لدعوة كل ذي عقل لاستحضار عقله وفكره وبصيرته من أجل إدراك أسرار هذه المخلوقات.

إن الدول العربية والإسلامية، وهي تسعى في المرحلة الراهنة إلى تحقيق نهضة فكرية وعلمية تخرجها من التخلف، وتجعلها تواكب التطورات العلمية الحديثة، لا يمكن لها أن تصل إلى هذا الهدف بدون العناية بكتابها المحكم، تتدبر معانيه الداعية إلى اكتساب المعرفة، وتدرس لغته التي اكتملت لها المواصفات العالية في الجزالة والفصاحة والبيان، لتكون لغة الدرس الأدبي واللغوي والعلمي مثل ما فعل أسلافنا في عصر الدولة العباسية حينما كانت الأمة ترى في دينها ولغتها وتاريخها العروة الوثقى التي تحميها من الضياع والتفكك. ورحم الله الأديب العبقري عباس محمود العقاد الذي نبه الناس في مرحلة مبكرة إلى ما تتعرض إليه اللغة العربية من دسائس ومكائد لطمسها، لكونها تحمل بين جنباتها ثقافة أمة وفكرها وتاريخها المجيد، والقضاء عليها هو قضاء على أمة بأكملها، فقال : «ومن واجب القارئ العربي إلى جانب غيرته على لغته أن يذكر أنه لا يطالب بحماية لسانه ولا مزيد على ذلك، ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال»[2].

---

(1) منهاج البلغاء : 35.

(2) اللغة الشاعرة : 9.

المبحث الرابع

إعجاز القرآن من خلال نظرية "النظم" عند عبد القاهر الجرجاني[1]

«وهل عجب أعجب من قوم عقلاء يتلون قول الله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[2]، ويؤمنون به، ويدينون بأن القرآن معجز، ثم يصدون بأوجههم عن برهان الإعجاز ودليله، ويسلكون غير سبيله»[3].

لم يؤثر كلام في الفكر الإنساني على الإطلاق من حيث الدعوة لتحرير العقل من الجمود، وتكريم الإنسان باعتباره أسمى مخلوق في الوجود عقلا وقدرة على تحمل المسؤولية مثل أسلوب القرآن الكريم الغني بالدلالات والمعاني، وأسرار الكون، وخبايا النفس، وأخبار الغيب، وحوادث الأمم الغابرة، لتكون موعظة لكل عبد منيب. لقد فتحت آياته البينات عقول الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم وأمزجتهم، ليتأملوا أسرار الوجود، وعجائبه الدالة على وحدانية الله وقدرته وسلطانه المطلق :

وفي كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

إنها أسرار تدعو كل ذي عقل أن يتدبرها ليستخلص العبر والحكم من غاية وجودها في هذا الكون المترامي الأطراف، المتعدد الأصناف، المحكم في خلقته وإبداعه. كما هدت هذه الآيات البينات الإنسان للنظر في القضايا التي كانت تشغل باله في الاستقرار والأمن، والعلاقات الاجتماعية، والمؤسسات الفكرية والحضارية، لأن الإسلام دين السلم والأمن والتعايش مع الجماعات على أساس تبادل المصالح بالحكمة والعقل والتبصر في

---

(1) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، من أعلم زمانه باللغة والنحو وفنون البلاغة؛ من أشهر كتبه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، توفي سنة 471هـ.

(2) سورة الإسراء، الآية 88. والظهير : المعين.

(3) دلائل الإعجاز : 282.

الأمور التي تعين على الاستقرار والأمن والتعاون، ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[1].

لقد تمعن المسلمون في معاني كتاب الله بالعقل والحكمة والإيمان القوي، فأبدعوا تراثا إنسانيا، عميقا في قضاياه ومضامينه، محكما في قوانينه وتشريعاته التي تنظم العلاقات بين الإنسان وخالقه، وبين أفراد المجتمع الإسلامي وغير الإسلامي. لقد حمل هذا التراث عطر القرآن الفواح، وسنة المصطفى عليه السلام، وسيرة الصحابة الأجلاء؛ إنه تراث خالد، يضئ للإنسانية على مر السنين سبيل الخير والأمن والاطمئنان الروحي والمادي. ومن مبدأ اتخاذ آيات الله منطلقا في التوجيه السديد، والتفكير القويم، والقدوة الصالحة، وجد الدارسون على اختلاف اتجاهاتهم وميولاتهم ما يغذي عقولهم، ويشبع نهمهم في العلم والتفكير والتحصيل، ويطمئن قلوبهم في البحث عن الحقيقة التي هي ضالة كل مؤمن.

وما يهمنا هنا في مباحث علوم القرآن وأثرها على الدراسات الأدبية والفكرية هو الأثر الإيجابي الذي أحدثته في تطوير الدرس البلاغي والبياني والأسلوبي عند أبرز أعلامه، وحامل رايته، الشيخ عبد القاهر الجرجاني، إمام الأسلوبيين والنحويين في عصره، وبعد عصره. إن علماءنا القدامى توصلوا إلى حقيقة لم يعد فيها مجال للشك وهي أن خصائص البيان لا تظهر بشكل جلي إلا من الدراسة التحليلية والعميقة للشعر العربي القديم، ولآيات القرآن الكريم التي جاءت بلسان عربي مبين. وبدون هذين المصدرين لا يمكن معرفة أصول البيان العربي، والبيان القرآني، وسر تفوقه تركيبا ودلالة وتصويرا على كل بيان. وإذا كان القرآن الكريم قد جهر بتحدي جهابذة البيان فإن العلماء في عصر التدوين اجتهدوا في أن يثبتوا هذا التحدي بالأدلة القاطعة التي لا يبقى معها تردد أو شك أو جحود؛ ولذلك كانت غايتهم الأولى في الدرس البلاغي هي إبراز مكامن أسرار إعجاز القرآن، وتحديد سمات تفوقه، هل تنحصر في المعنى أم في اللفظ أم في التركيب أم فيما أوضحه من أسرار الغيب، وأخبار الأمم البائدة التي كان العرب يسمعون عنها ولا يعرفون عن أحداثها شيئاً ؟

وهذه المباحث متفرقة أو مجتمعة هي التي تهدي إلى معرفة أسرار الإعجاز. وفي عصرنا الحاضر بعد ما تطورت الدراسات الأسلوبية وارتبطت بعلوم حققت تقدما، نجد أنفسنا في أمس الحاجة إلى المناهج العلمية الدقيقة التي تقربنا من أسرار إعجاز

(1) سورة النحل، الآية 125.

القرآن، وسمو بيانه. ولعل المنهج الذي اعتمده عبد القاهر ـ وإن كانت تفصلنا عنه قرون ـ يهدينا إلى الكثير من الرؤى والتصورات والحقائق البيانية العميقة في تراث العرب، وفي آي القرآن الكريم، لأن عبد القاهر كان من العلماء القلائل الذين أعجبوا إلى حد الانبهار بالبيان العربي عامة، وبيان القرآن الكريم خاصة، فاجتهد لكشف جوانبهما الخفية التي لم يهتد إليهما المتقدمون والمعاصرون له حتى عده بعض الباحثين العالم البياني الذي يفصل بين عصر التنوير، وعصر الجمود : «وبعد عصر عبد القاهر خمدت جذوة الفكر في أمة المسلمين، وانقطع تيار التدفق، فعادت الأمة إلى نفسها تجتر الماضي الزاهي»[1].

وبالرغم مما في هذا الرأي من مبالغة[2]، فإننا نعد عبد القاهر أحد رواد الدراسات الأسلوبية في القرن الخامس الهجري، وأحد الأعلام الذين اعتمد عليهم الباحثون في عصر النهضة الحديثة لإحياء الدرس الأسلوبي والبلاغي مما ران عليه من جمود في مرحلة ركود العقل العربي. لقد أرسى بكتاباته الرصينة قواعد البيان، وبعقله النافذ، وبصيرته المتيقظة، وحسه البالغ بأثر الكلمة، كشف جوانبه الخفية. وبرغم ما وهبه الله من قدرة على ذلك فقد استعان على بلوغ غايته بأشعار بليغة من دواوين الفحول لتكون شاهدا على ما وصل إليه نظم القرآن من سلامة وحسن وتمكن لا تجدها في أشعار الفحول، قال : «أوردته[3] لأعرف به مكامن بلاغة، وأجعله مثالا في براعة، أو أحتج به في تفسير كتاب وسنة، وأنظر إلى نظمه ونظم القرآن، فأرى موضع الإعجاز، وأقف على الجهة التي منها كان، وأتبين الفصل والفرقان»[4].

وإذا كانت فئة من العلماء قبل عبد القاهر قد نحت في بيان إعجاز القرآن طرقا وأساليب متعددة، جمعت فيها بين البحث في الأسلوب، والأخبار الغيبية، والمعجزات الخارقة التي حقق الزمان صدقها، فإن عبد القاهر ركز على دقة التركيب من جهة النظم خاصة، لأن هذا الجانب في اعتقاده هو الذي حير جهابذة القول من بلغاء قريش. كما كان يعتقد اعتقادا جازما بأن تذوق أسرار العبارة القرآنية، ومعرفة غاياتها ومقاصدها،

---

(1) دلالات التراكيب : 24.

(2) وذلك أن الدرس الأسلوبي والبلاغي بعد عبد القاهر لم يصابا بالجمود المطلق، فقد ظهرت مؤلفات لا تقل في عمق مباحثها عما كتبه عبد القاهر، مثل مؤلفات الزمخشري، وابن الأثير، وحازم القرطاجني، والسجلماسي، وابن البناء المراكشي، والشريف السبتي.

(3) الضمير يعود على الشعر.

(4) دلائل الإعجاز : 22.

ومراميها القريبة والبعيدة، هو الطريق إلى الإيمان الصادق الذي تطمئن به القلوب. ولا يمكن أن يحصل هذا التأثير بدون معرفة «وذلك أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها، وأنوه لها، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعا، وكوكبها طلوعا»[1].

إذن أين يكمن الإعجاز من خلال نظرية النظم ؟

إن السمة التي تميز الكتاب العزيز هي الإعجاز المطلق، والبحث في خصائص الإعجاز يقتضي المعرفة الشاملة بتراكيب الفصحاء والبلغاء، ومقارنتها بالآيات البينات. هذا هو السبيل الذي يظهر تفوق كلام الله على سائر كلام البشر : «وذلك أنه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر، وتقصر قوى نظرهم عنها، ومعلومات ليس في منن أفكارهم وخواطرهم أن تفضي بهم إليها، وأن تطلعهم عليها»[2].

والوسيلة التي تبلغ لذلك الهدف هي معرفة خصائص النظم. والنظم علم خاص بالأساليب حيث يتم البحث في مكونات الجملة من جهة علاقات المفردات والجمل والروابط، وأثر النحو في سلامة التركيب. فلذلك دقت مسالكه، وتشعبت فروعه، واحتاج الدارس فيه إلى تكوين شامل في النحو والمعاني والأغراض، وطرق الدلالة عليها، دون أن تخلو هذه الثقافة من ذكاء حاد، وذوق سليم، وطبع متمكن. قال عبد القاهر : «فانظر لتعرف كما عرفت، وراجع نفسك، واسبر وذق لتجد مثل الذي وجدت»[3].

النظم عند عبد القاهر :

من خلال دراسة عبد القاهر لخصائص الجمل والتراكيب ندرك أن النظم عنده هو العلاقات التي تربط المفردات والجمل بعضها ببعض، أفعالا كانت أو أسماء. والأساس الذي تنتظم به هذه العلاقات هو ضوابط النحو، إذ لا تظهر صحة كلام أو فساده بدون الرجوع إلى النحو وأصوله، ومعرفة الوجوه التي نص عليها العلماء من حيث الصحة والجواز والخطأ : «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[4].

وقبل أن يخوض عبد القاهر في الكلام على أصول النظم، ومزاياه، وقدره في التراكيب، وقف عند قضايا شغلت بال العلماء قبله، وهي ذات علقة أكيدة بالنظم ألا

(1) دلائل الإعجاز : 31.

(2) المصدر نفسه : 192.

(3) المصدر نفسه : 34.

(4) المصدر نفسه : 64.

وهي الخصائص التي تميز اللفظة المفردة والمركبة من جهة الفصاحة. وبحثه في هذه الخصائص ينطلق من إيمانه بأن النظم ينبغي أن يعرف من أصوله، والألفاظ المفردة من أصول النظم ؛ ولا تظهر مزاياها في النظم حتى تكون مؤلفة على وجوه مخصوصة، وطرائق معلومة، استحسنها العلماء : «والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب»[1]. مع مراعاة مدى ملاءمتها لجاراتها من حيث القبول والتمكن : «وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم»[2].

إن النظم عند عبد القاهر تراكيب روعي فيها توالي الألفاظ بحسب المعنى المطلوب، أي وضعها في موضعها الطبيعي لكي لا يخرج الكلام «من كمال البيان إلى محال الهذيان»[3]. ولكن كيف يتحقق كمال البيان الذي أشار إليه عبد القاهر، وما علاقته بالإعجاز؟.

إن كمال البيان صفة في الكلام الذي تكتمل هيآته على وجوه هي غاية في سلامة التركيب، وصحة المعنى، يمتزج فيها ما يكتسب بالتعلم، وما هو فطري كلطف الطبع، وصفاء القريحة، والإحساس بالجمال، والاستعداد لفهم الإشارات الدقيقة، والصور الخفية، والمعاني النادرة، والملحوظات القيمة التي ميز بها العلماء الكلام الجيد من الرديء. ولهذه الأسباب مجتمعة تجد التفاوت ظاهرا بين الأدباء والكتاب والشعراء، ومن هنا يخلص عبد القاهر إلى أن الفرد إذا بلغ مرتبة الكمال في البيان أمكنه إدراك أسرار الإعجاز الذي هو الغاية والمطلب من كل دراسة للبيان؛ فلذلك كان الناس مختلفين في حقيقة الإعجاز، فتجد من له القدرة على إدراكه في كماله وصفائه، ومن يتخيله على غير وجهه الصحيح، أو يكون منكرا له على الإطلاق : «وإنه لمرام صعب، ومطلب عسير، ولولا أنه على ذلك لما وجدت الناس بين منكر له من أصله، ومتخيل له على غير وجهه»[4].

والبحث في خصائص النظم ليس عملا سهلا، لأن الكلام قد يأتي على هيئة وصورة منتظمة بمراعاة لفظه لمعناه، ويبلغ الجودة في الترتيب والتنسيق وحسن الهيأة، لكنه مع ذلك لا يتوفر على خصائص النظم، ولا يكون له شأن فيه، مثل قول بعض البلغاء

---

(1) أسرار البلاغة : 2.

(2) دلائل الإعجاز : 36.

(3) أسرار البلاغة : 2.

(4) دلائل الإعجاز : 51.

في مزايا اللسان : «اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزيّن يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودّة، وحاصد يحصد الضغينة، ومله يونق الأسماع».

إن عبد القاهر الذي تمكن بخبرته الطويلة من معرفة أسرار الأساليب، وهيآت ضروب الكلام، لا يعدّ هذا التعبير نظما، لأنه يخلو من وجوه وهيآت تركيبية تتداخل فيها طريقة وضع الألفاظ، وعلاقة بعضها ببعض بترتيب وهيأة يكون للنحو أثر بارز فيها، مع ملاحظة الحسّ الجمالي الذي يوجب هذا التعبير، أو ذاك، كقول ابن المعتز :

وإني وإشفاق عيني من العدى　　　لتجمح مني نظرة ثم أطرق

هذا التركيب يمكن بحث خصائص النظم فيه لكونه احتوى على اللطائف التي تطلب في دقة وضع الكلام على هيأة مخصوصة، روعيت فيها قواعد النحو الملائمة لسلامة التركيب، وهي :

أولاً : الفصل بين إن وخبرها بجملة "إشفاق عيني من العدى" وهو فصل روعي فيه حسن المعنى، وجمال التعبير.

ثانياً : ربط خبر إن باللام في قوله : لتجمح. والروابط من شأنها أن تقوي المعنى وتؤكده.

ثالثاً : مجيء "نظرة" نكرة لتدلّ على معان ودلالات لا يحيط بها الفكر، بخلاف المعرفة التي تقيد الخيال. قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول، بل هم في لبس من خلق جديد** ﴾[1]. قال : «فإن قلت : لم نُكّر الخلق الجديد، وهلاّ عرّف كما عرّف الخلق الأول ؟ قلت : قصد في تنكيره إلى خلق جديد، له شأن عظيم، وحال شديدة، حتى من سمع به أن يهتم به، ويخاف ويبحث عنه»[2].

رابعاً : إظهار موقف الشاعر من العدى، وعودته إلى سكونه، وتأمله في حاله بعبارة "ثم أطرق" ؛ وكأنها جاءت للتعبير عن نهاية غليان واضطراب في أعماقه[3]. مثل هذه الاعتبارات القائمة على أساس مراعاة وضع الكلمة المناسبة في موضعها الصحيح هي التي تعطي للكلام هيأة نظمية يستخرج منها الباحث أسرارا بديعة في

---

(1) سورة ق، الآية 15.

(2) الكشاف : 5/4.

(3) دلائل الإعجاز : 77-78.

أساليب البلغاء، وآيات القرآن الكريم. وهذا هو النمط الذي انكبّ عليه عبد القاهر لدراسته وتحليله، لأنّه بلغ المرتبة العالية في البيان.

النظم وإعجاز القرآن :

إذا كان الإعجاز يرتبط أساسا بمعرفة النظم عند عبد القاهر، فلأنه العلم الذي يهيء الفرد لفهم البيان والإعجاز، ويجعله يقتنع بالحجة والبينة بأن القرآن معجز بمعانيه وكلماته وحروفه وتركيبه. ولذلك اجتهد في بيان تراكيبه بالدرس والتحليل المستفيضين حتى أصبح هذا العلم منسوبا إليه، لا يذكر إلا بذكره، ولا يدرسه باحث إلا وكان عبد القاهر شاهدا وحجة في دعواه. وهذا لا يعني أن عبد القاهر انفرد بهذا العلم في تاريخ علوم اللغة العربية، فقد سبقه إلى ذكره علماء اللغة والنحو في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأشاروا إلى مسائله وقضاياه وأسسه، إلا أنهم لم يغوصوا في دقائقه، ولم يبسطوه بسطا مستوفيا مثل ما فعل.

والمسائل التي عني بها عبد القاهر في النظم هي التغييرات التي تطرأ على التركيب في الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير، والإظهار والإضمار، والتصريح والكناية، والحقيقة والمجاز؛ وهي ضروب من الأساليب يشكل النحو فيها عنصرا بارزا لإعطائها الصورة المكتملة. وكلها تخضع لضوابط وقوانين أشار إليها العلماء، ونصوا على وجوب التقيد بها، ولذلك ينبغي لكل دارس التمعّن في هذه القوانين، وجعلها ضابطا لسلامة التركيب. وهذا لا يمنع الدارسين في كل عصر من البحث عن قضايا وأسرار في اللغة العربية لجعلها تساير التطورات التي تظهر وتجدّ نتيجة تقدم الدراسات الأسلوبية، وتطور التقنيات والعلوم التي تحتاج إلى مصطلحات وأسماء جديدة. وهذا ما أكده الباحثون في الأسلوبية واللسانيات وتاريخ اللغات، إذ أثبتوا أنّ اللغة العربية لغة حية، لها قدرة على الاشتقاق والتوليد تجعلها تكشف كل يوم أسرارا وعجائب تركيبية ودلالية وصوتية.

وإذا ما نظرنا فيما احتج به عبد القاهر على عبقرية لغة القرآن في نظرية النظم، فإننا نجده ينص على وجوه من الدقة في التركيب تبدو في ظاهرها بسيطة، لكنها ممتنعة وعصيّة على من يريد أن يروم مثلها كقوله تعالى : ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾[1].

---

(1) سورة مريم، الآية 4.

هذا التركيب لم يأت صدفة لإيجاد هذا النسق التركيبي البياني الدقيق من حيث التمكن ولاسيما في لفظة "الرأس" التي أعطت للآية خصائص نظمية بديعة، وذلك أنها جاءت معرفة لتفيد الإضافة بدون إضافة. وإذا ما قورنت بالتعبير «اشتعل رأسي شيبا»، فإننا نرى تفاوتا كبيرا بينهما، إذ التعريف في الآية جاء ليفيد التعميم، وهذا المعنى يكون تأثيره أعمق وأبلغ في المتلقي، بينما الثانية أفادت التخصيص فكان تأثيرها محدودا. قال عبد القاهر : «واعلم أن في الآية الأولى شيئا آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل : واشتعل رأسي، فصرّح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه»[1].

ومزية أخرى نجدها في الآية الكريمة وهي أنها اشتملت على استعارة بديعة حيث عبّرت بألفاظ موجزة عن معنى يقتضي الإطناب، لأن ذهاب الشباب، ومجيء الشيب، وما يصحب ذلك من هزال وضعف بدن يجعل الإنسان يحن إلى أيام الشباب فيعبّر عن ذلك بألوان من التعبير الذي يبدو فيه الحزن والألم على زمان الشباب، وما فيه من متع ومسرّات. فجاءت الاستعارة القرآنية معبّرة عن هذه المعاني بأوجز لفظ.

وكما تجد مزايا النظم في وضع ألفاظ القرآن تراها كذلك في رصف جمله التي جاءت من حيث ترابطها وتماسكها كأنها بنيان مرصوص يشدّ بعضه بعضا، وأيّ صدع فيه بتقديم أو تأخير أو حذف أو إبدال يؤثر على تناسق الآيات البيّنات. قال تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجوديّ، وقيل بعدا للقوم الظّالمين** ﴾[2].

هل يستطيع دارس للأسلوبية وللخصائص التركيبية للغات أن ينكر سلامة الوضع والتركيب والتناسق في الآية الكريمة ؟ إن النسق في الآية جاء للتعبير عن غرض واحد بخصائص نظمية يلاحظها الدارس المتأمل في المعاني، فالأرض والسماء نوديتا بـ "يا"، والماء أضيف إلى الكاف، والفعل "غيض" جاء بصيغة المجهول للدّلالة على أنّه غيض بقدرة قادر، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **وقضي الأمر** ﴾ بصيغة التأكيد لبيان أنّ الأمر كان قدرا مقدورا، لا مجال فيه للشك، ثم قوبلت "قيل" في الفاتحة بـ "قيل" في الخاتمة، وفي هذا التقابل دلالة على القدرة والحكم والسيطرة التي لا تصدر إلا من مالك الملك، العزيز المقتدر الذي يعلم خبايا الأمور، ومقدار ما ينجز منها في كل زمان ومكان

(1) دلائل الإعجاز : 81.

(2) سورة هود، الآية 44.

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[1]. وأخيرا نرى تناسقا وتسلسلا في المعنى من بداية الآية إلى نهايتها ليفيد معنى جليلا هو القدرة والعظمة والتفرد بالملك : «أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلّقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب»[2].

وهذا الاتساق البياني البديع جاء في كل فن من فنون البلاغة التي كان القرآن نموذجا مثاليا فيها مثل التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، وغيرها من الفنون. وسنلاحظ في هذه الدراسة كيف جاءت الآيات البيّنات في هذه الفنون غاية في الجودة بياناً ونظماً وإحكاماً.

التقديم والتأخير :

قد يطرأ على التركيب في اللغة العربية تقديم لفظة أو عبارة حقها التأخير، أو يحدث العكس. والتقديم والتأخير في اللغة العربية يأتي لإفادة دلالات يقصدها المتكلم البليغ قصدا كتحقيق الزيادة في المعنى، أو تخصيص جزء مقصود في التركيب، فيغير موضعه لكون السّامع يعنيه ذاك الجزء من الجملة دون سائر الأجزاء الأخرى. وقد وقف عبد القاهر على شواهد كثيرة في الشعر البليغ، والكلام الفصيح، جاء فيها التقديم والتأخير دالاّ على عبقرية اللغة العربية من حيث تنوّع الدّلالات بحسب المقامات.

وسنقتصر في هذا القسم من البحث على الآيات البيّنات فقط لنرى ما حققه التعبير القرآني من وجوه فنية ولغوية وتركيبية كان للنظم أثر بالغ فيها. قال تعالى : ﴿ **قل أغير الله أتخذ ولياً** ﴾[3].

إن تقديم "غير" في الآية الكريمة لا يمكن أن يكون قد جاء بدون مراعاة سلامة المعنى المقصود، ولذلك جاء على هيأة نظمية جمعت محاسن النظم المطلوبة. ولكي نعرف تأثير النظم في الآية ينبغي أن نتأمّل المعنى بالتأخير وبالتقديم معا لنرى أيهما أجدر بهذا الموضع ؟. فبالتقديم نجد المعنى يفيد استعظام الأمر، وفظاعته من أن يكون غير الله وليّا، فلذلك كان حصر الإنكار في اتخاذ غير الله وليا. أما إذا تقدّم الفعل على

(1) سورة ق، الآية 16.

(2) دلائل الإعجاز : 37.

(3) سورة الأنعام، الآية 15.

″غير″ فإنّ المعنى الذي يفيد تهويلا وتعظيما بعبادة غير الله ينصرف إلى غيره، وهو معنى غير مقصود في الآية، لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن للمشركين فظاعة الشرك. ومن هنا كان التقديم أبلغ وأوكد لمراعاة المقام، وهو أحوال المخاطبين، وما كانوا فيه من ضلال أبعدهم عن التوحيد. والعرب بسليقتهم وملكتهم اللغوية أدركوا السّرّ في هذا التقديم، وما يشتمل عليه من تهويل واستعظام للأمر الذي كانوا فيه في جاهليتهم. قال عبد القاهر : «وذلك لأنّه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليّا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون بشيء من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله وليّا ؟ وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك فاعرفه»[1].

وإذا ما تتبعنا الآيات التي جاء فيها التقديم لتحقيق مثل هذه الدّقة في المعاني، والسلامة في التركيب فإننا نجد هذا الأسلوب قد اكتسب بلاغة عالية، وعبّر عن معان بالغة الدّقة. قال تعالى : ﴿ **وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ** ﴾[2].

قد يبدو في الظاهر أن المعنى المقصود في الآية قد لا يتغيّر بتأخير ″شركاء″ كأن نقول : وجعلوا الجنّ شركاء لله ؛ لكون ″الجن″ هي اللفظة المقصودة. إن المعنى بتأخير ″شركاء″ يختلف اختلافا بينا عن المقصود، فالمعنى في الآية أفاد الإنكار بوجود الشريك مع الله تعالى سواء كان هذا الشريك من الجن أو غير الجن، ولذلك كان تقديم شركاء هو التركيب السليم من حيث مراعاة الدلالة، بينما التعبير الآخر أي بتأخير الشركاء فإنه يفيد مجرد الإخبار بأنهم عبدوا الجن مع الله. والفرق كبير بين الدلالتين عند من يتأمل المعاني. قال عبد القاهر الجرجاني : «وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن، وإذا أخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله، لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه»[3].

ويمكن توضيح ذلك بواسطة التركيب الذي يقتضيه حسن النظم في الآية الكريمة على الشكل الآتي :

شركاء ←── مفعول أول.   لله ←── في موضع المفعول الثاني.

---

(1) دلائل الإعجاز : 95.

(2) سورة الأنعام، الآية 101.

(3) دلائل الإعجاز : 222.

وهنا انتهى المعنى بالإخبار، فتأتي "الجن" في التركيب لتفيد دلالة أخرى، لأن فيها تقدير كلام ثان، أي كأن سائلا سأل : فمن جعلوا لله شركاء ؟ فيقال له : الجن.

وبهذا السياق تكون الجن واجبة التأخير عن شركاء للدلالة على المعنى الذي جاء بعد الإخبار.

وإذا نظرنا بواسطة قانون النظم في سياق تأخير شركاء، وما يدل عليه هذا السياق من دلالة فإن التركيب يقتضي أن تكون :

الجن ←— مفعولا أول. شركاء ←— في موضع المفعول الثاني.

وهذا التركيب يفيد أن "شركاء" اختصت بالجن، وبذلك تزول عنها صفة الإطلاق، ولا تجري على غيرهم. والآية الكريمة لا تقصد هذا المعنى.

إن هذه المقارنة بواسطة مراعاة قواعد النحو الذي أكد أهميته عبد القاهر، واعتبره الأساس الذي تعرف به المعاني يظهر لنا كيف كان التعبير القرآني يسمو إلى الدقة المطلوبة في المعنى، ويختار أجود التراكيب بدون لبس أو اشتكال أو غموض. قال عبد القاهر في حال تغيير موضع الشركاء : «وأنك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة، والمنظر الرائق، والحسن الباهر، إلى الشيء الغُفْل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل»[1].

بلاغة الحذف :

يطرأ الحذف في الجملة العربية لتحقيق مزايا بيانية عديدة، لعل أبرزها "الإيجاز"، وهو فن بلاغي محمود في التراكيب، ودال على قدرة الأديب في التصرف في ضروب الأساليب التي يقتضيها المقام بناء على وجود قرائن يكون الإيجاز فيها هو الأسلوب الأمثل كمراعاة أحوال المخاطبين؛ فالذكي الفطن لا يخاطب مخاطبة البطيء الفهم، إن الأول يستوعب مضامين الخطاب بالإشارة واللمحة فيكون أسلوب الحذف في مخاطبته أجود وأفصح من الذكر. والقرآن الكريم خاطب عقليات مختلفة، وأمزجة متعددة، وطوائف متفرقة، تعددت ميولاتهم وأهواؤهم ومعتقداتهم، فلذلك استعمل ألوانا من الخطاب منها الإخباري الذي وصف فيه أحوال الأمم الغابرة، والعقلي المعتمد على الحجج والبراهين، والوجداني الذي يستميل به الطبائع القريبة إلى الخير والصلاح.

---

(1) المصدر السابق : 221.

وكلها جاءت في ألوان من الأساليب تعين على فهم دلالتها، وتقريب محتوياتها. وأسلوب الإيجاز أحد هذه الأساليب التي خاطب بها القرآن أصحاب الفهم السليم، والعقل الراجح، ومن كان طبعهم إلى الخير أقرب. والمتتبع لما حذف في تراكيب القرآن يجدها تدخل في هذا السياق البلاغي، لأن تلك المحذوفات لا تدعو الحاجة لذكرها لكون القرائن دالة عليها سواء من سياقها أو فيما تتطلبه من ردّ المحذوف بقوة. ولهذا يجد الباحث الحذف فيها أبلغ من الذكر، قال تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل** ﴾[1].

لقد حذف المفعول في هذه الآية في أربعة مواضع، في قوله تعالى : ﴿ **يسقون** ﴾، أي أغنامهم أو مواشيهم، وفي قوله : ﴿ **ووجد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾، أي غنمهما، وقوله : ﴿ **قالتا لا نسقي** ﴾، أي غنمنا، وقوله : ﴿ **فسقى لهما** ﴾، أي غنمهما.

وإذا لاحظنا دلالة الحذف هنا فإننا نجده حقق فوائد جليلة في التعبير البياني، لأن الإثبات خارج عن الغرض الذي سيقت من أجله الآية، فالمقصود هنا هو الإخبار بالسقي، وبالموقف النبيل الذي صدر من موسى عليه السلام، ولذلك ركزت الآية على ذكر هذه المشاهد بالتركيب الدال عليها. قال عبد القاهر : «ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقا، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقي حتى يصدر الرّعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من ذلك سقي. فأما ما كان المسقي أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض، وموهم خلافه»[2].

هذا هو البيان القرآني يركز على ما هو أوكد وأنبل في موضعه. والحال هنا تقتضي تصوير مشهد إغاثة الضعيف الملهوف، والرغبة في المعروف، وإسداء الخير لامرأتين ضعيفتين لا تقدران على مساجلة الرجال ومزاحمتهم، فكانت الأفعال في هذا الموضع أقوى من المفعولات دلالة وقصدا وبيانا. وهذا المنهج يظهر مدى الأثر القوي الذي يحدثه الأسلوب القرآني في توجيه الأدباء والكتاب والمترسلين إلى الصياغة البيانية الملائمة للأغراض.

---

(1) سورة القصص، الآية 24.

(2) دلائل الإعجاز : 124.

ونجد عبد القاهر يبحث في معان خفية عن طريق أسلوب الحذف في القرآن الكريم، إذ جاء في بعض الآيات حذف يطلب تقديره بقوة، لكون عدم التقدير يوقع السامع في تأويل خاطئ يؤدي به إلى الشرك والضّلال. قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾[1].

إن البحث في المعنى الدال عليه فعل "ادعوا" يجنب الدارس الخطأ في التأويل. وذلك أن هذا الفعل يأتي غالبا بمعنى الدعاء والنداء، لكنه في الآية خرج عن هذا المعنى وأفاد مجرد ذكر الاسم، وتقدير المحذوف بهذا المعنى هو الذي يجنب السامع الوقوع في الخطأ، فلا يتوهم أن المعنى في الآية هو دعاء اثنين، لكون حرف العطف "أو" يدل على التخيير. ومن هنا ينبغي تقدير المحذوف في الفعلين بالضمير : قل ادعوه الله، أو ادعوه الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى.

وهذا التقدير يراعي الأصل في هذا الفعل، وهو التعدية إلى مفعولين، لكنه يأتي بترك أحدهما استغناء عنه، فيقال : دعوت الله، بدل دعوته الله.

ولكي يثبت عبد القاهر خطأ الأخذ بالظاهر على اعتبار الفعل بمعنى النداء يورد أمثلة لا يمكن أن يستقيم المعنى فيها إذا اعتبرنا الشخص المدعو واحدا، وذلك إذا قلت : ادع لي زيدا أو الأمير (على اعتبار أن الأمير هو زيد نفسه).

هذا المثال لا يستقيم إلا إذا كان زيد غير الأمير، أما إذا كان هو نفسه فإن المعنى يدخل في الممتنع، وهو مثل أن يقال للشيء الواحد : أبيض أسود، وللشخص "طالع نازل" في حال واحدة. وبهذا يثبت عبد القاهر أن سلامة المعنى في الآية لا يتم إلا بتقدير المحذوف، وهو الضمير المهمل في هذا الفعل، واعتبار الفعل بمعنى التسمية وليس الدعاء أو النداء. ولا ريب أن قانون النظم الذي يرتكز على قواعد النحو هو الذي هداه إلى هذا التخريج السليم، حيث أرجع الفعل إلى عمله الأصلي، وإلى معناه المغمور. وبمثل هذه الدقة في تخريج معاني الآيات بمراعاة قانون النحو بحث عبد القاهر المعنى في قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله** ﴾[2].

إذا نظرنا في قانون النحو من ناحية إعراب (عزير ابن الله) فهي جملة إسمية من مبتدأ وخبر :

---

(1) سورة الإسراء، الآية 109.

(2) سورة التوبة، الآية 30.

عزير ⟵ مبتدأ، ممنوع من الصرف للعجمة والتعريف. [ومن العلماء من نفى عنه العجمة فنوّنه].

ابن الله ⟵ خبره.

والإشكال في الآية من ناحية قراءة (عزير) بغير تنوين، وهي بهذه القراءة تخرج من وجهين، الأول : أن يكون القارئ أراد التنوين ثم حذفه لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد** ﴾[1]، بحذف التنوين من "أحد"، وقول أبي الأسود الدؤلي :

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

الثاني : أن يكون الابن صفة والتنوين ساقط، ويكون في الكلام محذوف. وقد اختلفوا فيه، فمنهم من قدّره مبتدأ :

وقالت اليهود [هو] عزير ابن الله.

ومنهم من قدّره خبرا :

وقالت اليهود عزير ابن الله [معبودنا][2].

وقف عبد القاهر عند خطورة هذه القراءة لبيان الغرض من ذكر الصفة في الجملة العربية، وهي إزالة اللبس عند المخاطب، لأن الصفة تكون ثابتة ومعروفة في الموصوف؛ فإذا قلنا :

جاء عبد الله الطويل.

فإننا نلاحظ أن الصفة ميزت عبد الله عن غيره ممن يشترك معه في الاسم، لأنها ثابتة فيه.

وعلى هذا يكون من جعل "ابن" صفة في الآية قد أخرجها من النفي إلى الإثبات. قال عبد القاهر : «وإذا كان الأمر كذلك كان جعل الابن صفة في الآية مؤديا إلى الأمر العظيم، وهو إخراجه عن موضع النفي والإنكار إلى موضع الثبوت والاستقرار، جلّ الله تعالى عن شبه المخلوقين، وعن جميع ما يقول الظالمون علوا كبيرا»[3].

---

(1) سورة الإخلاص، الآيتان 1-2.

(2) دلائل الإعجاز : 288.

وقد ذكر الزمخشري السبب الذي دعا اليهود إلى قولهم ذلك؛ وهو أنهم قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام، يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له : إلى أين تذهب؟ قال : أطلب العلم، فحفّظه التوراة، فأملاها عليه عن ظهر لسانه، لا يخرم حرفا، فقالوا : ما جمع الله التوراة في صدره، وهو غلام، إلا لأنه ابنه. (الكشاف : 185/2).

(3) دلائل الإعجاز : 289.

وهذا الوجه أي جواز الوصفية في (ابن) بتقدير المحذوف مع التأويل الذي يدخل الابن في الإنكار هي قراءة معروفة، ولهذا بيّن عبد القاهر خطورتها، لأن التأويل فيها غامض وبعيد، ولا يستقيم المعنى على وجهه الصحيح إلا بأن يقال : إن الغرض هو الدلالة على أن اليهود قد كان بلغ من جهلهم ورسوخهم في هذا الشرك أنهم كانوا يذكرون "عزير" هذا الذكر.

ويسير عبد القاهر في هذا الاتجاه المبني على أساس مراعاة قواعد النحو باعتباره علما نستخرج بواسطته دفائن المعاني وصحتها في بيان الحذف في قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم** ﴾[1].

بعض الدارسين جعلوا "ثلاثة" خبرا لمبتدأ محذوف بتقدير :

ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة.

وتقدير هذا الحذف يثبت فيه قائله، من غير شعور، تعدد الآلهة، لأن النفي والإثبات يقعان دوما على الخبر، فقول القائل : ما زيد منطلقا. النفي فيه وقع على الخبر وهو الانطلاق، وليس على زيد، وبذلك يكون في تقدير الحذف إثبات تعدد الآلهة. ولهذا يرى عبد القاهر وجها آخر أقرب إلى الصواب، وهو أن تكون "ثلاثة" صفة لمبتدأ، بتقدير المحذوف على وجهين :

الأول : ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة.

الثاني : ولا تقولوا في الوجود آلهة ثلاثة.

ويكون تخريج المحذوفات في الآية على الشكل الآتي :

حذف من الآية الخبر الذي هو "لنا" أو "في الوجود"، فصار التقدير :

ولا تقولوا آلهة ثلاثة.

ثم حذف الموصوف الذي هو آلهة. وهذا التخريج مطرد في تراكيب اللغة العربية، لأن حذف الخبر والموصوف بالعدد شائع في التركيب السليم.

كما أشار عبد القاهر إلى أن هذا الوجه اكتسب قوته في الآية الكريمة لأن القول فيها بمعنى الاعتقاد وليس حكاية، لكون الخطاب فيها للنصارى، وسياقها في قوله تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى**

---

(1) سورة النساء، الآية 170.

ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسوله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ﴾.

إن تقدير الحكاية في سياق الآية منعدم، ولذلك فهي بمعنى الاعتقاد أي ولا تعتقدوا. وإذا كان كذلك فإن النفي يقع على الخبر؛ وهذا الوجه هو الذي جعل عبد القاهر يرفض تقدير الحذف : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، بدون مراعاة الخبر المحذوف، وهو "لنا" أو "في الوجود" وجعل "ثلاثة" صفة.

هذا التخريج بني على أساس قانون النظم لبيان الدلالة على وجهها الصحيح، ولذلك يرى عبد القاهر أن فهم كتاب الله على وجه الصحة لا يتم إلا عن طريق النحو الذي هو باب النظم وأساسه. قال : «وأما زهدهم في النحو، واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بدّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه. إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه»[1].

بلاغة الفصل والوصل :

يعد هذا الباب أكثر أبواب علوم البلاغة دقة، وبلوغ المرام فيه لا يتوقف على معرفة وجوه وخصائص التراكيب فقط، وإنما يحتاج الدارس بالإضافة إلى المعرفة العلمية إلى طبع سليم، وذوق مرهف، وحس جمالي لطيف يميّز بين الجيّد والأكثر جودة، والتّمرّس بكلام البلغاء الفصحاء. وذلك أن الغموض في هذا الباب يكون في أدقّ المواضع تركيبا، وهو حرف العطف "الواو". واكتسابه هذه الدقّة جاء من طبيعة الجمل العربية التي تحتاج إلى رابط في مواضع، وتستغني عنه في مواضع أخرى لوجود قرائن تقوم مقام الواو؛ ولمعرفة أحوال التركيبين يقتضي التمييز بين طبيعة تركيب الجمل. قال عبد القاهر : «واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه إنه خفيّ غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب»[2].

(1) دلائل الإعجاز : 23-24.

(2) المصدر نفسه : 178.

ولدقته وغموض تركيبه اختلط الأمر فيه على البلغاء وفحول الشعراء الذين كان يضرب بهم المثل في البيان، ومنهم أبو تمام الذي قال :

لا والذي هو عالم أن النوى   صبر، وأن أبا الحسين كريم

لقد عيب على الشاعر استعمال حرف العطف في قوله : «وأن أبا الحسين كريم» لكون المناسبة منعدمة بينه وبين الجملة المتقدمة، وهي إحدى الأسباب الداعية لإثبات الواو. وإذا نظرنا في آيات القرآن في هذا الباب فإننا نجد التراكيب قد جاءت مراعية للمعاني في المواضع التي تتطلب وصلا أو فصلا بحسب السياق والدلالة. قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين يخادعون الله** ﴾[1].

الشاهد في قوله تعالى : ﴿ **يخادعون الله** ﴾ حيث لم يثبت الرابط، لأن المعنى يقتضي في هذا الموضع فصلا، وذلك أن المخادعة جاءت تأكيدا لقولهم السابق : ﴿ **آمنّا** ﴾، بدون أن يؤمنوا؛ وسلامة التركيب توجب أن لا يكون رابط بين المعنيين، لأن إثبات الواو هنا يزيل تأكيد حكاية المنافقين التي ذكرها الله عنهم، وهو أنهم غير صادقين في قولهم. ولملاحظة العلاقة بين الجمل بدقة ننظر في قوله تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾[2].

لقد ارتبط الفعلان بواو العطف، لأن المعنى هنا يختلف في سياقه عن الآية السابقة، وذلك أن الفعلين يشتركان في المعنى والحكم، وهو المكر وأثره، فجاء الفعلان كالشريكين أو النظيرين لا يمكن فصلهما. وفي مثل هذه الحالة يجب إثبات الرابط للدلالة على هذا الاشتراك.

وكلما تتبعنا الآيات التي جاء فيها فصل أو وصل إلا وجدنا مثل هذه الدقّة في مراعاة المعاني المشتركة أو المنفصلة التي تحتاج إلى رابط بالواو، أو تستغني عنه لوجود قرائن تقتضي الفصل.

ويقترب من هذا الباب في دقته المواضع التي تستعمل فيها إنْ وإلاّ وإنّما، وذلك أن استعمال هذه الحروف يكون بحسب القصد والمطلوب. وقد وقف عبد القاهر على الفروق الخفية التي جاءت في الآيات البيّنات، منها قوله تعالى : ﴿ **إنْ أنتم إلا بشر مثلنا، تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا** ﴾[3].

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 7-8.

(2) سورة آل عمران، الآية 53.

(3) سورة إبراهيم، الآية 13.

لقد جمعت الآية الكريمة بين "إنْ وإلاّ" لمراعاة أحوال المخاطبين، وذلك أن المشركين ادّعوا أمرا لا يجوز للبشر في رأيهم، فجاء التعبير بإنْ وإلاّ لإثبات ما ينكرونه. ثم كان الجواب في مثل هذا التركيب بإعادة الكلام على وجهه وهيأته لتأكيد الأمر الذي أنكروه ﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾.

أما إذا جاء الكلام على صيغة إخبار دون ادّعاء شيء فإن التعبير يكون ابتداء من المتكلم. وفي هذه الحالة يكون استعمال "إنما" أبلغ وأجود. قال تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾[1].

هذه بعض أسرار بلاغة القرآن وبيانه ونظمه الذي خاطب به قوما كان يضرب بهم المثل في بلاغة المنطق، وصحة العقول، وشدة الدهاء، وقوة المكر. قال الجاحظ : «وذكر الله، عزّ وجلّ، لنبيه عليه السلام، حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول؛ وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة»[2].

فلذلك جاء خطابه لهذه الفئة من الناس أعلى مقاما، وأظهر شأنا، وأشد إحكاما، ليكون حجة بالغة لنبيّنا المصطفى عليه السلام. وعبد القاهر حينما عمد إلى دراسة جزء من خصائص النظم في كتاب الله فإنه قصد لبيان هذه الحجة، مبرزا تفوق كلام الله على كلام العرب معنى ونظما وأسلوبا، فكانت آياته البيّنات بحق مغدقة الأسافل، ومثمرة الأعالي بأسلوبها السلس العذب كأنه الماء الزلال، وبتركيبها المحكم، وبما اكتسبت من طلاوة وحلاوة. ومن هذه الدراسات بنى عبد القاهر بناءه الشامخ الذي أثبت به بلاغة العرب، وأسرار إعجاز القرآن، ومهد السبيل لمن جاء بعده لتعميق البحث في هذه الدراسات : «وقف عبد القاهر عند مقالة سلفه، وجعل ذلك بداية طريقه»[3].

وإذا كان السلف قد اجتهدوا في كشف خبايا وأسرار لغتنا العربية، فإن هذه اللغة، في عصرنا الحاضر، بحاجة إلى أن تواكب التطور السريع في الآداب والفكر والعلوم الدقيقة، وذلك بالعمل على تصحيحها من الداخل بالوقوف على اجتهادات العلماء، وفهم إشاراتهم على وجهها الصحيح؛ وأي تغيير في قواعدها وتركيبها ينبغي أن يراعي أصولها لأنها لغة قائمة على قواعد ضبطها العلماء بالدرس والتحليل مثل

---

(1) سورة الكهف، الآية 105.

(2) البيان والتبيين : 8/1.

(3) دراسة في البلاغة والشعر : 48.

عبد القاهر، ومن كان في رتبته، ومكانته في الدرس النحوي واللغوي والبياني، «وهؤلاء هم البلغاء الذين لا معرج لأرباب البصائر في إدراك حقائق الكلام إلا على ما أصّلوه»[1].

وبإدراكنا ما أصله السلف يمكن أن نسهم في تطوير العلوم اللغوية والأدبية والفكرية بشكل أدق. وعلى هذا النهج بنى الغرب حضارته في عصر التنوير، إذ عادوا إلى تراث اليونان والعرب، وضبطوا قواعد لغتهم لتكون لغة الفكر والعلم، فأسسوا فكرا وثقافة وعلما ومناهج مازالوا يطورونها نحو الأفضل لتلائم العصر المتطور.

وتقويم اللغة العربية وتدبر معاني كتاب الله ليس عملا هينا، إنه يحتاج إلى سعي متواصل في بحث خصائص اللغة، وما عرفته من تطور طيلة هذه القرون، وإلى تدبر في تراث العربية، وإيمان قوي بأن لغة القرآن وتراث العرب يختزنان كنوزا وأسرارا ينبغي كشفها وبيان جوانبها الإيجابية. وبدون هذا الطريق لا يمكن أن تعرف حجة الله تعالى على خلقه من الوجه الذي هو أضوأ لها تجعل المؤمن يزداد إيمانا، والجاحد يعود إلى رشده وصوابه بعد أن يقتنع بالحجة والبينة، والدليل القطعي بسمو البيان القرآني.

(1) منهاج البلغاء : 144.

الفصل الثالث

دلالات أسلوبية في البيان القرآني :

الإيجاز والإطناب والحوار والفصل والوصل

المبحث الأول

دلالات الإيجاز في البيان القرآني

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ﴾[1].

تتميز اللغة العربية بمجموعة من الخصائص التركيبية والصوتية التي تجعل طرق الدلالة تتنوع بحسب المقامات، وهي دليل على غنى اللغة وسعتها، وقدرتها على التطور، وتحقيق التواصل، وتنظيم الفكر في القضايا ذات الطابع العلمي والأدبي والفلسفي.

وإذا كان الإيجاز عند أصحاب البيان يعد بلاغة لكونه يعتمد أسلوبا معينا، وطريقة خاصة في الأداء يطلبها المقام، فإن الإطناب يعتبر كذلك بلاغة إذا كان الموضوع يحتاج للإسهاب والتفصيل والبسط، والنوعان معا ضروريان في تنويع التواصل.

والعرب كانوا في خطبهم الجامعة، وأقوالهم المأثورة، وأمثالهم السائرة، وحكمهم الطريفة، يجمعون بين هذين اللونين من التعبير ، قال الشاعر :

صموتا في المجالس غير عي   جديرا حين ينطق بالصواب

والقرآن الكريم خاطب العرب بأسلوبهم، **﴿ قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾**[2]، فمن الطبيعي أن تكون الآيات البينات جامعة للخصائص البيانية، ومنها الإيجاز والإطناب. إن منهج أسلوب القرآن كان يروم تحقيق غايات بيانية سامية، منها، أولاً : إفحام العرب في البلاغة، وهم فرسان ميدانها، فلا يجدون تعليلا بحجة أن أسلوبه غريب عنهم، فيكون التحدي بالنسبة إليهم باطلاً. ثانياً : تحقيق التلاؤم مع الأغراض والمضامين التي دعا إليها. ثالثاً : إن طبيعة الأغراض التي ذكرها كتاب الله تقتضي تنوعا في الأسلوب، فمعاني الوعد والوعيد تحتاج إلى التفصيل والبسط لهداية الناس، وبيان عاقبة ضلالهم وتماديهم في الكفر والجحود، ومعاني الأحكام والشرائع والقوانين التي تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات الأخرى تتطلب دقة العبارة. رابعاً :

---

(1) سورة المائدة، الآيتان 15-16.

(2) سورة الزمر، الآية 27.

راعى أسلوب القرآن الأعراف، والعلاقات الإجتماعية، والنظام الاقتصادي، وأحوال المخاطبين النفسية والفكرية، فلذلك جاء كل ضرب من أسلوبه متميزا بخصائص معينة.

خصائص أسلوب الإيجاز

لقد حصر البلاغيون ضروب الأساليب في ثلاثة أنواع :

الأول : الأسلوب المتساوي في لفظه ومعناه، ووضعوه في الدرجة العالية من البيان صياغة ومعنى.

الثاني : أسلوب يفضل فيه المعنى على اللفظ، وهو أسلوب بليغ لا يقل عن الأول في الجودة والإحسان.

الثالث : أسلوب يفضل فيه اللفظ عن المعنى، وهو مرذول، وبعيد عن سمات البيان.

وإذا بحثنا عن موضع أسلوب الإيجاز بين هذه الأصناف فإنا نجده يقع في الضرب الثاني. وقد جاء في الشعر والأمثال والأقوال المأثورة، مثل عبارة «قيد الأوابد» في شعر امرئ القيس :

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

هذه العبارة الموجزة تبرز أصالة الفرس الذي يجعل طريدته مقيدة، لا تستطيع النجاة منه. بمثل هذا التعبير قدم النقاد امرأ القيس. قال ابن سلام : «ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء»[1].

أما الأقوال المأثورة، والأمثال السائرة، والحكم الدالة، فهي في حد ذاتها إيجاز بليغ، لأنها صيغت للتمثل بها، ولتقويم السلوك والأخلاق والمعاملات.

وسنتناول أسلوب الإيجاز في كتاب الله من خلال ضربين من التعبير، الأول : التعبير بالنكرة، والثاني : التعبير بالحذف.

أولاً : التعبير بالنكرة :

يختلف التعبير بالنكرة في تركيبه ومضمونه عن التعبير بالمعرفة. وكانت العرب تستعمل النكرة لتحقيق مزيتين أسلوبيتين، الأولى : الإيجاز، والثانية : فسح المجال للمتلقي قصد تأويل المعاني.

---

(1) طبقات ابن سلام : 55/1.

وأسلوب القرآن الذي بلغ مرتبة عالية في البلاغة جدير باستعمال النكرة لتحقيق هاتين المزيتين. وقد جاء للتعبير عن أغراض متعددة شملت العقيدة، والغيبيات، والتشريعات والقوانين التي سنها الإسلام. وكل هذه الأساليب ـ كانت ومازالت ـ ميدانا يجول فيها الفكر ليسبح في عوالم من التأويلات والرؤى والمفاهيم قصد تصور الأشياء على حقيقتها، أو تقدير حجمها. قال تعالى : ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾(1).

إن الله أخبر المؤمنين بالنعيم المادي والمعنوي من أطعمة وأشربة ولباس وحياة زوجية ناعمة. لكن هناك نعيم لايدركه الإنسان، ولايعرف مقداره، وأثره الطيب. فلذلك جاءت لفظة "مزيد" بالنكرة لتدل على هذا العطاء الواسع الذي لا يعرف الإنسان شكله وحجمه ومقداره. وهذا ما يجعله يستعمل فكره لمحاولة الإحاطة بجزء من هذا المزيد.

وكذلك عبرت الآية الكريمة عن مثل هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر** ﴾(2).

إن الرضى الذي يناله المؤمنون قد حدثنا عنه الكتاب العزيز في إقامتهم في جنة الخلد، وفي لقائهم بالسرور والحفاوة يوم الحشر، وقد ابيضت وجوههم، لكن تبقى أشياء كثيرة لا يعلمونها، إنها رضوان الله الواسع العريض الذي يفوق حجم السماء والأرض، ولذلك جاءت عبارة "ورضوان من الله أكبر" لكي لا تبقى الأذهان مرتبطة بأجزاء محدودة من النعيم والرضى. وفي تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس توفير الأمن لجميع الأفراد قال تعالى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾(3).

هذه الآية الكريمة أشارت إلى ظاهرة اجتماعية لا يخلو منها مجتمع بشري، لأنها تتعلق أساسا بالصراع من أجل المصالح. ومن هنا تجد فئة من الناس لا تتقيد بالأعراف السائدة، والقوانين التي يضعها المجتمع من أجل العيش في استقرار يكفل الأمن للجميع، فتراهم يحدثون الفتن والاضطرابات بقتل الناس، وبالاستيلاء على أموالهم، والاعتداء على أعراضهم. وإذا لم يطبق قانون يحد من هذا السلوك الشاذ فإن المجتمع لن يعرف الاستقرار والأمن. والآية الكريمة أشارت إلى هذا الداء، وإلى أسباب علاجه باعتماد قانون القصاص الذي يوقف تكاثر هؤلاء الجناة كيفما كانت مكانتهم

---

(1) سورة ق، الآيتان 34-35.

(2) سورة التوبة، الآية 73.

(3) سورة البقرة، الآية 179.

الإجتماعية. ولأمر ما في بلاغة القرآن السامي جاء طباق خفي بين اللفظتين، فالقصاص جزاء ونهاية للظلمة، و"حياة" هي عبارة عن تفاؤل وأمل واستمرار وتجدد. وهذا ما جعل لفظة القصاص تكون معرفة، لأنها لا تحتاج إلى تأويل، بينما حياة تقتضي أن تكون نكرة لتتيح للفكر مجالا واسعا لتأويل المعاني، والبحث عن أنواع الحيوات التي تسعد الناس في مجتمع آمن بفضل تطبيق القانون.

هذا هو العدل المطلق الذي قصده التعبير القرآني البليغ، تجد فيه مصلحة العباد والبلاد فوق الأغراض الذاتية والمنافع الشخصية. ومن هنا جاءت تعابير كتاب الله دقيقة ومحكمة، فلا غموض ولا إبهام يؤديان إلى التأويلات البعيدة، والتمحلات المتكلفة التي تخرجه عن سياقه السامي.

وقال الله تعالى : ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾[1] الخطاب موجه للذين تمادوا في العصيان، فجاء الإنذار بـ "حرب"، وهي صيغة نكرة مشحونة بالدلالات القوية حيث تجعل الفكر يؤول المعاني، ويغوص باحثا عن حجم خسارة هذه الحرب، وبما تحدثه في النفوس من هول وفزع. وإذا عرفنا أنها جاءت مقرونة بغرض معين، وهو تحريم الربا، أدركنا سبب هذا الهول.

إن العمل بالربا في أي مجتمع استغلال فظيع لفئة الفقراء والمحتاجين من الأغنياء. فلذلك جعلها الله حربا غير معلومة في زمان أو مكان، وإذا كانت المجتمعات في تعاملها التجاري والمالي مرتبطة بنظام المصارف حيث تجني أرباحا كثيرة عن طريق الفوائد، فإن هذا النظام المالي يجعل فئة قليلة تحتكر الثروة بحجة تنمية الاقتصاد الوطني. والمجتمعات الإسلامية يمكن لها أن تبقي على المصارف على أساس مراجعة تعاملها المالي بما يلائم المنهج الإسلامي الذي يحارب الظلم والاستغلال. والله سبحانه وتعالى أعلم منا بمصالح العباد، وما نهانا عن الربا إلا لكون ضررها أكثر من نفعها. إن النظام المالي القائم على التعامل بالربا لم يستطع أن يحل المشاكل الاقتصادية والإجتماعية والنفسية، فها هم الفقراء في الدول الكبرى يموتون جوعا، ولايجدون سكنا، ونسبة الجريمة والسرقة والدعارة وتناول المخدرات وشرب الخمر ترتفع في وسطهم، ومنهم من يقدم على الانتحار ليجعل نهاية لحياته البئيسة.

إذا كان هذا هو حال الدول الكبرى فكيف نتخذها مثالا في النموذج الاقتصادي الذي يجعل الربا ظاهرة مألوفة ؟ إن النموذج بين أيدينا في كتابنا العزيز، وفي سيرة

---

(1) سورة البقرة، الآية 279.

الرسول عليه السلام، وصحابته رضوان الله عليهم الذين كانوا يضعون كل ما يملكون بين يدي الرسول لإيمانهم بأن نصرة الإسلام فوق النفس والأولاد والمصالح الفردية. إن ثبات المسلم على المبدأ، واستجابته لنداء الله برهان على صدق إيمانه، وقوة الإيمان كفيلة بأن تحقق للفرد كل ما يطمح إليه مهما كانت الصعوبات والمعوقات المادية. إن تطبيق الأمر الإلهي واجب ديني، وموقف أخلاقي وإنساني.

وجاء التنكير في تراكيب القرآن في موضع يحث فيه الله رسوله الكريم على مواصلة الدعوة، والصبر على المكاره. وتثبيت فؤاد الرسول في هذه المرحلة له دلالة كبيرة، إذ يشعره الله بأنه ليس بدعا من بين الرسل، فما يتعرض له من إذاية وجحود وسخرية ومكر من أعداء الدعوة قد تعرض له رسل قبله، ونالوا ألوانا من الإذاية كانت أشد وأنكى، قال تعالى : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل قبلك** ﴾[1]. لقد كان الرسول الكريم يتألم، وهو يرى قومه ينكرون رسالة النور مع علمهم بأنه أمين وصادق في كل ما يقوله. هذا الإحساس بالألم هوّنت منه عبارة "رسل قبلك" فكانت النكرة أقوى في الدلالة لتقول للرسول : اصبر كما صبر أولو العزم قبلك. كما تفيد هذه النكرة في بلاغتها السامية طرق التوجيه والإعداد للأمر الجليل، وهذه تربية القرآن للرسول وللمسلمين. وقد استجاب الرسول لهذا النداء والتوجيه الرباني، فبلغ الرسالة بصبر، ونال الدرجة الرفيعة في الدنيا والآخرة، وكان خير قدوة في العبادة والسلوك والاستقامة.

ثانياً : التعبير بالحذف :

الحذف ضرب من الأساليب وجد في الشعر والخطابة والأمثال، وفي كتاب الله وحديث رسوله عليه السلام، وهو ظاهرة أسلوبية متميزة في البيان العربي.

وهذه الظاهرة كسائر الظواهر البلاغية والتركيبية تخضع لشروط، ولذلك ينبغي النظر فيها بتأن في القرآن والكلام الفصيح، فما أثبت وما حذف لم يأت عبثاً. وهذا النمط من الأسلوب جاء في كتاب الله دالاً على سمو العبارة، وشرف المعنى، ورصانة التعبير كقوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾[2]. لقد تضمنت الآية دلالة الإرشاد والهداية للمتقين، وهؤلاء مهتدون بما ظهر من صدق إيمانهم. ومن هنا ينبغي النظر في سياق الآية من خلال منطوقها ومحذوفها ليتجلى السر في هذا التركيب الذي بني على الإيجاز. والكلام الجامع لهذا المعنى المعجز هو : هدى للصائرين إلى التقوى بعد الضلال. ولم

(1) سورة فاطر، الآية 4.

(2) سورة البقرة، الآية 2.

تقع الإشارة إلى الضالين، لأن الهدى دالة عليهم، إذ كل مهتد كان من قبل ضالا فهداه الله، وشرح صدره للإيمان. هذا الإيجاز جاء عن طريق الحذف الذي دل عليه السياق.

وقال عز من قائل : ﴿ **ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى** ﴾[1]. إن المتمرسين بالبيان يدركون أن السياق يستدعي بقوة إبراز المحذوف، وهو : لكان هذا القرآن. لكن لماذا لم يذكر ؟ إننا حينما نتأمل البيان القرآني في هذه الآية نجد عدم الذكر يمثل البيان في صميمه، لأنه ينزه التركيب من زيادة لا تضيف للمعنى شيئاً. إن الاكتفاء بالقدر المذكور هو ماكان يصدر من بلغاء العرب، إذ كانوا يعدون الزيادة التي يمكن الاستغناء عنها حشواً. والتعبير بالحذف في كتاب الله تتنوع طرقه، من ذلك الحذف الذي يقصد به المبالغة، وهو حذف يتيح التوسع في تقدير الأشياء على أوجه متعددة، كما أنه يحدث وقعا بالغاً في النفس، لا تجده في التصريح والإثبات. قال السجلماسي : «ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به المعين، فلا يكون له ذلك الوقع»[2].

ومما جاء في الكتاب المعجز يحمل هذه الخصائص البيانية قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾[3].

السياق في الآية الكريمة يقتضي ذكر جزاء "حتى" لكنه حذف لغرض الإيجاز الذي يجعل السامع يسبح بفكره للتأمل في نعيم الله ورضوانه الذي خص به أهل الجنة، وهذا الثواب والرضوان لا يستطيع العقل إدراكهما، والإحاطة بهما جملة وتفصيلاً. «وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف»[4].

والعبارة القرآنية المشحونة بالقدسية، والإيحاءات المعبرة عن السلوك والأخلاق والمثل العليا التي تعارف عليها القوم تدرك بالعقل السليم، والوجدان الفياض، والتأمل الروحي، مع ذوق يميز بينها وبين العبارات المتداولة، ولو كانت صادرة عن البلغاء، لأن هؤلاء برغم مكانتهم في البيان تجد كلامهم يتفاوت تفاوتا بينا، فتارة يسلك مسلك الجزل المتماسك، وتارة أخرى تراه متوسطا أو ضعيفا أو مبتذلا، تنبو عنه النفس ويرفضه الطبع. أما العبارة القرآنية فلا تنزل منزلة بين بين، وإنما هي في كل موضع دالة على

---

(1) سورة الرعد، الآية 31.

(2) المنزع البديع : 190.

(3) سورة الزمر، الآية 73.

(4) الكشاف : 3/410-411.

الإعجاز وسمو البيان. إن لفظة "السوق" التي تكررت في أصحاب الجنة والنار في قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم ﴾ وقوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ سورة "الزمر" المتقدمة، تدرك قدسيتها وجلالها بالنظر في السياق وأحوال المخاطبين. فأصحاب الجنة وأصحاب النار يساقون، لكن شتان بين سوق أولئك وسوق هؤلاء بدليل خطاب القرآن للطرفين في آيات كثيرة. إن أصحاب الجنة لهم مكانة رفيعة عند الله، يلقاهم الملائكة بالترحيب والحفاوة، والسعادة بادية على وجوههم، فلذلك يساقون إلى الجنة بالكلمة الطيبة مثل ما يستقبل ضيف كريم نترقب طلعته، أما أصحاب النار فيساقون بالإهانة والذل والاحتقار والدفع، وهم مقيدون بالسلاسل مثل المجرمين الخارجين عن القانون. وقد غاص الزمخشري بذوقه المرهف باحثا عن دلالة اللفظة في الموضعين، فقال : «فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق ؟ قلت : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى، والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين»[1].

وهذا المعنى يتلاءم مع الآيات البينات التي وصف الله فيها أصحاب الجنة وأصحاب النار. قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾[2]، وقوله : ﴿ فهم في عشية راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾[3]، وقوله : ﴿ خُذُوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[4].

هذه ضروب من الإيجاز في البيان القرآني، تظهر جزءا من التحدي في إعجازه الشامل. وهاهم العلماء في عصرنا الحديث يبحثون في إشاراته الكونية والطبيعية والعلمية التي أثبتها البحث العلمي. وكلما تقدم البحث أصبحت تلك الإشارات قوية ودالة على أن كتاب الله كتاب عقيدة يدعو الإنسان لاستعمال الفكر والعقل للتدبر في أسرار عجائب الوجود، وطبيعة الكائنات الحية، لأن استعمال العقل هو المدخل لتطور العلم.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) سورة القلم، الآية 36.

(3) سورة الحاقة، الآيتان 22-23.

(4) سورة الحاقة، الآيات 23-30.

المبحث الثاني

دلالات الإطناب في البيان القرآني

إذا كان الإيجاز في موضعه بلاغة فإن الإطناب يعد كذلك بلاغة ، ولذلك لم يتوان الفصحاء والبلغاء في الجمع بينهما إذا كان المقام دالا عليهما، فكما يجب على البليغ في مظان الإيجاز أن يوجز، فكذلك ينبغي في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع :

يرمون بالخطب الطوال، وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

ومن أقوال العرب المأثورة التي تدل على أن الضربين أصل من أصول البيان قولهم : «الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل» ومن يدرس تراث العرب الشعري والنثري يجد المعاني البارعة قد صيغت بالأسلوبين معاً. هذه الخصائص الأسلوبية في كلام العرب لها تأثير قوي في الإبداع، لأن الأسلوبين يساعدان المبدع للتعبير عن خواطره وأفكاره بأشكال متعددة من الرؤى. قال حازم يذكر ما للعرب من الاستدلالات والتبحر في المعاني أثناء حديثه عن القوانين البلاغية التي وضعها أرسطو : «ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني، وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها، ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطرادهم، وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية»[1].

وأسلوب الإطناب في القرآن مثل أسلوب الإيجاز، تميز بخصائص بيانية معبرة عن الإعجاز، ووافق خطابه المقام، وبهذا المنهج لم يخرج عما تعارف عليه العرب في بلاغتهم، بسط وتفصيل في غير خطل، وإيجاز واختصار في غير عجز.

ومن هنا يبدو سر البسط والتفصيل في بيان القرآن في قوله تعالى : ﴿ **هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى** ﴾[2].

---

(1) منهاج البلغاء : 69.

(2) سورة طه، الآية 18.

إن الجواب في الآية الكريمة جاء ردا على سؤال وجه لسيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وما تلك بيمينك ياموسى** ﴾. وكان من الممكن أن يقتصر الجواب على قدر السؤال، كأن يقول موسى عليه السلام : عصاي ، أوهي عصاي، ويكون الجواب تاما على قدر السؤال، لكن مثل هذا الجواب في مثل هذا المقام لا يفيد السائل ولايقنعه، وقد يدفعه لوضع سؤال آخر طلبا للزيادة في التوضيح والتفصيل، ومعرفة الغاية من حمل العصا. وتجنبا لتكرار السؤال، ورغبة في إقناع السائل كان البسط في هذه الآية الكريمة مراعاة لأحوال موسى عليه السلام، وللظرف الذي كان فيه. وبرغم أن هذا التعبير المعجز قد ذكر بعض الأسباب، فإنه أضاف عبارة بليغة وجامعة لمعان كثيرة، وهي ﴿ **ولي فيها مآرب أخرى** ﴾ إنها عبارة تجعل السامع يتخيل أشياء كثيرة في الاستفادة من هذه العصا. كما أن هذا البسط لا تخفى دلالته في كيفية معاملة أصناف من الناس، فمنهم الذكي الفطن الذي يعرف خبايا السؤال، فيقنع السائل بجواب شاف، ومنهم القليل الفهم والإدراك، أولا يبالي بالأشياء فيكون جوابه مختلفا أو غير مقنع. ويدخل في هذا البسط أيضا مراعاة العادات والتقاليد والأعراف، ونمط الحياة والفكر السائد في المجتمع.

وجاء البيان في إطناب القرآن لتوضيح أجناس معينة، يلزم بيانها لأن ذكرها بدون قصد قد يجعلها غامضة في ذهن السامع، أو تختلط مع أجناس أخرى، فيكون البسط في هذه الحالة ضرورة بلاغية لإزالة اللبس والغموض. قال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾[1].

البسط في الآية زيادة في بيان الجنس المقصود من الدابة والطائر، فكان ذكر الأرض والجناحين إطنابا، لكنه إطناب من أجل تحديد النوع.

ومن أسلوب الإطناب الذي جاء مراعيا لأحوال المخاطبين قوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر، بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2].

لاريب أن الحديث بتفصيل عن الظواهر الطبيعية التي ذكرتها الآية قصد به تعميم الفائدة لجميع الناس، لأن منهم من ينكر هذه الحقائق إذا أوجز له الكلام، أو يخامره شك وارتياب في قدرة الله على تصريف الأمور والتحكم فيها، فلذلك جاء البيان القرآني مفصلا لها لتكون حجة على الحاضر والغائب.

---

(1) سورة الأنعام، الآية 38.

(2) سورة البقرة، الآية 164.

وإن من ينظر في بيان القرآن بغير تدبر في الأمور التي ترتبط بالمخلوقات وخالقها، وبالأسباب ومسبباتها لحري أن يقع في الوهم، وتختلط عليه الأشياء، فلا يفرق بين صواب وخطأ، وممكن ومستحيل. فلذلك كان مفتاح معاني كتاب الله هو تدبرها بعقل وحكمة، واستحضار معاني الآيات المحكمات والمتشابهات أثناء التفسير والتحليل، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا لكونه متناسقا في مضامينه، سواء كانت آياته غيبية أو تقريرية أو تشريعية. كما ينبغي للباحث أن يستحضر السنة الشريفة فهي مفتاح كتاب الله، والمدخل إلى أنواره، والاستعانة باجتهاد علماء الأمة وسلفها الصالح الذين فتحوا عقولهم وقلوبهم لتدبر معاني القرآن والسنة الشريفة، فاستخرجوا منهما دررا ولآلئ أنارت للمسلمين منهج دينهم وحياتهم. ومن هنا ينبغي عدم التسرع في اعتبار حرف أو كلمة أو عبارة حشوا في القرآن لمجرد أنها تبدو غير مؤثرة في المعنى إذا حذفناها. إن التحدي في كتاب الله كان شاملا في تراكيبه ومعانيه وأخباره. قال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به** ﴾[1] هذا التركيب المعجز الجليل قد يرى فيه المتعجل تكرر المعاني، حيث يمكن الاستغناء عن بعض الألفاظ دون أن يطرأ خلل على سياق الآية الكريمة، وذلك أن الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون لله، والتسبيح تعبير عن الإيمان الصادق، فلماذا زيدت ﴿ **ويؤمنون به** ﴾، والإيمان حاصل سلفاً ؟ هنا يجب التأمل بعمق في البيان القرآني، فما من حرف أو لفظ أو تركيب إلا له معنى ومقصد شريف. والزيادة هنا جاءت للدلالة على معنى محدد، فيه توجيه وإرشاد للمؤمنين، وهو جعل الإيمان والعمل قرينين، لأن الأعمال لا تكتمل إلا بالإقرار بالإيمان باللسان والفعل، والإيمان شرف وفضل على كل الأعمال كيفما بلغت درجتها في الكمال. ومن هنا كانت هذه الزيادة هي البلاغة عينها، وهي الجزء الذي أعطى قوة للمعنى حيث يوجه المؤمنين للجمع بين صدق الإيمان، والعمل الصالح. قال السكاكي : «ووجه حسن ذكره إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه»[2].

وكذلك نجد الإطناب في التوجيه الرباني في قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾[3].

إن الإيمان والعمل الصالح هما أساس التقوى، وقد اقترنا لبيان أن أحدهما يكمل الآخر. والزيادة هي قوله تعالى : ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ وهي تتميم

(1) سورة غافر، الآية 7.

(2) مفتاح العلوم : 282.

(3) سورة محمد، الآية 2.

للإيمان، لأن عدم الإيمان برسالة محمد عليه السلام يبطل كل إيمان وكل عمل. وهذا بيان لفضل رسالته عليه السلام على سائر الرسالات، لأن الإسلام دين للبشرية جمعاء، صحح مافي الرسالات السابقة من تحريف وغلو، ووضع للبشرية النهج القويم الذي راعى مصالحهم في كل زمان ومكان. ومما يلاحظ في الآية الكريمة من الناحية البيانية أن التخصيص جاء بعد ذكر الأعم، وهذا الأسلوب يكتسب بلاغته بالتركيز على الغرض المقصود. قال السجلماسي في بيان هذا النهج من الأساليب عند العرب : «نهج من أساليب النظوم البلاغية وأفانين البديع»[1].

ولذلك نجد في بيان القرآن هذا الأسلوب البديع في آيات كثيرة لبيان فضل الشيء أو تخصيصه كقوله تعالى : ﴿ **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل** ﴾[2].

جاء تخصيص جبريل وميكائيل بعد التعميم لبيان مزيتهما وشرفهما وفضلهما.

وفي مثل هذا الأسلوب يأتي تقديم الجزئي على الكلي لإفادة الغرض البياني نفسه الذي يتحقق بتقديم الكلي على الجزئي. وقد يكون الكلي بمفرده لايفيد الفائدة المطلوبة، ولايوفي بالغرض البياني، فيأتي الجزئي مساعدا على بيان الكلي. قال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين، ونبلو أخياركم** ﴾[3].

ذكر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **المجاهدين** ﴾ ثم ﴿ **الصابرين** ﴾، والمجاهدون هم الأخص بالذكر لإشعار المسلمين بفضل الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، وتثبيت الشريعة. أما الصابرون فهم المجاهدون أنفسهم، اوفئة منهم تبلو بلاء حسنا في القتال والصبر على المكاره، فلذلك كان هذا الجزئي ضروريا لبيان ما يتحلى به المجاهدون من صفات نبيلة، وهي الصبر على مكروه القتال وشدته في سبيل الله.

وفي التركيب البياني العربي مصطلح سموه "حشواً" لأنه إطناب زائد لغير فائدة، وقد يكون كذلك إذا لم ينح الكاتب بالمعاني مناحي الإبداع والتعجيب، إلا أن الحشو قد يأتي في تراكيب بليغة، فيكون أجود من كثير من أصول الكلام. وحذفه من موضعه قد يغير الصورة البيانية من كمال بهائها إلى كلام تقريري لا ترى فيه تناسقاً واستواء.

قال عبد القاهر الجرجاني : «وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع، ومدركاً من الرضى أجزل حظ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه مجيء مالا

(1) المنزع البديع : 327.

(2) سورة البقرة، الآية 98.

(3) سورة محمد، الآية 31.

يعول في الإفادة عليه، ولا طائل للسامع لديه، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها، والنافعة أتتك ولم تحتسبها»[1].

هذا الرأي في الحشو صدر عن شيخ البلاغيين، وأعلم الناس بالأساليب والبيان، وبأسرار إعجاز كتاب الله.

وإذا نظرنا فيما حققته من مبالغة لفظة "ظالمين" في قول الشاعر وهي حشو، يبدو لنا صحة هذا الرأي :

صببنا عليها ـ ظالمين ـ سياطنا　　　فطارت بها أيد سراع وأرجل

قد يمكن الاستغناء عن هذه اللفظة، ولايطرأ على المعنى تغيير، لكن حذفها سيكون تعبيرا عن الجهل بالبيان وأصوله، لأن هذا الحشو هو المبالغة المستحسنة، والزيادة المطلوبة في البيان. قال ابن رشيق : «حتى علمنا ضرورة أن إتيانه بهذه اللفظة التي هي حشو في ظاهر الأمر أفضل من تركها»[2].

بمثل هذه الرؤية ينبغي النظر في حشو شعر الفحول، ونثر البلغاء، وأحسن منه أن ينظر فيما جاء في كتاب الله الذي هو حجة في البيان، يفوق ماجاء في سائر كلام البلغاء.

وقد سمى البلاغيون الحشو تتميماً[3] واعتراضاً[4]، وهي مصطلحات تفيد الزيادة التي تنزه الكلام عن التقصير. وبهذه الصفة تصبح عمدة في الكلام. ومنه ماجاء في قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام، على حبه، مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾[5].

إن قوله تعالى : ﴿ **على حبه** ﴾ زيادة لكنها بليغة وطريفة حققت مبالغة في المعنى. وذلك أن الذي يطعم المسكين واليتيم والأسير والمحتاج من الشيء الذي يحبه ويشتهيه ويكون في أشد الحاجة إليه، ولاسيما في زمن العسر والشدة يعبر عن موقف نبيل وشريف ونكران للذات. ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **أو إطعام في يوم ذي مسغبة** ﴾[6]. ولذلك كانت العرب في جاهليتها تفتخر بهذه المواقف النبيلة، قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى　　　لا ترى الآدب فينا ينتقر

---

(1) أسرار البلاغة : 14.

(2) العمدة : 675/1.

(3) التتميم، أن يحاول المتكلم معنى فلا يدع شيئاً يتمم به حسنه إلا أورده.

(4) الاعتراض، هو إرادة المتكلم وصف شيئين، الأول منهما على القصد، والثاني لضرب من التأكيد.

(5) سورة الإنسان، الآية 8.

(6) سورة البلد، الآية 14.

ونجد مثل هذه الزيادة البيانية التي تضفي على المعنى مبالغة مستحسنة في قوله تعالى : ﴿ **من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة** ﴾[1]. إن قوله تعالى : ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ تتميم بليغ أفاد فائدة جليلة في العقيدة، مثل ما رأينا في سورة "محمد" حيث قرنت الآية بين العمل الصالح والإيمان، وجعلت كل واحد منهما يطلب الآخر.

وبعض البلاغيين رأى "الاعتراض" زيادة غير مؤثرة في الأسلوب من جهة المعنى[2]. وهذا الرأي لايمكن تعميمه على سائر الأساليب سواء كانت صادرة من البلغاء، أو وردت في البيان القرآني. ولهذا نرده ولو كان صادرا من بلاغي كانت له جهود طيبة في الدرس البلاغي وهو السكاكي حيث اعتبر الاعتراض في قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة** ﴾[3] مجرد زيادة يمكن الاستغناء عنها. ولكننا حينما نمعن النظر في هذا الاعتراض نجده يندرج في البيان لكونه نفى نفياً مطلقاً أن يحقق الجاحدون هذا الفعل مهما بلغت قدراتهم في البيان، فكان هو التحدي الذي برهن على صدق رسالة محمد عليه السلام، وجعل العرب يقرون بأن القرآن ليس كلام البشر.

إن النظر في أسلوب القرآن خاصة، وأساليب البلغاء عامة، ينبغي أن يكون مصحوبا بالتروي، والرؤية الفاحصة لقواعد البيان التي بنى عليها العرب كلامهم، فكثير من هذا الكلام لا تكتشف وجوهه ومحاسنه إلا بالبحث في الجزئيات والعلاقات التركيبية الدقيقة، لأن الدلالة في البيان العربي تذهب مذاهب متشعبة وخفية، فقد تكون التفاتا أو تعطفا أو تفسيرا أو تتميما أو اعتراضا، أو غيرها من الفنون التي عني البلاغيون بدراستها. ومعرفتها في البيان العربي والبيان القرآني خاصة مرتبطة بخصائص التراكيب الدقيقة في اللغة العربية، وبإشارات العلماء المضيئة لهذا البيان.

(1) سورة غافر، الآية 40.

(2) من هؤلاء البلاغيين السكاكي، انظر مفتاح العلوم : 428.

(3) سورة البقرة، الآية 24.

المبحث الثالث

دلالات وعبر أسلوب الحوار في القرآن الكريم

أسلوب الحوار من الأساليب التي تتميز بخصائص معينة، واستعمال طرق محددة لتحقيق الهدف من الحوار. وذلك أن هذا الأسلوب يكون بين طرفين قد يقتربان في المفاهيم والرؤى، وقد يختلفان في ذلك. وتميز هذا الأسلوب من بقية الأساليب الأخرى يكمن في أن القضايا التي تطرح فيه تكون شائكة ومتعددة، وغالباً ما تكون موضع خلاف بين الأطراف المتحاورة، لأن القضايا التي يتحاور من أجلها قد تكون دينية أو اجتماعية أو سياسية أو مذهبية، فلذلك تجد كل طرف يحاول إقناع الآخر بصواب فكرته، وصحة مذهبه. وبقدر ما يتوفر كل محاور على المهارات والقدرات والبراهين والحجج العقلية المقنعة يكون تأثيره قويا في استمالة الطرف الآخر إلى فكرته، ويحقق النتائج التي يسعى إليها من حواره.

وهذا الأسلوب ليس جديدا في الفكر الإنساني، فهو من الأساليب التي اعتمدها الإنسان منذ عرف لغة التواصل التي حل بها مشكلاته وخلافاته مع الآخرين. وقد نما هذا الأسلوب وازدهر في المجتمعات التي نالت حظا من المعرفة العقلية والفكر المنظم، والمؤسسات الاجتماعية والسياسية التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات. ولعل فلاسفة اليونان كانوا أوائل من استعملوا هذا الأسلوب من أجل نشر المعرفة، وتنظيم المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي ازدهرت في المجتمع اليوناني. وكان سقراط وتلميذه أفلاطون من الذين اعتمدوا هذا الأسلوب لتبليغ المعرفة، وتنظيم الفكر، وضبط المنهج الذي يوصل إلى الحقائق اليقينية. ومحاورات سقراط مشهورة حتى إن منهجه في الحوار أصبح من الطرق التربوية والتعليمية المتبعة في مناهج التعليم.

والقرآن الكريم الذي أحكمت آياته لتكون تبيانا لكل شيء : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[1]، من الطبيعي أن تتنوع أساليبه، وتتعدد تراكيبه، لاسيما إذا علمنا أنه خاطب قوما كانوا قد بلغوا المرتبة العالية في

(1) سورة النحل، الآية 89.

الفصاحة والبيان. وأسلوب الحوار والجدل من هذه الأساليب التي تعددت فيه لكونه خاطب أقواما اختلفت عقليتهم وعقيدتهم، فمنهم من كان وثنيا يؤمن بتعدد الآلهة التي تقربه إلى الله زلفى، ومنهم من كانوا أصحاب كتاب مثل اليهود والنصارى. وكل فئة من هؤلاء قد رسخ في عقلها ما وجدت عليه آباءها، فلذلك عمد كتاب الله إلى حوار كل فئة من الجهة التي يبين لها زيف عقيدتها، وما وقع فيه الآباء من تحريف وتزييف للحقائق. فالجاهلي يحتاج إلى أسلوب وحوار أقرب إلى عقله ونفسه، يظهر له أن الأصنام التي يعكف عليها لا تنفع ولا تضر لأنها فاقدة للحياة والإرادة : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدوني فلا تنظروني** ﴾[1].

أما اليهود والنصارى فكانوا على علم بمجيء آخر الرسالات السماوية على يد خاتم الرسل محمدﷺ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[2]، لكنهم أصروا على الكفر والضلال حسدا من عند أنفسهم : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير** ﴾[3].

ولذلك كان حوار أهل الكتاب بالدعوة إلى ما بشرت به الكتب السماوية، وهو توحيد الله وعدم الإشراك به : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[4].

وبرغم خطاب الله لهذه العقليات المختلفة فان منهجه في الحوار ارتكز على ثوابت واضحة، بينتها الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[5].

هذه الثوابت القائمة على العقل والحكمة والجدال بالكلمة الطيبة هي التي تخلق المودة والمحبة بين الناس كيفما كانت ميولهم وعقيدتهم.

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان 194-195.

(2) سورة البقرة، الآية 145.

(3) سورة البقرة، الآية 108.

(4) سورة آل عمران، الآية 63.

(5) سورة النحل، الآية 125.

وسنشير إلى نموذج من هذا الحوار الذي تمثلت فيه هذه السبل في الدعوة إلى الله بالعقل والحكمة والصبر من حوار موسى عليه السلام لبني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوءا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال انه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾[1].

هذه الآيات البينات جزء مما حكاه الله من قصص بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام. لقد قص الله هذه الأخبار لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليثبت بها فؤاده من أجل مواصلة الدعوة، والصبر على ما يجده في طريقه من متاعب، وليظهر له أن الرسل قبله كذبوا وعذبوا، فلم يكن الطريق أمامهم سهلاً. كذلك يجد المؤمنون في هذه الأخبار أنموذجا من السلوك الذي ينبغي تجنبه مع الرسول الكريم، وفيما بينهم، لأن نتائجه تكون هي الخذلان والخسران كما حدث لبني إسرائيل.

أسباب نزول الآيات :

عرف بنو إسرائيل بسلوكهم الشاذ مع الرسل، وهذا الحوار يبين جانبا من سلوكهم مع نبي الله موسى عليه السلام، ومما عرفوا به من تمرد وعصيان. والموضوع الذي يدور فيه هذا الحوار ينحصر في جريمة قتل، وقد أراد الله أن يكشف لهم القتلة، ويؤكد لهم أيضا حقيقة البعث حينما يذبحون بقرة ويضربون بأطرافها الميت، فتعود له الحياة، ويخبرهم بالقاتل. وبما أنهم قوم عرفوا بتكذيبهم للرسل فقد كذبوا موسى عليه السلام، حينما أخبرهم بأمر الله في هذا الموضوع، واعتبروه استهزاء بهم واستخفافا بعقولهم، فكان هذا الحوار الذي ينطوي على دلالات وحكم وعبر يعتبر بها كل ذي عقل.

خصائص هذا الحوار :

إن المضامين التي تستنتج من أسلوب الحوار قل أن نجدها في أساليب أخرى، وذلك أن هذا الأسلوب يكشف أنماطا من السلوك والتفكير، وكذا النمط الحضاري أو

(1) سورة البقرة، الآيات 66-70.

البدائي الذي يعيش فيه أولئك الأفراد. وهذا الحوار يكشف علاقة موسى عليه السلام بقومه بني إسرائيل من جانب طبيعة تفكيرهم وسلوكهم ومدى استجابتهم لأوامر الله. لقد ابتدأ الحوار بتبليغ موسى أمر الله لبني إسرائيل : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾، ثم زاد في تأكيد هذا الأمر بقول الله تعالى : ﴿ **فافعلوا ما تؤمرون** ﴾. إن بني اسرائيل قد شاهدوا الآيات البينات على يد رسولهم، فكان من الواجب ألا يجادلوا في أمر الله، لأن الله لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، وهو الخبير بأسرار النفوس، وبمصالح العباد، لكن القوم تعودوا على العصيان والتمرد، وتكذيب أنبياء الله، فكان ردهم معبرا عن فظاظتهم وغلظة قلوبهم وسوء أدبهم مع الأنبياء ﴿ **قالوا أتتخذنا هزوءا** ﴾ كيف يمكن أن يستهزئ رسول بقومه، وقد أمر بتبليغ أوامر الله، والرسل معصومون من الكذب، ثم إن بني اسرائيل شاهدوا نعم الله على يد موسى عليه السلام ﴿ **يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين** ﴾[1]. وما جاء الرسل للاستخفاف بعقول الناس، وإنما جاءوا رحمة بهم، ومعهم البينات على صدق رسالتهم ﴿ **ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾[2].

وحكمة موسى عليه السلام تبينت في كونه لم يرد عليهم بمثل سوء أدبهم، لأن الرسل مأمورون بالحلم واللطف، واستعمال كل الأساليب التي تقنع الناس، وتظهر لهم جهلهم، ولهذا رد عليهم موسى عليه السلام بأدب وأخلاق الرسل ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ هذا الرد يمثل النموذج الأمثل في حوار المتشككين والمترددين، كما أنه تنبيه لكل داع إلى الله، إذ لا ينبغي أن يتصف بصفات الجاهلين في غلظتهم وسوء أدبهم، وإنما يدعو إلى الله بالحكمة والكلمة الطيبة وسعة الصدر.

وكان من الطبيعي أن يفكر بنو اسرائيل، بعد سماعهم هذا الرد الهادئ، في أمور تجعلهم يتهربون من المسؤولية. فلهذا أوجدوا أسبابا وذرائع القصد منها هو عدم تمكنهم من معرفة البقرة التي طولبوا بذبحها، فكان بينهم وبين نبي الله هذا الحوار الذي هو عبارة عن جدال عقيم يكشف عن مكرهم الذي عرفوا به، فطلبوا تحديدها ﴿ **إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك** ﴾ وطلبوا تحديد لونها ﴿ **إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين** ﴾ لكن كل هذا لم ينفع معهم، وادعوا أن البقر تشابه عليهم ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون** ﴾. لكن الله يأبى إلا

---

(1) سورة البقرة، الآية 121.

(2) سورة الحديد، الآية 25.

أن يكشف نواياهم، فيزيد في تحديد صفة هذه البقرة ﴿ **قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها** ﴾. وبرغم اقتناعهم بقولهم ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾. فإن هذا الاقتناع لم يكن نابعا من قلوبهم، وذلك يظهر في قول الله ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾.

هذا الحوار المليء بالمراوغة والخداع من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام نستنتج منه فوائد جليلة في الجانب الاجتماعي والفكري وفي العلاقات بين الحكام والمحكومين. ويمكن أن نحدد هذه الاستنتاجات في الآتي :

أولاً : إن الحوار الذي تنعدم فيه الثقة بين الرائد والرعية لا يمكن أن يحقق نتائج إيجابية مهما سعى طرف واحد في تحقيق ذلك.

ثانياً : إن الحوار مع الغلاة والمتشددين في العقيدة أو في أعراف المجتمع أو في النظام السياسي هو حوار لا يجدي نفعا، وفي تاريخ كل الأمم والشعوب ظهرت جماعات متشددة فلم ينفع معها شيء، لأن فكر هؤلاء ينطلق أساسا من الخروج على ما أجمعت عليه الأمة. وفي تاريخ الاسلام ظهرت جماعات من هذا النوع مثل الخوارج والزنج والقرامطة، فقد ظلوا خارجين عن الجماعة، ولم ينفع معهم حوار حتى أبيدوا.

ثالثاً : إن كل ما جاء في كتاب الله من حوار وأخبار وقصص يرشد المؤمنين إلى النهج القويم الذي ينبغي أن يسلكوه في حياتهم. والحوار الذي رأيناه يبرز التشدد والاكثار من الأسئلة التي لا تجدي نفعاً. وجاء في الحديث : «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته».

وعن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، وكان أعدل الناس أنه قال : «إذا أمرتك أن تعطي فلانا شاة سألتني أضائن أم ماعز، فان بينت لك قلت : أذكر أم أنثى، فإذا أخبرتك قلت : أسوداء أم بيضاء. فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني».

رابعاً : إن العلاقات بين الأفراد والجماعات في المجتمع الإسلامي، ومع المجتمعات غير الإسلامية تحكمها ضوابط التعاون والتعارف والتسامح وإسداء النصح بالكلمة الطيبة التي تلين القلوب، وتزيل الضغائن. ولذلك ينبغي تمثل كل حوار في كتاب الله من هذا الجانب الذي يفيد المسلمين في حياتهم الدنيا والأخرى.

خامساً : إن الصحابة، رضوان الله عليهم، استوعبوا هذه الدروس، فكانت علاقتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع بعضهم تتسم بهذه الأخلاق في التعامل الذي دعا إليه الاسلام.

سادساً : إن دعوة الاسلام إلى التزام طاعة أولياء الأمور، إذا طبقوا شريعة الله عدلا وسلوكا ومنهجا في الحياة، تسير في هذا الاتجاه الذي يعمل على وحدة المجتمع الإسلامي، وشد أزره، والحفاظ على مكوناته. ولذلك وجب على الرعية الاستماع إليهم، والعمل برأيهم مثل ما رأينا في حديث عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، إذا رأوا منهم ما يصلح الأمة في دينها ودنياها.

هذا ما يمكن استنتاجه من هذا الحوار، وكتاب الله مليء بالدلالات والحكم والعبر التي تنير للمسلمين سبل حياتهم، وتجنبهم ما وقعت فيه الأمم السابقة من ضلال كان سبب هلاكهم.

المبحث الرابع

لطائف المعاني في تراكيب الفصل والوصل في الآيات البينات

«ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1].

يعد كتاب الله خزانا للتعابير اللطيفة، والمعاني المحكمة، والصور البديعة التي عبرت عن مختلف المعاني والأغراض التي هدت الناس إلى الإيمان، والى إصلاح أحوالهم في حياتهم الدنيا. هذه التعابير والأغراض جمعت صنوفا من الأساليب وفنونا من البيان التي جاءت في قصائد الأعراب المطولة، وفي أمثالهم السائرة، وخطبهم المحكمة. لكنها تميزت في القرآن الكريم بنمط فريد في التعبير البياني، وفي تصوير المشاهد، وتبليغ المعاني للمتلقي بدون إشكال أو غموض، لأنها عبرت عن أغراض ومقاصد نبيلة، تهدف إلى تثبيت الإيمان في نفوس الناس، وإصلاح سلوكهم وأحوالهم الاجتماعية، كما جاءت لتوجههم إلى سبل الخير والصلاح التي تسعدهم في دنياهم وأخراهم. ولذلك رأى فيها الإنسان الجاهلي الذي هداه الله إلى نور الإيمان ما لم يره في الأشعار التي كانت تملأ سمعه وتسكن وجدانه من قبل. فهذه الأشعار برغم ما فيها من بيان وحكم وأمثال فان أكثرها يدعو إلى الافتخار الزائف، والتعالي والكبرياء بالأنساب والآباء، ونصرة الظالم، وإشعال الحروب والصراعات القبلية التي تفرق شملهم، وتضعف قوتهم، وتخلق بينهم الضغائن والأحقاد. أما بيان القرآن فرأوا فيه سبيل النجاة مما هم فيه من ضلال وتفرقة وصراع كاد يهلكهم. وقد عبر القرآن الكريم عن حالتهم التي كانوا عليها قبل الإسلام، فقال عز من قائل : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[2].

---

(1) الكشاف : 189/1.

(2) سورة آل عمران، الآية 103.

ولا ينكر أي باحث للغة العربية و للبيان العربي أن لغة الأعراب كانت قد بلغت سموا في التعبير قبل مجيء الإسلام، إذ استعملوا من الأساليب ما يدل على أن بيانهم ولغتهم اكتملت في دلالاتها وتراكيبها وأصواتها، لكنها حينما جاءت في كتاب الله اكتسبت شرفا زائدا، وعلوا كبيرا، وبلغت أسمى المراتب مما جعلها تتحدى هؤلاء الأعراب الخلص الذين نشأوا في حضن الفصاحة والبيان. قال عز من قائل : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[1]. وأن تصبح هذه اللغة التي اقتصرت على الشعر والخطابة لغة العلم والتأليف والبحث والإدارة والدواوين، فاكتسبت بذلك مكانتها حتى أصبحت في عصرنا الحاضر لغة عالمية بكل المقاييس والضوابط العلمية للغات الحية.

إن بيان القرآن ولغته ومعانيه لم تتناول القضايا الدينية فحسب وإنما تناولت أيضا الجوانب الأخلاقية والتربوية والاجتماعية والنفسية، وكل ما يهم المجتمع الإسلامي من تشريعات وأحكام وقوانين. كل ذلك كان بلغة عربية بلغت آية في الإحكام والتفصيل والتدقيق : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[2].

لكن وجوها كثيرة بيانية واجتماعية وتربوية وعلمية ما زالت تختزنها الآيات البينات، وكلما تقدم الزمن تضوع عطرها الفواح ليهدي الإنسانية لسبل الخير والاعمار والإصلاح.

وسنرى في تراكيب "الفصل والوصل" في الآيات البينات ظاهرة أسلوبية اعتبرها البلاغيون محك البلاغة، وحلبة السباق لكل من أراد أن يبرز ويعلو شأنه في هذا الميدان. قال السكاكي : «وإنها لمحك البلاغة، ومنتقد البصيرة، ومضمار النظار، ومعيار قدر الفهم، ومسبار غور الخاطر، ومنجم صوابه وخطائه، ومعجم جلائه وصدائه. وهي التي إذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلى»[3].

لهذه الأسباب كان العرب الخلص يعنون برسائلهم، فكانوا يظهرون فيها حذقهم وبراعتهم في القدرة على تفصيل الكلام، وتلاؤم أجزائه ومقاطعه، تجنبا للخلل بين العبارة والعبارة، والجملة والجملة. ذكر معاوية، رضي الله عنه، أنه شهد رسول الله ﷺ يملي على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كتابا فكان عليه السلام «يتفقد مقاطع

---

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

(2) سورة هود، الآية 1.

(3) مفتاح العلوم : 249.

الكلام كتفقد المصرم صريمته». والرسول عليه السلام كان أبلغ الناس، فقد أوتي جوامع الكلم، وبدائع الحكم، وأحاديثه الشريفة مضرب المثل في البلاغة والفصاحة والحكم والأمثال السائرة.

وظل العرب حتى بعد اختلاطهم بالأعاجم يحرصون في رسائلهم على أن تكون متواصلة المقاطع والأجزاء، لأن في ذلك تعبيرا عن سلامة ألسنتهم من الإحالة وعيوب التراكيب التي انتشرت بين الناس آنذاك، فهذا أبو العباس السفاح كان يقول لكاتبه : «قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإياك أن تخلط المرعي بالهمل».

أين تكمن البلاغة في هذه الظاهرة الأسلوبية ؟

هذه الظاهرة الأسلوبية تتحدد بلاغتها في إثبات حرف العطف بالواو أو حذفه، لأن وجوده في الجمل أو عدم وجوده ـ إذا لم يكن للجملة المعطوفة محل إعرابي ـ يبين دقة المعاني وسلامة التراكيب. فقد يثبت الواو والمعنى لا يحتاج إليه، وقد يحذف والمعنى في أشد الحاجة إليه. أما حروف العطف الأخرى فإن من عرف معانيها سهل عليه معرفة مواضعها.

وإذا كان "الفصل والوصل" يبلغ هذا المسلك من الدقة في المعاني والأساليب والتراكيب فإن مفسر كتاب الله ينبغي أن يكون حريصاً على معرفته لإدراك الوجوه البيانية في كتاب أحكمت آياته، وتحدى جهابذة القول في عصرهم. وهذا الحرص ينبغي أن يكون هدف كل مسلم ليعرف دينه وحضارته وتراثه ولغته التي تستحق أن يبذل فيها كل جهد، لا لأنها لغة الدين فقط وإنما لأنها أيضا أعرق اللغات الإنسانية التي طورت العلوم وحافظت عليها طيلة قرون عديدة، وأسهمت بشكل كبير في إرساء معالم الحضارة الحديثة بما ترجم منها من علوم لم تكن في لغات أخرى، ولولاها لضاع علم وفكر وأدب ما كان للإنسانية أن تدركه بسهولة.

والنظر في الآيات البينات في هذا الفن من البلاغة يقودنا إلى معرفة جزء قليل من عبقرية هذه اللغة في أسلوب التواصل والترسل والكتابة، إنها اللغة التي تحدت الزمان والمكان والعصور المظلمة لتكون من اللغات العالمية في العصر الحديث، ولتصبح لها مكانتها في الجامعات والمعاهد العلمية. ومن أساليب هذا الفن أي الفصل والوصل، قول الله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزئ بهم** ﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 14-15.

في الآيتين الكريمتين يبين الله سبحانه وتعالى سلوك المنافقين وأمثالهم من الشياطين مع المؤمنين. لقد أظهر الله مكرهم وما كانوا يخفون في صدورهم من حقد للمسلمين وكراهية للإسلام، وهذه الصورة ظهرت من خلال وضع الجمل في التركيب والروابط التي اشتمل عليها، فهم حين يلتقون بالمؤمنين يعبرون بتعبير يخالف التعبير الذي يصدر منهم لإخوانهم الشياطين. ويمكن أن نلاحظ اختلاف الحوار فيما بينهم، ومع المؤمنين في الوجوه الآتية :

أولاً : إن الخطاب في الآيتين يظهر حوارا بين فئتين على طرفي نقيض في العقيدة، الأولى مؤمنة صادقة، والثانية كافرة منافقة، تبطن خلاف ما تظهر، وهذه الفئة نموذج من أصناف الناس الذين يظهرون في المجتمعات في كل زمان ومكان، وخطرها يكون قويا في تفكيك المجتمع وانهياره. ولكي يبرز التعبير القرآني ما تخفي هذه الفئة في صدورها من ضغائن على المسلمين تغير خطابهم، فهم حين لقوا المؤمنين ﴿ **قالوا آمنا** ﴾، وهي جملة فعلية تخلو من التأكيد، وحين اجتمعوا مع إخوانهم الشياطين الذين هم على دينهم، ويشاركونهم في كراهية الإسلام ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾، وهذه جملة اسمية مؤكدة. والغاية من اختلاف التعبيرين هو بيان ضعف إيمانهم، وإمعانهم في الكفر والنفاق، وكراهية الإسلام.

ثانياً : لقد أكد الله سبحانه وتعالى نفاق هذه الفئة وكراهيتهم للمسلمين بجملة اسمية أخرى تحتوي على أداة حصر ﴿ **إنما نحن** ﴾ وهذا تأكيد بأنهم ماضون في مواقفهم، لا يثنيهم شيء عن ذلك، لأن ما يضمرون للمسلمين من حقد وكراهية مستحكم في قلوبهم.

ثالثاً : هذا النفاق والاستهزاء من هذه الفئة بالمؤمنين قوبل باستهزاء أبلغ وأشد من الله بهم حيث قال تعالى : ﴿ **الله يستهزئ بهم** ﴾. وهذه الجملة أفادت عدة أشياء منها :

أ) إن استهزاء هؤلاء المنافقين بالمسلمين غير خاف على الله الذي يطلع على خبايا الصدور.

ب) إن الله كفى المؤمنين القيام بهذا الأمر، لأن استهزاء الله بهم سيكون أقوى وأشد في الدنيا، وفي الآخرة يلقون أشد العذاب.

ج) جاءت الجملة بدون عطف على الجملتين السابقتين ليكون حكمها مخالفا لحكم ما سبق، إذ العطف يقتضي المشاركة في المعنى. وبيان ذلك أن قوله تعالى : ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ مختصة بالظرف المقدم، فلو تم العطف عليها لشاركتها في الحكم. وقوله تعالى : ﴿ **إنما نحن مستهزءون** ﴾ هو

قول صادر عن المنافقين، فلا ينبغي أن يكون قوله تعالى : ﴿ **الله يستهزئ بهم** ﴾ معطوفة عليها، إذ لو تم ذلك لشاركتها في الحكم أيضاً.

د) إن سياق المعنى في الآيتين الكريمتين يقتضي بيان مصير المنافقين، فكان من تمام البلاغة والبيان أن يذكر الله تعالى العقاب الذي يستحقونه جزاء لأفعالهم، وهو استهزاء الله بهم في الدنيا، وعذابهم في الآخرة.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **الله يستهزئ بهم** ﴾ تحققت فيها مزايا بلاغية وبيانية في نهاية الكمال، منها الاستئناف، كما أفاد الفعل التجدد والاستمرار لبيان ما سيلقون من الله. قال الزمخشري : «هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله، عز وجل، هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل. وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله»[1].

وقال الله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين يخادعون الله** ﴾[2].

الشاهد هنا في قوله تعالى : ﴿ **يخادعون الله** ﴾، لم يثبت حرف العطف لأن سياق المعنى يقتضي الفصل. وذلك أن الكلام المتقدم يبين أن ما يصدر عن هذه الفئة من أفعال وسلوك يخالف ما يعبرون به بألسنتهم، فاقتضت البلاغة أن تأتي الجملة ﴿ **يخادعون الله** ﴾، تأكيداً لقولهم السابق آمنا، لأنها لاتعبر عن صدق إيمانهم، وإنما هي مجرد قول بأفواههم يخالف ما في قلوبهم. وإذا كانت الجملتان داخلتين في حكم واحد فلا تحتاجان إلى رابط.

وقد بلغ التعبير البياني في كتاب الله أوجه الكمال، والدرجة التي لا يطمح إليها البلغاء والفصحاء مهما علا شأنهم في البيان في قوله تعالى : ﴿ **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[3].

هذه الجمل المتراصة والمتناسقة فيما بينها جاءت بهذا الترتيب العجيب، يأخذ بعضها ببعض بدون حرف عطف، لأن نسقها البياني لا يتكامل إلا بهذا التركيب الذي يحقق للمعنى كل أوجهه المطلوبة بواسطة فصل بعضها عن بعض.

---

(1) الكشاف : 187/1-188.

(2) سورة البقرة، الآيتان 7-8.

(3) سورة البقرة، الآيتان 1-2.

إن قوله تعالى ﴿ **لا ريب** ﴾ لم تعطف على ﴿ **ذلك الكتاب** ﴾، لأنهما يحققان معنى واحداً، وهو أن هذا الكتاب الذي نعت بغاية الكمال في معانيه وأخباره ولغته، نزل من عند الله الخبير بكل الأمور، وكل ما فيه صدق وحقيقة لا ينبغي الشك فيهما «فكان تقريرا لجهة التحدي وشدا من أعضاده»[1].

وحينما قال تعالى : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾، بعد الإشارة إلى ذلك الكتاب بالسمو والكمال فان الله يؤكد به هذه الحقيقة التي لا تراجع فيها، لأنه كامل من جميع الأوجه والصفات في مضامينه وصياغاته، فكان بذلك «شهادة وتسجيلا بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة»[2]. فتم كماله بهذا النفي. ثم قال تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ بدون عطف أيضا لتزيد في تقرير هذه الحقيقة، وهي تنزيهه عن الريب والشك. وإذا كانت هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يؤمن بها كل مسلم فهو كامل الهداية والإرشاد والتوجيه الصالح لسبل الخير، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «تقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[3].

أما إذا كان الكلام يحتاج إلى رابط لوجود تناسب واشتراك بين جملتين في المعنى والحكم حتى تبدوا كالنظيرين اللذين لهما وشائج وروابط فان البلاغة تقتضي وصلهما، فيصبح الوصل آنذاك ضرورياً في التركيب وإلا ظهر خلل في المعنى والسياق. وكتاب الله حقق التعبير الأسمى في مثل هذه التراكيب البيانية مثل قوله تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾[4]. إن المكر الثاني هو نظير وشريك للمكر الأول، وإن كان مكر الله أشد وأقوى، وليس كمكر الكافرين بدليل قوله تعالى : ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾، فوجب الربط بينها لهذا التشارك. وقال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾[5]. إن اليهود والنصارى يشتركون في موقف واحد وهو عدم الرضى عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم، فلذلك كان الوصل بينهما على جهة ترابط المعنى والقصد بين الطرفين، إذ هما معا يشتركان في موقف واحد، ويميزهما نحو المسلمين مبدأ وسلوك لا يختلفان فيه. وقوله تعالى : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم**

---

(1) الكشاف : 122/1.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) سورة آل عمران، الآية 35.

(5) سورة البقرة، الآية 119.

ولا هم يحزنون ﴾[1]. إن انتفاء الحزن والخوف عن المؤمنين شيء حاصل لا محالة رضى من الله سبحانه وتعالى بهذه الفئة التي أخلصت في إيمانها، ولذلك فهما كالشريكين والنظيرين في تحقيق هذا الغرض وهو انتفاء الخوف والحزن عنهم.

وهكذا إذا تتبعنا الآيات البينات في "الفصل والوصل" نجد التراكيب فيها متناسقة مع المعاني، لأن الزيادة ولو كانت حرفا واحدا في غير موضعه تعد حشوا فارغا، وهذرا من القول، وإغماضا للمعاني، أو تحريفا لمقاصدها، وكتاب الله منزه عن التقصير والغموض والإشكال كيفما كان نوعه، فكل جملة فيه أو عبارة أو حرف وضع لتحقيق مقاصد دينية وخلقية وإصلاحية وتربوية لا يبليها الزمان ولا تتغير بتغير العصور، لأنه كتاب هداية وعبادة وإصلاح لجميع البشر، ولذلك يجب النظر في الآيات البينات على جهة تدبر معانيها ومقاصدها من الوجوه التي قصدتها الشريعة السمحاء، وهي الخير والهداية للناس كافة. قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[2].

والتدبر بالعقل والحكمة، وما جاء في الأثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام، والصحابة، رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح ، هو الذي يقود المسلمين لمعرفة أسرار هذا الكتاب الذي لم يفرط فيه الله في شيء يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾[3].

وكل ما جاء فيه هو آية في التفصيل وبيان الأحكام بدون لبس أو غموض : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[4].

لهذه الأسباب سيظل كتاب الله حجة لكل من أراد حجة عقلية، وكتاب هداية لكل من أراد أن يهتدي للحق واليقين، ومنبعاً للحكم والعلوم والأخبار اليقينية، ومنهلا للعلوم البيانية بجميع صنوفها وأشكالها، يأخذ منها كل أديب وشاعر ومترسل يطمح أن يكون له شأن في الأدب والفكر.

---

(1) سورة البقرة، الآية 37.

(2) سورة النساء، الآية 81.

(3) سورة الأنعام، الآية 38.

(4) سورة الأنعام، الآية 98.

الفصل الرابع

خصائص التصوير البياني في القرآن

المبحث الأول

(التشبيه والاستعارة)

«ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة. وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه»

(عبد القاهر الجرجاني)

الصور البيانية أو الفنية، كما يسميها النقاد، هي تعبير أدبي قديم، استعملها الشعراء وتفننوا في ألوانها بأشكال من التعبير والصياغة والدلالة. وقد درسها النقاد العرب في مباحث البلاغة في الفنون الأكثر استعمالا كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والتورية والتجريد والتعليل.

وكان العربي قبل أن يسمع كلام الله، ويدرك مافيه من معان رصينة، وتصوير بارع، يشعر بمتعة فنية بالغة بما يجد في الشعر من تصوير ومعان. وحين سمع كلام الله وجد لونا آخر من الأخبار والمعاني والصور البيانية.

التشبيه

كان التشبيه أحد ألوان البيان التي امتلأت نفس العربي إعجابا به. وهذا الفن كثر في الشعر القديم. ولما يتضمن من مزايا في كشف المعاني، قال أحد البلاغيين : «التشبيه أحد أنواع البلاغة، وأبدع أفانينها، وهو موضوع للجلاء والكشف، والمبالغة في البيان والوصف، والعبارة عن الخفي بالجلي، والمتوهم بالحسوس، والحقير بالخطير، والشيء بما هو أعظم منه أو أحسن، وكله لتأكيد البيان والمبالغة في الإيضاح. وانظر أين قول القائل : «الذين كفروا أعمالهم لا ينتفعون بها، من قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة...** ﴾[1]. وتأمل فرق ما بين الموضعين من البيان، وما بين الكلامين في الإيضاح وإن كان الغرض واحدا، والمقصود سواء»[2].

---

(1) سورة النور، الآية 39.

(2) رفع الحجب : 172/1.

هذه الإشارة تبين سمو التشبيه في كتاب الله. والباحث في فنون البلاغة فيه ينبغي أن لا يقتصر نظره على السمات الجمالية ـ وهي جديرة بالتحقيق ـ وإنما ينظر فيما دلت عليه من معان جليلة، تبين أصول الشريعة التي هدت الناس إلى الإيمان والتقوى. ويصدق على من لم يغص في تلك الجواهر قول المتنبي في الخيل :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وإذا نظرنا في تشبيهات القرآن، وما تحمل من دلالات ترتبط بالعقيدة والوجود والمصير نجد التصوير الفني فيها جاء لتحرير العقول مما ران عليها من أدران، قال تعالى : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف** ﴾[1].

هذا التشبيه صور الحالة التي كان عليها القوم في عقيدتهم بارتباطها بالأعمال الخيرية التي عدوها فخرا لهم، فبدت تافهة، ولا قيمة لها بدون عقيدة سليمة. والأشياء التي كانوا يفخرون بها هي صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وتقديم العون للمحتاجين، وإغاثة الملهوفين، وغيرها من الفضائل. قال زبان بن سيار، وهو شاعر جاهلي :

ولسنا كأقوام أجدوا رياسة يرى مالها، ولايحس فعالها

يريغون في الخصب الأمور، ونفعهم قليل إذا الأموال طال هزالها[2]

هذه الأعمال لها طابع إنساني وأخلاقي، وقد دعت آيات كثيرة إليها. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة** ﴾[3]. وقال الرسول عليه السلام : «اليد العليا خير من اليد السفلى». لكن أعمال الخير من غير إيمان اعتبرت عديمة الفائدة لفقدانها الإيمان بالله وبرسالة محمد عليه السلام، لأن عمل المؤمن يكون من أجل نيل رضى الله، واحتساب أعماله ليوم لا ينفع فيه شيء سوى الإيمان الصادق، والعمل الصالح. وهذا توجيه للمؤمن ليجعل التقوى والعمل الصالح مرتبطين، فلا ينقطع عمله لمجرد ظهور نزوات عابرة، وأهواء ذاتية.

وقد حقق التشبيه في الآية الكريمة الغرض البياني والدلالي بمجموعة من الصور والمشاهد المتلاحقة بدءا من ذكر الرماد بما فيه من خفة وهشاشة إلى ذكر يوم مشهود بعواصفه القوية، ورياحه العاتية، ورماده المتطاير. بهذه الصورة النابضة بالدلالات

(1) سورة إبراهيم، الآية 20.

(2) البيان والتبيين : 1/4.

(3) سورة البقرة، الآية 252.

والإيحاءات والحركة الخفيفة والثقيلة كشفت الآية الكريمة فكرة سيطرت على عقول القوم، وورثها السلف للخلف باعتبارها مثلا عليا، وغاية الفضائل التي انتهوا إليها.

كما برزت ظاهرة الجود والصدقة المصحوبة بالمن والأذى والمظهر الكاذب هشة في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شيء مما كسبوا، والله لايهدي القوم الكافرين، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير** ﴾[1].

كثرة الجمل في الآيتين جاءت من أجل توضيح المعنى، وقد جمعت بين صورتين، الأولى خصبة ناضرة، والثانية جدباء قاحلة. والقصد منهما بيان الحالة التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن. إن ظاهرة الصدقة مطلوبة في المجتمع لتحقيق التوازن، وإيجاد المودة والرحمة بين أفراده. وهذا العرف كان سائدا عند العرب، وأراد الإسلام أن يستمر في المجتمع، لكنه صحح مفهومه، إذ ينبغي أن يكون خالصا لله، لا يشوبه رئاء كاذب، ولذلك اختار القرآن صورة بيانية تجمع بين الجدب والذبول، وبين النضرة والبهجة. فهناك حجر صلب غير صالح للنماء، وهو يشبه الذين ينفقون أموالهم طلبا للمظاهر الزائفة، وهناك تربة خصبة طيبة، تعطي ثمارا بكثير أو قليل من الماء. هذه الصورة زاهية بخضرتها وألوانها، وهي تشبه حال الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، لأنهم سيجدونه ذخرا عند الله، وسيستمر هذا الجود لإيمانهم بالله. المالك لخزائن السماوات والأرض.

والغاية من الصورتين ـ وقد جمعتا كلاما هو أحلى كلام، ومعنى وفكرة تجد مستقرهما في القلوب ـ هي تحريك الخواطر للابتعاد عن كل مرذول لا يليق بالمجتمع، والإقبال على كل ماهو حسن، يريح النفوس، ويطمئن القلوب. قال عبد القاهر الجرجاني : «وهل شيء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجا مستقيما، ومذهبا قويما، وطريقة تنقاد، وتبينت لها الغاية فيما ترتاد»[2].

هكذا تبدو تشبيهات القرآن موجهة للخير، ومرشدة للفضائل، لتأسيس مجتمع متضامن في السراء والضراء. إنها تشبيهات تضمنت الرموز والقيم النبيلة من أجل إبعاد الإنسان عن الشر والرذيلة.

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 263-264.

(2) أسرار البلاغة : 126.

والتشبيه في كتاب الله يؤدي غرضه بالصورة المفردة والمركبة لتفيد الغرض نفسه ألا وهو الإصلاح والتوجيه والتهذيب الذي جاءت من أجله رسالة التوحيد. قال تعالى : ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وماهو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾[1].

جاءت الصورة في هذا التشبيه قوية في عباراتها، واضحة في دلالاتها، مؤثرة في مقصدها. وما أرادت التعبير عنه هو بيان العقيدة الصحيحة، وكيفية عبادة الله الذي يستجيب لنا إذا دعوناه. إن الذين يدعون غير الله يسلكون طريقا لا يبلغون به المقاصد، لأن معبودهم جماد تنعدم فيه خصائص الحياة التي تجعله يجيب الداعي إذا دعاه. لذا كان عليهم أن يفكروا في الإله الذي يستحق العبادة. وبالفطرة يدرك العاقل أن الذي ينبغي أن يعبد هو الخالق الرازق، العالم بالأسرار، المجيب للدعاء، الكاشف للضر، ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** ﴾[2].

هذا التشبيه البسيط كشف زيف العقيدة التي كان الجاهلي يؤمن بها، ولذلك اقترن بالدعوة إلى استخدام العقل، لأنه الجوهر الذي يدرك به الإنسان حقيقة الأشياء، فيفرق بين الصواب والخطأ، والنور والظلام. قال تعالى : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾[3].

ويتميز التصوير البياني في تشبيهات القرآن بكثرة الجمل التي توضح الجزئيات، فيرى المخاطب الصورة جلية ومكتملة من جميع جوانبها في الحركة والألوان والظلال والأشكال. وتأثير مثل هذه الصورة يكون أبلغ من الإجمال، قال تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾[4].

يبدأ التصوير بما يرى الناس أثره على الأرض، إنه الماء الذي تخضر به الأرض، فتشعر النفوس بالبهجة، وإذا بهذه البهجة تخبو، وكأنها لم تكن، لتصبح سرابا، فتتحول النفوس من السرور إلى الحزن والألم. ولكن ماذا تختزن هذه الصورة من دلالات عقدية، وإيحاءات نفسية واجتماعية وخلقية ؟

---

(1) سورة الرعد، الآية 15.

(2) سورة الأنعام، الآية 18.

(3) سورة الأنعام، الآية 99.

(4) سورة يونس، الآية 24.

إن الإسلام لايصور الحياة الدنيا بصورة قاتمة لينفر الناس من زينتها، وقد دعاهم إلى أخذ نصيبهم منها : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾[1].

وإنما أراد من هذا التصوير تنبيه الذين يتخذون الحياة الدنيا هدفا وغاية، فتراهم يتهافتون على زينتها وملذاتها بدون قيد أو وازع ديني وأخلاقي. إن هذا السلوك ذمه الإسلام، ونهى عنه، لأنه يعود بالناس إلى عهد الجاهلية المظلمة، وهو الدين الذي جاء ليحرر الإنسان من كل عبودية، ويجعله أسمى من أن يخضع لشهوات بهيمية رخيصة، لا تلائم قدره ومكانته في هذا الوجود.

وتشبيه الحياة الدنيا بالنضارة والرونق الزائف سمة غالبة في تشبيهات القرآن، لأن الغاية هي تصحيح المفاهيم والأعراف، وجعلها تتلاءم مع المنهج الإسلامي. قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح** ﴾[2].

إن زينة الحياة الدنيا ومباهجها بدت عبارة عن هشيم تتلاعب به الرياح، وترميه في كل اتجاه. والهدف هو دعوة الناس إلى جعل العقل رائدا في كل شيء، لأن التهافت على الشهوات والملذات من طبع البهائم.

والرموز التي تتنافى مع الخير والحق والتسامح جاءت بصور متعددة، وأشكال متنوعة في تشبيهات القرآن قصد تنبيه من قست قلوبهم، وتحجرت عقولهم، وعميت بصائرهم عن مصدر الخير، عسى أن يعودوا لرشدهم وللفطرة السليمة. بهذه الرموز الدالة خاطب الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل، وهم قوم عرفوا بالمكر والخداع وقتل الأنبياء ونشر الفساد. قال تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾[3].

لقد بلغت قلوب هؤلاء القوم غاية القسوة والشدة، وإذا كانت قد شبهت بالحجارة، فإن من الحجارة ما تنفجر منه الأنهار. وهذا دليل على أن قلوبهم لم يبق فيها جزء لينفذ إليه الخير. لقد أمعنوا في العصيان والضلال، ولذلك كانت عبارة "أو أشد قسوة" عميقة الدلالة لبيان هذه الحالة. فما هي دلالة هذا الرمز النفسية والخلقية والاجتماعية ؟

(1) سورة المائدة، الآية 89.

(2) سورة الكهف، الآية 45.

(3) سورة البقرة، الآية 73.

إن هذا الرمز بما يحمل من دلالات القسوة والغلظة دليل على أن المجتمعات التي تتفشى فيها هذه الظواهر تصبح منغلقة على نفسها، ولا تعرف الاستقرار والتضامن والأمن بالحوار والتعايش السلمي مع الأمم الأخرى. إن المجتمع الإسرائيلي سعى دوما للشر والفتن والرذائل وانتهاك المقدسات.

ومن هنا كانت دعوة القرآن لأمة التوحيد بالتحلي بالفضائل التي تجعلهم يكظمون الغيظ، ويعفون عند المقدرة، وينبذون العنف والتطرف والغلو والتشدد بجميع أشكاله، ويحبون الخير للإنسانية كلها. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون** ﴾[1].

وكل خبر أو قصة في القرآن تحمل روح الشريعة، وغايتها النبيلة. ومن رموز تشبيهات القرآن التي دلت غاية الدلالة على التخاذل والضعف التشبيهات التي صورت أحوال الناس في يوم البعث حيث يكون الناس من شدة الهول كالفراش المتطاير، والجبال تتحول إلى عهن منفوش، يتطاير غبارها في الهواء من شدة ما تؤول إليه من هشاشة. هذه الصورة البيانية القوية الدلالة تدعو الإنسان إلى التفكير في سلوكه. قال تعالى : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾[2].

لقد فعل هذا التشبيه المليء بالدلالات والعبر فعله في النفوس، ففاضت عيون القوم الأشداء وذوي البأس بالدمع خشية من عذاب الله، ومن يوم لاينفع فيه شيء سوى التقوى والعمل الصالح. قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾[3].

هذه المعاني المليئة بالعبر والدلالات هي التي جعلت المجتمع الإسلامي مثاليا في العبادة والسلوك والمواقف النبيلة، قال حازم القرطاجني في مقصورته :

فاحرص على وجودك الباقي، ودع ... ما ليس يبقى، واقله فيمن قلى
ولا تحد عن سنن السنة في ... حال، وكن ممن بأهلها اقتدى
وخذ من الآراء بالرأي الذي ... وافق قول الله، واترك ماعدا

(1) سورة المائدة، الآية 9.
(2) سورة القارعة، الآيتان 3-4.
(3) سورة المائدة، الآية 85.

وتتلاحق تشبيهات القرآن لبيان أسرار الوجود، وحقائق الغيب، وأخبار الأمم الغابرة، وكلها تقوي الإيمان بالله، ولاسيما حينما تكون في بيان سلوك الظلمة والطغاة الذين تغلبت عليهم النزوات والأهواء مثل ما فعل أبرهة الأشرم حينما أراد هدم الكعبة المشرفة فهزم مع جنوده شر هزيمة بأضعف جنود الله، فكانت آية تحدث بها القوم الذين شاهدوها، قال أبوقيس بن الأسلت :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا　　　بأركان هذا البيت بين الأخاشب[1]

فعندكم منه بلاء مصدق　　　غداة أبي يكسوم هادي الكتائب[2]

هذه الهزيمة كانت عبرة للظلمة في كل زمان ومكان، قال تعالى : ﴿ **وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾[3]. إن كل جيش مهما بلغت قوته وعدته قد يتعرض لهزيمة إذا واجه جيشا أقوى منه، لكن أن يهزم بحجارة صغيرة تحملها طيور ضعيفة، وأن يوصفوا بعد هزيمتهم بأنهم كالعصف المأكول، وهو ورق الزرع الذي راثت عليه الحيوانات، فهذا لا يليق بكرامة الجيوش. وهذه اللفظة تحمل خصائص التعبير البياني، والحس الجمالي. لقد استعمل القرآن الكناية في هذا الموضع حفاظا على قداسة أسلوبه الذي تجنب ذكر كل ما يرفضه الذوق والطبع، وهو الكتاب الذي جاء ليكون هاديا ومرشدا وموجها للعمل الصالح والقول الطيب.

إن تشبيهات القرآن تتميز بقوة العبارة، وسلامة المعنى، وعمق الفكرة، وهذا ما جعلها تتغلغل في النفوس الواعية، والقلوب المتفتحة، والعقول الذكية، فتؤثر وتوجه وتهدي إلى منابع الخير والصلاح.

إن الأسلوب البسيط، والفكرة الواضحة العميقة هي الخصائص الفنية لتشبيهات القرآن، والتعرف على ما تختزنه من أسرار الوجود، وخبايا السلوك، يحتاج إلى تعميق المعرفة بهدف رسالة الإسلام عقيدة وخلقا وتوجيها، لأن ما أشارت إليه من سلوك وحقائق غيبية، وتشريعات وقوانين هدفها تربية المسلم في سلوكه وأخلاقه ومعاملته مع الآخرين، ومنها حالة نقض العهود التي كانت تفتك بالمجتمع، فقد صورها القرآن بتعبير فني بليغ، قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا** ﴾[4].

---

(1) الأخاشب : جبال مكة وجبال منى.

(2) السيرة : 61/1. وأبو يكسوم، كنية أبرهة.

(3) سورة الفيل، الآيات 3-5.

(4) سورة النحل، الآية 92.

هذا السلوك المرفوض برز في شكل صورة امرأة تقضي وقتا ثمينا من حياتها في الغزل على جهة الإتقان، فإذا بهذا الجهد تضيعه بجعل غزلها أنكاثا، فلا يبقى لجهدها ومهارتها أثر. هذه الصورة البيانية أظهرت فعل الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها[1]، وهو فعل قبيح يضعف العلاقات الإجتماعية التي ينبغي أن تكون قائمة على أساس الثقة والمودة والصراحة، وهذا هو السلوك الذي يجعل المجتمع متماسكا.

ونجد في تشبيهات القرآن تصويرا موجعا للذين يعرضون عن الذكر، قال تعالى : ﴿ **فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة** ﴾[2]. إن من يتمعن في هذه الصورة البيانية البديعة يلاحظ حركة قوية ناتجة من سرعة غير منتظمة تختلط فيها الأجسام، وترتطم مع بعضها. وذلك أن الحمر الوحشية حين تشعر بالفزع تراها تفر في كل اتجاه غير مبالية بما تجده أمامها. لقد شبه الله حال المعرضين عن الذكر الحكيم بالحمر حين تفر خائفة. وفي هذا التشبيه ذم موجع ومؤلم لما تضمن من معان خفية، لأن الشبه الجامع بين الطرفين هو شدة البلادة، وغياب العقل. إن الحمر، وهي في تدافعها، لا تبالي بما يصيبها من أذى، فتعرض بذلك نفسها للأخطار، وهذا حال من يعرض عن الهدى، إنه لا يستخدم عقله ليميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فتراه هائما على وجهه مثل تلك الحمر بدون هدف وغاية. وفي هذا التصوير الفني يقترب القرآن من المخاطبين في عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ليكون أقرب إلى عقولهم ونفوسهم. هذا المنهج له تأثير كبير في الإصلاح الفكري والنفسي والإجتماعي، إذ كلما كان المعنى والصورة والفكرة قريبة من نمط حياة السامع يكون تأثيرها قويا إيجابا أو سلبا.

ونجد صورة أخرى تقترب من بيئة الأعراب يشير إليها القرآن. إن الجاهليين كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله، فأظهر القرآن كيفية خروجهم من القبور يوم البعث بالطريقة التي كانوا يسرعون فيها إلى أوثانهم، وهم في حالة من الرضى والاطمئنان لعبادتها، لكن سرعة يوم البعث تختلف عما عرفوه من قبل، إنها سرعة مصحوبة بالخوف والذل. قال تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون** ﴾[3].

جاء هذا التصوير قويا في تعبيره، عميقا في معناه، بالغا في حجته، من أجل رد إنكار المنكرين، وجحود الجاحدين ليوم البعث. إن هذا اليوم واقع بأحداثه ومشاهده،

---

(1) في قوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾.

(2) سورة المدثر، الآيات 48-50. القسورة : جماعة الرماة الذين يصيدون حمر الوحش.

(3) سورة المعارج، الآيتان 43-44.

كما حدثنا عنه الكتاب : ﴿ **واعلموا أنكم إليه تحشرون** ﴾[1]. في هذا اليوم يقف الناس أمام ربهم، وتعرض عليهم أعمالهم، وتشهد بها جوارحهم. ولن ينجو من أهوال هذا اليوم إلا من لقي ربه بقلب سليم، وعمل صالح.

هكذا يسلك البيان القرآني طرقا واضحة لتنوير العقول، ورفع غشاوة الجهل والظلام، وتهذيب النفوس، ورسم نهج قويم يقود الناس إلى السعادة في الدارين. وقد تحقق لهذه الأمة ما أراده كتاب الله، فسادت في مشرق الأرض ومغربها، وصنعت حضارة علمية وفكرية أخرجت بها الإنسانية من ظلمات الجهل، وظلت شمسها ساطعة على الكون قرونا عديدة. وإذا كان قد مر على هذه الأمة حين من الدهر، تفككت فيه أوصالها، وتمزقت وحدتها، وانتشر فيها الجهل والتخلف، وأصبحت تنعت بنعوت لا تليق بها، فإن ذلك كان نتيجة إهمال مادعت إليه الشريعة في العبادة والسلوك والسعي إلى طلب العلم. ولعل صحوة هذه الأمة مطلة على الكون من جديد بما ظهر من بوادر التقارب بين المجتمعات الإسلامية، وسعيها في طلب العلم، كما أمرها بذلك دينها، وتمسكها بكتاب الله، وهو الحبل المتين، وبسنة المصطفى الأمين الذي قال في كتاب الله العزيز : «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه».

إن التمسك بهذين الأصلين، وجعلهما منهجا في الحياة، هو السبيل الذي يبلغ هذه الأمة أمانيها، ويمكنها من نشر العدل والسلام والأمن في الأرض.

الاستعارة

إذا كانت تشبيهات القرآن قد تميزت بخصائص بديعة في التصوير البياني حيث جاءت المعاني الحسية والذهنية معبرة عن مشاهد وأحداث، تتسم بالحركة النابضة، والألوان الزاهية، والأشكال الطريفة، وكل ما يمتع العين، ويريح النفس، فبدت في معانيها وصورها أجمل وأبدع من سحر الطبيعة. فإن هذه الخصائص البيانية ميزت كذلك استعارات القرآن، إذ خاطبت الإنسان بأسلوب بلاغي بديع لتخرجه من الحيرة إلى اليقين، ومن الضلال إلى الهدى، ومن العمى إلى الإبصار : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية 201.

(2) سورة يونس، الآية 25.

إن استعارات القرآن أزهرت فروعها، وأينعت أغصانها، ونضجت ثمارها في ظل تعابير ومعاني الإيمان والهداية والرشد. والاستعارة فن أصيل في التعبير الأدبي، ولذلك حظيت بعناية كبيرة عند العلماء منذ بدأ التأليف في علوم اللغة العربية. وهذا الاهتمام ناتج عما تتوفر عليه من محاسن أسلوبية وفنية قل نظيرها في فنون أخرى. ولهذا السبب لم يخل كتاب في التفسير والبلاغة من شرح شواهدها من القرآن والحديث والشعر، وبيان جيدها وأجودها، وخاصها وعامها. وللدلالة على هذا الاهتمام البالغ نذكر رأي شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني الذي يعود إليه الفضل في إرساء قواعد البيان العربي، وبنائه على أسس منهجية وعلمية. قال في بيان محاسنها : «ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة موموقة»[1].

لقد اكتسبت الاستعارة هذه السمات بوجود خصائص لغوية وتركيبية تميزها عن التشبيه الذي تفرعت منه. فهي في الأصل تشبيه أدمج طرفاه ـ المشبه والمشبه به ـ وفي هذا الإدماج يكمن سر محاسنها، إذ يصبح الطرفان مندمجين للدلالة على معنى يشترك فيه المشبه والمشبه به في فن التشبيه. كما أن الاستعارة تتفرد بمزية التحول الدلالي حيث ينتقل معنى اللفظة من الأصل الذي عرفت فيه إلى دلالة أخرى لم يكن المشبه معروفا بها، وبذلك يصبح الرجل الشجاع أسدا، والجواد بحرا، والمقدام سيفا. وهذا يزيد في اتساع اللغة، وإغناء حقل الدلالة. قال ابن جني في حديثه عن الاتساع بواسطة المجاز : «فمن ذلك قول النبيﷺ في الفرس : هو بحر. فالمعاني الثلاثة موجودة فيه[2]. أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي فرس وطرف وجواد ونحوها البحر، حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء»[3].

كما أن الاستعارة تسهم في تحريك الأذهان، وتوسيع المدارك، وتقوية الملكة اللغوية، وإغناء الخيال، بما يجد فيها السامع من إيجاز قد تضمن حقلا فسيحا بالمعاني والتصوير، قال ابن رشيق : «الاستعارة أفضل المجاز عندهم، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها»[4].

---

(1) أسرار البلاغة : 32-33.

(2) وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه.

(3) الخصائص : 442/2.

(4) العمدة : 460/1.

لكن هذا التحول الدلالي ليس متروكا للأهواء، وإنما هو تحول مضبوط بقواعد لغوية وتركيبية ودلالية، وقدرة المبدع على جعل الصورة متوافقة مع تلك القواعد. ولعل وجود تقارب بين المستعار منه والمستعار له يعد ضروريا لكونه يرفع كل لبس وغموض عن الدلالة. والعرب الذين نشأوا في بيئة الفصاحة أدركوا بالسليقة والطبع أن الألفاظ تتعرض للابتذال والجمود إذا بقيت في تداولها الحقيقي، فلذلك كان المجاز هو السبيل لجدة اللغة وطرافتها وإغنائها بالخيال.

والقرآن الكريم، وهو كتاب العربية الأكبر، جاء أسلوبه بأعذب لغة العرب، وأسلسها وأجزلها، وأبلغها حجة، وأصدقها حديثا. وتميزت استعاراته ببساطة التعبير، وعمق الفكرة، ونبل الهدف، فحققت بذلك غايات في الموعظة الصادقة، والهداية الموجهة للخير، قال تعالى : ﴿ **ومزقناهم كل ممزق، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾[1]، وقوله عز من قائل : ﴿ **وقطعناهم في الأرض أمما، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك** ﴾[2].

إن لفظتي التمزيق والتقطيع من الألفاظ المتداولة في كلام عامة الناس، وربما بدتا مبتذلتين في تعبيرهم، لكن في الآيتين اكتسبتا دلالة عميقة لبيان أحوال الأمم السابقة، وما أصابها بعد تفرقها في الأرض، ولذلك تجد كل قارئ يستفسر عن الطريقة التي تم بها التمزيق والتقطيع، ومصير القوم، والعبرة من ذكر الاستعارتين. كل هذا يقود لمعرفة القصد والغاية من هذا التعبير. وما يمكن رصده في اللفظتين أن دلالتهما الحسية هي التي أبرزت قوة المعنى، فالتمزيق يكون في الأصل للأثواب، والتقطيع لإزالة الاتصال بين الأجسام الصلبة، ولذلك كانت استعارتهما لمعنى التشتت والتفرقة أشد بيانا وقوة في حقل الدلالة، لأن لفظة الحقيقة توحي بالأمل في العودة والالتئام، بينما التمزيق والتقطيع دلالة عن الانفصال التام الذي لم يبق معه أمل في العودة، والقصد من ذلك هو أخذ العبرة من مصير الأمم السالفة. فالتعبير القرآني سواء كان حقيقة أو مجازاً يأتي من أجل التوجيه والإرشاد، وما اختلاف التعبير وطرق الدلالة إلا من أجل تحقيق هذا المقصد النبيل.

وتأخذ استعارات القرآن منحى آخر في المعاني حينما ترتبط بالمعاني العقلية المجردة. وهذا اللون من الاستعارات يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر لفهم المرامي

---

(1) سورة سبأ، الآية 19.

(2) سورة الأعراف، الآية 168.

والمقاصد الظاهرة والخفية، لأنها تخاطب أصحاب العقول السليمة التي تنظر في الأشياء بفهم نافذ لفهم أسرار الوجود، والغيبيات، وطبائع المخلوقات، ومثل هذه الإشارات تحرر العقل من الجمود، قال تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا** ﴾[1]. واستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾[2].

إن التعبير بالنور عن سماحة الإسلام، وعما جاء به من شرائع وقوانين قصد هداية الناس يجعل الإسلام يبدو في إشراق وإجلال وبهاء، لأن النور الذي جاء به يزيل ستائر الظلام المتراكمة على العقول، فتبدو الحقائق جلية ناصعة كأنها نور ساطع. أما الصراط فهو الطريق الواضح، لا عوج فيه ولا التواء، إنه المنهج القويم الذي يسلكه الإنسان وهو آمن من العثرات. وهذا ما يجعل السامع يتصور فضل الطريق الآمن على الطريق الذي يمتلئ بالصعاب والأخطار، وكذلك فضل النور على الظلام. إن النور نعمة تزيل الوحشة والفزع، والطريق الآمن يعيد للنفوس الاطمئنان. وبهذه الاستعارة يدرك العاقل أن الإسلام بتعاليمه وقوانينه وأحكامه هو المنقذ من الضلال والحيرة. إنه نور شع في الكون بعد ظلمة تخبطت فيها الإنسانية، فأطل عليهم ليقودهم إلى الطريق الآمن من الزلل والعثرات، فكان بحق نوراً مشعاً، وطريقاً مستقيماً.

هذا هو خطاب الله للإنسانية تضمن إشارات نبيلة، ومقاصد شريفة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وقد رأى العارفون بأسرار البيان أن إدراك أمثال هذه الاستعارات وقف على أصحاب العقول السليمة، والنفوس الواعية التي وهبها الله قدرة واستعداداً لفهم الحكمة، وفصل الخطاب. قال عبد القاهر الجرجاني : «فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب»[3].

ونجد مثل هذه المعاني العقلية، والحكم البالغة، في الاستعارات التي فصلت أسرار النور الإلهي، وهو الكتاب الذي جاء لإسعاد الناس، ورفع الأغلال عنهم. قال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[4].

---

(1) سورة التغابن، الآية 8.

(2) سورة الفاتحة، الآية 5.

(3) أسرار البلاغة : 50.

(4) سورة المائدة، الآيتان 15-16.

إن الإسلام نعت برسالة النور لأن فيه توجيها شاملا للجانب الديني والفكري والاجتماعي والأخلاقي والنفسي والسلوكي من أجل بناء مجتمع متكامل. وهذا النور هو الذي هدى الناس إلى نعمة الإيمان بعد الضلال، واطمأنت به القلوب بعد الحيرة والشك، وهو الذي جعل العرب أمة قوية، بسطت نفوذها في مشرق الأرض ومغربها، وقد كانت من قبل قبائل متفرقة، تفتك بها الحروب لأتفه الأسباب، وهذا النور هو الذي جعل المسلمين أمة العلم والفكر والحضارة والبناء والإعمار، تنشر الأمن والسلام، وتهدي الناس إلى سبيل الخير بالكلمة الطيبة والعمل الصالح. ولا يستطيع عاقل وإن اختلف مع المسلمين في عقيدتهم وتفكيرهم أن ينكر فضل هذا النور على أمة العرب، وعلى الإنسانية جمعاء.

والآيتان الكريمتان كانتا بليغتين حينما استعارتا النور لمعاني الهدى والحق واليقين بجانب الظلام الذي هو شرك وجهل وضلال. ولذلك نجد الكتاب العزيز يشير إلى مثل هذه المعاني في آيات كثيرة حيث يجعل النور مقرونا بالظلام ليتبين للناس فضل نعمة الإيمان على الكفر والضلال، قال الله تعالى : ﴿ **ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير، أم هل تستوي الظلمات والنور** ﴾[2]، وقوله عز من قائل : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور** ﴾[4].

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.

(2) سورة الرعد، الآية 17.

(3) سورة الشورى، الآية 49.

(4) سورة فاطر، الآيتان 19-20.

المبحث الثاني

الكناية والتفخيم والإشارة

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا ﴾[1].

تشترك في البيان القرآني أساليب كثيرة مع التشبيه والاستعارة والتمثيل لتصوير المشاهد والأحداث والانفعالات والحركات. وهذه الأساليب تأتي عن طريق الكناية والتفخيم والتلميح والإشارة والرمز والاقتضاب، وقد تشترك معها أساليب أخرى ، وكلها تفتح المجال لتأويل المعاني واتساع الخيال : «وفي ذلك ما فيه من الإلذاذ للنفس، والإطراب لها بالغرابة والطراءة التي لهذا النوع من الدلالة»[2].

واستعراض الآيات البينات التي صيغت بهذه الفنون يظهر لنا ما احتوت عليه من تصوير بياني بديع، وحمولات دلالية عميقة، كانت ـ وما زالت ـ منهلا يرده كل من أراد أن يكون له شأن في البيان والبلاغة وسلامة التعبير.

أسلوب الكناية

بلغ أسلوب الكناية في الآيات البينات سموا وجلالا وقدسية. إن عبارات هذا الأسلوب في القرآن خلت من الفحش والابتذال والحشو، ومن كل ما هو ساقط من التعابير التي وردت في أشعار الفحول. قال تعالى : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾[3].

في هذا التعبير الجليل تبدو قدسية الكلمة التي هي من الخصائص المميزة للتعبير القرآني، فقد وردت لفظة "الجلود" للدلالة على الأعضاء التناسلية، وهي أعضاء حساسة في جسم الإنسان، لا يستطيع ذكرها وهو بين أفراد أسرته، أو مع الغير، فكانت الكناية عنها بالجلود أبلغ وأبدع من لفظة الحقيقة ؛ ودلت بهذا التعبير بالكناية عما

(1) سورة لقمان، الآية 7.

(2) المنزع البديع : 263.

(3) سورة فصلت، الآية 20.

يدعو إليه الإسلام من أخلاق فاضلة في القول والسلوك والمعاملات، إنها نوع من التوجيه التربوي لتقويم سلوك المسلمين فيما بينهم، ولتبين لهم كيف يختارون الكلمة الطيبة في حديثهم، الكلمة التي تصون ألسنتهم من الفحش والساقط من الكلام الذي يدور على ألسنة بعض العوام الذين لا يراعون مشاعر الناس وأحاسيسهم. كما أنها تقدم النموذج الأمثل للشعراء والكتاب وأصحاب الكلمة الذين لهم دور في توجيه الناس إلى مبادئ الأخلاق والنبل والفضائل، وتهذيب مشاعرهم وأحاسيسهم ؛ والتوجيه أيضا يشمل هذه الفئة من المثقفين بدعوتهم لاختيار الألفاظ الملائمة التي تحفظ جماليات اللغة العربية التي حملت معاني كتاب الله.

إن حرص القرآن على استعمال الكلمة الطيبة في كل معنى تناوله هو الأسلوب الغالب على كل تعابيره لغاية تحقيق الهدف الأسمى من حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا سلوكاً وعملاً وقولاً.

وقال تعالى : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾[1].

لقد عبر كتاب الله بهذه الكناية عما يخرج من الإنسان من فضلات، لأنه كائن حي لا يمكنه أن يعيش بدون التخلص من الزوائد الضارة في جسمه، ومنها الفضلات التي تنتج عن تناول الطعام، ولو جاء التعبير عن هذا الغرض بلفظة الحقيقة لخرج عن سموه وقدسيته في كتاب وردت أساليبه ومعانيه وأغراضه لتكون النموذج المثالي في السلوك والأخلاق والقول والفعل. ولغة القرآن الكريم ليست مجرد أسلوب بياني فقط، وإنما هي لغة عقيدة تضمنت شرائع وقوانين وأحكاماً لتكون منهجا للمسلمين في تفكيرهم وسلوكهم، وهم الذين أراد الله لهم أن يكونوا نموذجا لكل الأمم في السلوك والأخلاق، بل هذا هو الدين الذي اختاره الله للبشرية جمعاء بعدما تفرقت بهم السبل قبل نزول هذه الرسالة المنقذة، فلا غرابة أن يصل إلى درجة السمو التي لا يبلغها كتاب آخر.

وقال تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[2].

إن عبارة "الرفث" جاءت للتعبير عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة والتي تبنى على أساس رباط شرعي، أراد منه الإسلام تكوين مجتمع صالح مترابط الوشائج

---

(1) سورة المائدة، الآية 75.

(2) سورة البقرة، الآية 187.

والصلات والمودة والرحمة بين الرجل والمرأة عن طريق الزواج، والأسرة هي النواة الأولى في الهرم الاجتماعي، فصلاح المجتمع أو فساده يبدأ من هذه النواة، ولذلك أعطاها الإسلام اهتماما كبيرا، ورعاية متزايدة، فهي الحاضنة للأطفال، توجههم وترشدهم وتكونهم. والتعبير بالرفث في هذه الآية الكريمة جاء في هذا السياق العام لصيانة مكانة المرأة، والحفاظ على أحاسيسها ومشاعرها مع زوجها وأولادها وأسرتها، فكانت الكناية أجود وأفضل من لفظة الحقيقة التي ترفضها الأعراف والأخلاق وبخاصة في المجتمع الإسلامي المثالي. كما أن التوجيه الإسلامي في المعاملات نص في آيات كثيرة، وأحاديث شريفة، على أن يكون الخطاب الموجه للمرأة مراعيا في جميع الحالات مشاعرها المرهفة، ولذلك وصفهن الرسول صلى الله عليه وسلم بالقوارير في قوله : «رفقا بالقوارير» مراعاة لمشاعرهن. ولهذا كانت لفظة الرفث بالكناية تحمل قدرا كبيرا من مراعاة المشاعر الحساسة عند المرأة، إذ فيها رفق وفيض العواطف النبيلة نحوها. والعربي البليغ الفصيح قد أدرك ما في هذه الكلمة من قدسية وجلال، لأنه كان يسمع في أشعار الفحول كلاما فاحشا لا يستطيع أن يذكره أمام أولاده وأمام الناس حفاظا على الآداب وعلى الأعراف والعلاقات الاجتماعية ؛ ولهذا أنكر الكثير منهم في جاهليتهم أشعار امرئ القيس الذي عرف بفحشه الذي كان يجهر به.

وقد بلغت الكناية في كتاب الله دقة لا نهاية لها في الغرابة والخفاء واللطف، وسرعة النفاذ إلى القلوب والعقول، لما حملت من صور بديعة في التعبير، كما أنها كشفت بدائع هذه اللغة التي اتسعت للتعبير عن أغراض عديدة، وبوسائل فنية كثيرة وبخاصة لغة القرآن التي ازدادت اللغة العربية بهاء وقوة بها، مثل قوله تعالى : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر** ﴾[1].

هذا التعبير البياني البليغ بهذه الكناية البديعة تضمن أسرارا بالغة الدلالة في المعاني من خلال الإشارة إلى صنع سيدنا "نوح"، عليه السلام، سفينة بسيطة في أدواتها وهيأتها وشكلها بأمر من الله سبحانه وتعالى، هذه السفينة التي أنجته هو والذين آمنوا بدعوته من طوفان عم كل جزء في الأرض، وأغرق الضالين بعدما تمادوا في جحودهم، ولم تنفع معهم أية وسيلة للرجوع عن ضلالهم. والآية الكريمة بالإضافة إلى أنها وجهت موعظة للناس، إذ تبين لهم كيف يكون مآل الضالين والجاحدين، فإنها تضمنت غاية نبيلة من خلال هذا التعبير البسيط، لكنه عميق الدلالة في التوجيه وأخذ العبرة والإيمان

(1) سورة القمر، الآية 13.

بقدرة الله سبحانه وتعالى. فقد ذكر الله في هذا التعبير الألواح والدسر التي أنجت نوحا ومن معه، والسفينة التي صنعت بهذه الأدوات البسيطة لا تستطيع أن تقاوم أمواجا عاتية، وصفها الله بأنها كانت كالجبال في علوها : ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾[1] ؛ فهذه السفينة التي صنعها نبي الله نوح غير قادرة على الصمود أمام هذه الأمواج، ولذلك كانت الغاية من ذكر هذه الكناية، وهذا التعبير، هو بيان قدرة الله في الحفاظ على المؤمنين، ولو كانت الوسائل التي يستعملونها بسيطة. ثم إن هذا التعبير يخبر عن حقائق وغيبيات وأخبار الأمم القديمة ليزداد المؤمنون إيمانا، ويدركوا أن لا أحد ينجو من عذاب الله إلا من رحمه : ﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ﴾[2].

كما تعرضت الكناية في القرآن للمظاهر الاجتماعية المترسخة في المجتمع، والمتمثلة في العادات والتقاليد التي اعتادها الناس في حياتهم مثل نظرة الإنسان الجاهلي لمكانة الرجل في القبيلة، فقد كانوا يعتبرونه الضامن لبقائها، والحامي لشرفها، والمدافع عن حوزتها. قال ابن رشيق القيرواني : «وكانوا لايهنئون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ فيهم»[3].

هذا الثالوث كان رمزا لاستمرار القبيلة، والحامي لشرفها وعزتها، والمعين لها في الشدائد والمحن؛ أما المرأة فلا دور لها في القبيلة، ولا تقوم بما يقوم به الرجل نحو قبيلته، بل هي مصدر عار عليهم، لأنها تتعرض للأسر في الحروب والغزوات، فكانت القبيلة تعير بذلك، وهذا من شأنه أن يجلب للقبيلة العار والهوان والمذلة بين القبائل الأخرى، ولهذا السبب كانوا يوفرون لها الحماية خوفا من العار، ولم يفتخروا بشيء مثل افتخارهم بحمايتها وصيانتها من أن تقع في يد أعدائهم. قال ربيعة بن مكدم :

إن كان ينفعك اليقين فسائلي ... عني الظعينة يوم وادي الأخرم

إذ هي لأول من أتاها نهزة ... لولا طعان ربيعة بن مكدم[4]

وقد أشار الله إلى هذه الظاهرة الاجتماعية في قوله : ﴿ **أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين** ﴾[5].

(1) سورة هود، الآية 42.

(2) سورة هود، الآية 43.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه : 153/1.

(4) رفع الحجب : 1197/3.

(5) سورة الزخرف، الآية 19.

هذه الكناية عبرت عن طبيعة الحياة الاجتماعية في القبيلة في العصر الجاهلي، لقد كانت القبائل العربية في العصر الجاهلي تعيش في حروب دائمة، وفتن لا تهدأ، وهذا الوضع كان يتطلب من أفرادها أن ينشأوا نشأة الجلد والصبر لمواجهة المكاره والمصاعب التي تواجه القبيلة وبخاصة في زمن الحروب، قال الشاعر يصف رجال القبيلة الأشداء الذين يخوضون الحروب بضراوة وشدة :

طوال الرماح غداة الصباح   ذوو نجدة يمنعون الحريما

بنو الحرب يوما إذا استلأموا   حسبتهم في الحديد القروما[1]

أما المرأة فكانت تنشأ في النعيم والدلال، ولا تتهيأ للحروب مثل الرجل، فكانت بذلك أكثر الناس إقبالا على الحياة الناعمة، تنصرف في جل أوقاتها للعناية بجسمها ولباسها وأناقتها للحفاظ على جمالها ونعومتها. وبذلك فإنها غير مهيأة للقيام بدور الرجل في القبيلة. والآية الكريمة أشارت إلى الفرق بين الرجل والمرأة في هذا المجتمع، من جانب التكوين والتربية والنشأة، فالرجل لا يليق به أن يتربى في الزينة والنعمة والدلال. قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه : «اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا». لأن الرجل يطلب منه ما لا يطلب من المرأة سواء في حال الحرب أو السلم. وقال الزمخشري في معنى الآية الكريمة : «أي يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه»[2].

أسلوب التفخيم

تعددت أوجه وأشكال الأساليب البيانية، وكلها صيغت للدلالة على معاني الهداية والإرشاد إلى طريق الخير. وأسلوب التفخيم في كتاب الله صور هذه المعاني بعبارات التعظيم والتهويل حتى يكون تأثيرها قويا في النفوس. كما أن من طبيعة هذا الأسلوب أن يحدث متعة بالغة في المتلقي، قال السجلماسي في بيان السبب في ذلك : «والسبب في ذلك ولوع النفس بتصور المعاني، وعنايتها بتحصيلها وتفهمها»[3].

وكتاب الله اعتمد هذا الأسلوب في الآيات البينات لتصوير مشاهد يوم العرض والحساب، وهو يوم عسير على الكافرين الذين شكوا فيه، واعتقدوا باستحالة عودة

---

(1) المفضليات : 183. الحريم : ما يجب عليهم منعه. والقروم : فحول الإبل.

(2) الكشاف : 3/482-483.

(3) المنزع البديع : 267.

الروح إلى الجسم بعدما يصير ترابا، وتتقادم السنون. ومن هنا نجد كتاب الله يهول مشاهد هذا اليوم بأسلوب التفصيل والإسهاب، وتارة أخرى بالإيجاز والاقتضاب إذا كانت العبارة دالة على ذلك بقوة. والأسلوبان معاً جاءا في البيان القرآني متسمين بقوة الألفاظ، وسلامة المعاني، والإحاطة بدقة بالأغراض المقصودة، وبذلك أحدثت أثرا قويا في الأعراب الذين كانوا يدركون أثر مثل هذه الأساليب في نفوسهم. قال تعالى : ﴿ **الحاقة ما الحاقة** ﴾[1]، وقال أيضاً : ﴿ **القارعة ما القارعة** ﴾[2].

لقد تضمنت هذه الآيات مضامين لا حد لها بعبارات في غاية الإيجاز والاقتضاب، في جرسها الموسيقي وفي حروفها قوة للدلالة على الغرض، وهو بيان يوم الحشر الذي يعد بألف سنة مما يعد الناس، والخيال مهما اتسع في تصور هذا اليوم لا يمكن أن يحيط بما يكون فيه من هول وشدة على الناس الذين سيكونون من شدة الفزع والخوف كالفراش المبثوث. ولم يبرز بعضا من هذه المعاني إلا هذا الأسلوب الذي جاء بالتفخيم والتهويل، وذلك عن طريق إعادة الألفاظ : الحاقة، والقارعة، مع مجيء "ما" التي تفيد أن هناك أشياء كثيرة ستكون في هذا اليوم، لا يعرفها الإنسان، ولا يدرك حجم عذابها وشدتها وبخاصة على المجرمين والجاحدين. ولهذا نجد في البيان القرآني آيات كثيرة تطمئن المؤمنين في هذا اليوم على مصيرهم لأن الهول سيكون شديدا وعظيما، ولا يقدر الإنسان على احتماله. قال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾[3].

وأسلوب التفخيم يدفع الإنسان إلى استعمال الفكر، واستحضار الذهن اليقظ، والنفس الواعية، للتأمل في مضامينه، ومعرفة مقاصده، وغاياته القريبة والبعيدة، عسى أن يحيط ولو بجزء من مضامينه. وإذا كان هذا الأسلوب قد جاء في كتاب الله للحديث عن غيبيات لا يدركها الإنسان مهما أجهد فكره فيها، فان الله سبحانه وتعالى، قد بين وفصل الكثير من معانيها، سواء كانت هذه الآيات في موضع تصوير مشاهد العذاب، أو تصوير مشاهد النعيم، وكل ذلك من أجل تقريبها للأذهان حتى يكون أثرها إيجابياً عند السامع.

وقد يأتي أسلوب التفخيم بالإيماء والإشارة الدالة، واللمحة السريعة، والعبارة المشحونة بالمعاني إلى أقصى حد؛ وبقدر ما تتنوع الأساليب والفنون يكون التعبير

---

(1) سورة الحاقة، الآيتان 1-2.

(2) سورة القارعة، الآيتان 1-2.

(3) سورة القيامة، الآيتان 21-22.

مؤثرا في المتلقي، قال حازم : «فمن أحكم التصرف في هذا الضرب من المعاني (...) كان كلامه ممتعا من كل فن من فنون البلاغة، وكان حسن الموقع من النفوس»[1].

ومن هذه الضروب الممتعة من القول الذي جاء عن طريق الإشارة الدالة قوله تعالى : ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾[2]. في الآية الكريمة إشارة خفية و موجزة، لكنها وردت محكمة وقوية للتعبير عما أصاب فرعون وجنوده من هلاك عظيم. قال الزمخشري : «ما غشيهم، من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله»[3].

ولكي تستوفي العبارة دلالتها في أمثال هذه التراكيب وضع النقاد شروطا، حددوها في هيأة الألفاظ، ودلالة التراكيب، وطريقة وضعها على وجه الصحة، قال السجلماسي : «توفية الدلالة على المعنى أقصى غاياتها، والبلوغ بها أبعد نهايتها»[4]. ونص حازم على وجوب أن يكون التركيب بالأفصح من الألفاظ المتعارف عليها، فقال : «وقد كان بعض الشيوخ الذين أخذت عنهم هذه الصناعة يوصي باجتناب الألفاظ التي يفهم منها، على حدتها أو مع ما يكتنفها، معنى قبيح، ولو بالعرف العامي»[5].

ومما طلبوا تجنبه في التراكيب أيضاً الألفاظ الغريبة والحوشية والساقطة والمبتذلة، وألا تكون متنافرة التأليف مع بقية الألفاظ الأخرى. كما قال الشاعر :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ

فإذا كانت الألفاظ بعيدة عن تلك العيوب، ووفر لها المبدع السهولة في المخرج، والتلاحم مع بقية الألفاظ، كان لها التأثير القوي في النفوس، وهذه من خصائص الأدب الرفيع كما قال الجاحظ : «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج»[6].

وإذا ما تتبعنا هذه الحالات في أساليب القرآن عامة، وأسلوب الإشارة خاصة فإننا نجد تعبير القرآن استوفى في عباراته غاية المحاسن إيضاحا وقصدا وسهولة ومخرجا، فلا تجد فيه كلمة موضوعة في غير موضعها، أو متنافرة مع التي تجاورها،

---

(1) منهاج البلغاء : 37.

(2) سورة طه، الآية 78.

(3) الكشاف : 547/2.

(4) المنزع البديع : 414.

(5) منهاج البلغاء : 152.

(6) البيان والتبيين : 67/1.

أو يغمض معناها على السامع؛ وهذه هي الخصائص الفنية العالية التي ينبغي أن تتوفر في كل كلام فني. ومما ينبغي النص عليه في التعبير القرآني عن الأغراض والمقاصد أن كل عبارة فيه لاءمت المعنى الذي قصدت الدلالة عنه؛ فكتاب الله عبر عن معاني الوعظ والتذكير، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتمسك بالفضائل والمكارم، والحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحدث عن الرسل والأنبياء مع قومهم، وأخبر عن أحوال الأمم السابقة مع الرسل ؛ وفي كل هذه المضامين نجد العبارة توضع وفق المعنى الدال عليه، وكأن القارئ ينظر بين ثنايا العبارات مشاهد وأحداثا وحركات ونبضات القوم وتوجعهم وآلامهم. ولكي نقف على هذه الحقيقة ننظر في سياق هذه الآيات التي عبر فيها الله عن إحساس الناس في حالة الاحتضار، ومجيء يوم الحساب، والوقوف أمام الله ليعلم كل واحد ما قدم من عمل صالح أو طالح. قال تعالى : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1].

حينما نتمعن في هذه الآيات نرى ألفاظا قوية ومجلجلة ومتماسكة فيما بينها لأداء معنى أريد له أن ينفذ في أعماق النفس لتستوعبه وتتخذ منه العبرة، وقد ارتبطت هذه الألفاظ بصور متحركة ومنسجمة مع الألفاظ لتؤدي الغرض المقصود، والغرض هو وصف مشاهد يوم القيامة حيث الرهبة واليقظة من الغفلة والتهاون الذي كان عليه الناس من قبل، لكن المشاهد القوية تجعل نظرتهم حادة كأنها حديد لهول ما يشاهدون من أحداث كانوا من قبل ينكرونها ؛ إنهم لا يستطيعون أن ينكروا سكرة الموت الحادة، ولا مشهد الحساب والعقاب للجاحدين، والثواب والجزاء الحسن للمؤمنين. كل ذلك عبرت عنه الآيات البينات بهذا الأسلوب الذي يجلجل بألفاظه، وبما وراء ألفاظه من معان، ليحقق الغاية النبيلة التي أرادها الله لعباده، ألا وهي العودة إلى الرشد واليقين بالله الذي يجنبهم الوقوع في مثل ذلك الموقف المشهود.

تصوير المشاعر والأحاسيس

إن التصوير للمشاهد والأحداث والمشاعر والأحاسيس خاصية متميزة في البيان القرآني، فقد كشف هذا البيان خبايا وأسرار النفوس، والحركات الإرادية وغير الإرادية.

---

(1) سورة ق، الآيات 19-22.

وهذا التصوير لم يأت لغاية فنية مثل ما يوجد في الشعر، وان كان القرآن حقق في هذا الغرض أكثر مما حققه الشعراء، وإنما كان الهدف من هذا التصوير أسمى وأنبل، لأن كتاب الله جاء للهداية والإرشاد والتوجيه، ومن هنا كان التصوير من أجل إصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر، وإرشاد الناس إلى سبل الخير، وإبعادهم عن طريق الضلال. ومن الآيات التي جاءت لتصوير حركات فئة من الناس لقصد هدايتهم قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾[1].

لقد نزلت الآيتان لتبين موقف المنافق الخنس بن شريق، هذا الرجل الذي كان يلقى الرسولﷺ وأصحابه، فيظهر لهم طلاقة البشرة، وحسن المظهر، ويحدثهم بحلو الكلام وأعذبه، لكن هذا المظهر كان يخفي وراءه حقدا وكراهية للرسول عليه السلام وللمسلمين،إذ كان حينما يتولى تصدر منه أقوال بذيئة وأفعال مشينة، ولا يكتفي بهذا بل كان يسعى لنشر الفساد، وإشعال نار الفتنة بين المسلمين. وهذا المظهر من السلوك لم يكن يقتصر على هذا الفرد فقط، وإنما كان شائعا عند فئة المنافقين الذين كانوا يحاولون هدم المجتمع الإسلامي، وقد آلمهم ما كانوا يرون من محبة المسلمين لرسولهم، عليه السلام، ولما كان بينهم من مودة وتراحم، فجاءت الآيات البينات لتفضح سلوكهم المشين، وتحذر المسلمين من أفعالهم التي هي في الظاهر متسمة بحسن السلوك، وحلاوة المنطق، وفي الخفاء هي فساد وسعي لهدم المجتمع المتماسك. وكتاب الله حينما يصور هذه الفئة في زمان الرسول الكريم، فإنه ينبه المسلمين في كل زمان ومكان إلى ما يمكن أن يقوم به أمثالهم من تفرقة للمسلمين بالوشاية والكذب والسعي في الفساد.

وفي بيان الإهمال والإخلال بالمسؤولية تبلغ معاني آيات كتاب الله قدرا كبيرا من التصوير الذي يرصد كل حركة من هؤلاء مهما بلغت من الخفاء والمكر الذي يجعل الأمور تبدو على غير وجهها الصحيح، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون** ﴾[2].

إن التعبير في الآية الكريمة يبين نقض العهود والمواثيق، ولكن هذا التعبير لم يأت مباشرا وإنما بصورة فيها حركة تعبر بشكل عجيب عن قوة نبذ الشيء، وهي جعله

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 202-203.

(2) سورة آل عمران، الآية 187.

وراء الظهر، ولذلك اكتسبت قوتها وجمالها التصويري البديع من هذه الحركة. إن عدم الاهتمام بالشيء قد يكون بنسيانه، أو وضعه في مكان بعيد وعدم التفكير فيه، وكل هذه المعاني تحقق المقصود، لكن حينما يصور بأنه وراء الظهر فهذا يظهر قوة الاستخفاف بالشيء، وعدم الرجوع إليه على الإطلاق. وهنا يسمو التعبير القرآني ليبين أن الذين يفعلون ذلك، وكانوا قد تحملوا المسؤولية، هم من أراذل القوم، لاسيما أنهم يفعلون ذلك من أجل الكسب والربح المادي، ولذلك قال الله : ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾.

والعبر والدلالات التي يأخذها المسلمون من هذه التعابير اللطيفة هي اجتناب كل ما يخل بأداء الأمانة، وتحمل المسؤولية، مهما كانت المكاسب المادية أو المناصب الإدارية، من أجل كتمان الحقائق.

وقد بلغ التعبير القرآني ذروته في وصف المشاعر المرهفة والأحاسيس التي تنعكس على ملامح الوجه، وحركة الأعضاء، ولاسيما حينما تتحكم في الفرد عادات وتقاليد لا يستطيع قطع حبالها بسهولة، لأنها ضاربة في أعماق نفسه ووجدانه وعقله، مثل موقف بعض الأعراب في الجاهلية من الأنثى، فقد كانوا يعتبرونها جالبة للشر والعار للأسرة والقبيلة، وقد صور الله موقفهم منها فقال عز من قائل : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما كانوا يحكمون** ﴾[1].

في هاتين الآيتين تصوير بديع وبليغ لأحاسيس ومشاعر فئة من الجاهليين حينما يبشر أحدهم بازدياد أنثى، لقد كانت هذه الفئة لا ترى في الأنثى إلا العار، ولم يكن هذا التصور سائدا عند جميع الجاهليين، لكن البعض منهم نتيجة العادات القبيحة التي ترسخت في أذهانهم، والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة ومتحكمة في فئة عريضة منهم كالفقر والجهل جعلت هذه العادة القبيحة تلتف حول أعناقهم، وتسيطر على عقولهم، فلم يكن يستطيع الفرد التخلص منها بسهولة، لأن للأعراف سلطانا قويا على النفوس والعقول لاسيما في المجتمع الجاهلي الذي كانت المرأة فيه تتعرض للسبي، وفي ذلك ما فيه من عار وهوان على الأفراد والقبيلة. ولذلك تجد في الآيتين تصويرا بالغ الدقة حينما يبشر أحدهم بازدياد الأنثى ـ وإن كان في كلمة البشرى دلالة على كرامة هذه المولودة ـ إلا أن هذه البشرى تتحول بحكم العادات القبيحة إلى كآبة وحزن يكدران حياة هذا الرجل المبشر بالأنثى، فترى وجهه مسودا، وأعراض الغضب بادية على وجهه.

---

(1) سورة النحل، الآيتان 58-59.

ويبلغ الحزن ذروته حينما ترى هذا الفرد يختفي عن الناس، ولا يحاول النظر في وجوههم خوفا من السؤال عن المولود، وحتى إذا كان له قدر من الشجاعة، والإحساس بالأبوة، ومراعاة الجانب الإنساني الذي يشعر به في أعماقه فيجعله يحسّ بالذنب، ويحدّث نفسه بواجب الحفاظ على هذه المخلوقة، فانه يمسك مولودته على هون ؛ وفي هذه العبارة يسمو البيان القرآني سموا عاليا إذ يغوص في أعماق النفس البشرية في هذه الحالة من الحزن والغضب العارم ليبين العواطف الإنسانية النبيلة التي لا يستطيع أن يخفيها الإنسان مهما حاول في ذلك، هذه العواطف النبيلة هي عاطفة الأبوة الصادقة حين يمسك الأب ابنته بين يديه برفق، وهو يتألم ويشفق عليها مما ابتليت به الأنثى في هذا المجتمع الظالم، فترى في التصوير البياني لهاتين الآيتين صراعا نفسيا قويا عند هذا الفرد، أيخضع للعادات السيئة فيواري ابنته في التراب ؟ أم يضمها بين يديه ويغدق عليها الرحمة والشفقة لأنها بريئة من هذا الفعل الإجرامي ؟ انه صراع بين الشر المنتشر ظلما، وبين الخير الذي ينبغي أن يسود بين الناس، وهنا يأتي حكم الله ليظهر لهؤلاء القوم فظاعة فعلهم في قوله تعالى : ﴿ **ألا ساء ما كانوا يحكمون** ﴾ في هذه العبارة القوية الدلالة بيان واضح لما كان عليه القوم من جهل وفعل قبيح، فإذا كان الدافع هو العادات القبيحة السائدة في المجتمع فينبغي أن يقلعوا عنها لأنها سيئة وظالمة، وإذا كان الخوف من الفقر فالله هو الذي يرزق العباد، ومن هنا يأتي حكم الله العادل الذي ينبغي أن يسود بين البشرية جمعاء ألا وهو تحريم قتل النفس بغير حق، فقال عز من قائل : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾[1].

إن التصوير البديع للظواهر الاجتماعية والخلقية والاقتصادية، ولخبايا النفس الإنسانية في كتاب الله تجدها تبرز في الآيات بأشكال وألوان من التعبير والصيغ والمعاني، لترصد الحركات والانفعالات والسلوك الإرادي وغير الإرادي، ولا نعجب من هذا النهج في التصوير البياني في كتاب الله، لأن الغاية التي جاء من أجلها الإسلام هي إصلاح الناس من جميع الانحرافات القبيحة التي تضر بالفرد والمجتمع، سواء كانت اجتماعية أو خلقية أو اقتصادية أو فكرية، تجذرت في العقول بحكم العادات السائدة. ففي تصوير الجانب النفسي عند الإنسان في شدة الحرص على المال قال تعالى : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا** ﴾[2]. وقال في بيان تقلب أحوال الفرد بين اليسر والعسر، وبين الرخاء

---

(1) سورة الإسراء، الآية 31.

(2) سورة الإسراء، الآية 100.

والشدة، وحرصه على المال : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسّه الشر جزوعا وإذا مسّه الخير منوعا** ﴾[1].

في هذا التعبير نرى البيان القرآني يكشف ما جبلت عليه النفس البشرية من حب للمال والحرص عليه، وهذه ظاهرة فطرية واجتماعية واقتصادية، إذ الحرص على ما يمتلكه الإنسان كيفما كان نوعه، ولاسيما المال الذي هو عصب الحياة، شيء مغروس في طبيعة النفس، لكن الحرص المبالغ فيه يصبح ظاهرة شاذة، بل يكون ضارا بصاحبه وبالمتجمع وباقتصاد البلد. والقرآن الكريم في هذه الآيات يرصد هذه الظاهرة ليبين أن الشح والحرص على المال بطريقة فيها مبالغة ليست طبيعية، وان كانت النفس الإنسانية مجبولة على ذلك.

قال الزمخشري في بيان دقة وصف القرآن لهذه الظاهرة : «ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم»[2]. وليس الجوع أو الخوف من الفقر هو الذي يدفع الإنسان لشدة الحرص على ماله، وإنما الدافع لهذا السلوك هو الحب المفرط للمال، ويتجلى هذا الحب في كنزه حيث يحرم نفسه والمحتاجين والمجتمع عامة من الاستفادة من هذا المال، فيصبح المال سبب شقائه في الدنيا، وعذابه في الآخرة، ولهذا توعد الله الذين يفعلون ذلك بأشد العذاب، فقال عز من قائل : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[3].

وفي هذه الأوصاف والإشارات البيانية في كتاب الله يظهر كيف راعى الإسلام كل الجوانب التي تصلح الإنسان في حياته، وتسعده في آخرته التي هي دار إقامته، وفي كل هذا توجيه إلى سبل الخير بكل الوسائل لاسيما أن المال بالنسبة للمجتمع هو عصب الحياة، إذ لا يمكن أن يعرف المجتمع استقرارا وتطورا اقتصاديا وعمرانيا واجتماعيا بدون أن يكون المال متداولا بين الناس، وموزعاً توزيعاً عادلاً[4]. وفي هذه الآيات البينات دعوة إلى كيفية التعامل مع المال على أنه وسيلة لتنظيم الحياة في المجتمع

---

(1) سورة المعارج، الآيات 19-21.

(2) الكشاف : 468/2.

(3) سورة التوبة، الآيتان 34-35.

(4) لقد درسنا هذه الظاهرة في مقال : "الفكر الاقتصادي في الإسلام"، نشر في مجلة "الوعي الإسلامي"، عدد 508. وكنا قد شاركنا به في ندوة بجامعة "ناصر الأممية" بطرابلس سنة 2003م.

بـالـتـجـارة والمعـامـلات والصدقـات والـتـكـافل الاجتمـاعي الذي يـحد من الفـوارق الاجتماعية[1]. وقد بين الله في آيات عديدة وجوب الإنفاق، وعدم تكديسه في أيدي الأغنياء، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾[2].

إن الله الخبير بأمر العباد في حال الغنى أعلم بما هو أجدى لهم لتحقيق الأمن النفسي والاستقرار الاجتماعي : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[3]، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى في هذه الحياة أن يغني ويفقر، ويعطي ويمنع، ويبسط ويقبض : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير** ﴾[4].

وظاهرة تفاوت الناس في الأرزاق لم تقتصر على الأفراد فقط، وإنما شملت الطبيعة أيضا، فترى جهات من الأرض مخضرة تجري فيها المياه، وأخرى جدباء لا نبات فيها ولا ماء ولا زرع. لكن الله الخبير بأسرار هذا الكون أوجد كل شيء بنظام متزن وعادل برغم ما نرى من تفاوت بين الأفراد، وبين الطبيعة نفسها ؛ فكم من مكان قل فيه الزرع والنبات، لكنه كان زاخر العطاء بالرجال الأفذاذ الذين صنعوا التاريخ، وقادوا الإنسانية إلى مدارج الكمال. وكم من أماكن كانت عديمة النفع، لا يجد فيها الإنسان ما يسد به حاجاته الضرورية، فظهرت بها موارد طبيعية جعلتها أغنى منطقة في الأرض.

وفي هذا الاختلاف والتفاوت حكم بالغة تجعل الإنسان يتجنب الظلم والبغي، وقد دلت الأحداث في كل زمان ومكان على أن المجون واللهو والعبث، والاستخفاف بالقيم والمثل ومكارم الأخلاق، إنما تكثر مع الغنى، قال الرسولﷺ : «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها». وليس معنى هذا أن الإسلام يدعو إلى الفقر، وحرمان النفس من متع الحياة الدنيا، وإنما دعوته في هذا المجال إلى وجوب الاعتدال في الإنفاق، وعدم الحرص على الدنيا وجعلها هدفا وغاية في الحياة، ولأن المال وسيلة لإسعاد صاحبه

---

(1) نشرنا دراسات في بيان أثر الإنفاق في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. انظر مقالنا : "الوقف الخيري وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي"، نشر في مجلة "أوقاف"، عدد 7.

(2) سورة الحشر، الآية 7.

(3) سورة العلق، الآيتان 6-7.

(4) سورة الشورى، الآية 25.

والإنسانية جمعاء وبخاصة الفقراء والمحتاجين، والإسهام به في تنمية المجتمع في كل المجالات التي تدفع به إلى التطور والازدهار، وليس كنزه وتكديسه.

إن الغرب قد بلغ مكانة كبيرة في التقدم العلمي والازدهار التجاري والصناعي والاقتصادي، لكنه لم يوفق بين هذا الازدهار وبين القيم الإنسانية القائمة على العدل والمساواة بين الناس ـ وان كان قد وضع شعارات لذلك ـ كما أسرفت مجتمعاته في المجون واللهو والعبث، والاستخفاف بالقيم الأخلاقية، فكانت النتيجة هو ما وصل إليه من تفشي الرذائل، وحرمان فئة عريضة من العيش الكريم، وركود في الاقتصاد، وتعثر في التجارة والصناعة، مما ينذر بنهاية حضارته وقوته الصناعية والتجارية.

أما الإسلام فقد وجه الناس جميعا إلى كل ما يسمو بهم، ويحفظهم من التمزق والضياع، فلم يهمل جانبا اقتصاديا أو اجتماعيا أو أخلاقيا. وكل هذه الظواهر التي نراها الآن في المجتمعات الإسلامية، تعصف بالإنسانية أخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا قد نبه إليها الإسلام، وحرم كل تعامل لا يقوم على مبدأ المساواة واحترام كرامة الإنسان. ولا أدل على ذلك مما نجده في الآيات البينات من ذكر كل ما يمكن أن يفرق بين الأفراد نتيجة صدور سلوك قبيح منهم يضر بالآخرين، فقد حرم ذلك، ودعا الناس إلى اجتنابه، وصور من يفعل ذلك بصورة قبيحة وكريهة يأبى الإنسان أن يرى نفسه فيها، من ذلك ما ذكره في الفئة التي تتجسس على الناس، وتتبع عوراتهم وعيوبهم، وذكرهم بالسوء في غيابهم. هذا السلوك ذمه الإسلام ونهى عنه لأنه يتنافى مع القيم الفاضلة، والأخلاق النبيلة التي ينبغي أن تسود في المجتمع الإسلامي، فانظر إلى القرآن كيف صور هذه الحالة الشاذة في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم و لا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** ﴾[1].

تبدأ المعاني والدلالات والتصوير في هذه الآية الكريمة بدعوة المؤمنين إلى اجتناب الظن القبيح بالآخرين، لأنه سبب الإثم والعدوان والظلم، ثم يأتي النهي عن التجسس والاغتياب، وتكتمل الصورة في بيان قبح وشناعة ذلك الفعل حين يرى هذا الفرد نفسه ـ وهو في هذه الصورة ـ في حالة وهيأة بهيمية قبيحة، يأكل لحما نتنا قد اجتمعت عليه الحشرات والديدان، وانبعثت منه الروائح الكريهة، وليس أي لحم وإنما هو لحم أخ عزيز عليه.

---

(1) سورة الحجرات، الآية 12.

هذه الصورة القبيحة يرفضها كل إنسان فيه قدر من الإنسانية فبالأحرى المؤمن الذي يخشى الله من كل فعل قبيح مهما صغر حجمه ونوعه، وإذا كان بعض الناس يظنون أن الاغتياب والتجسس أمران هينان مقارنة بالأذى المباشر، فان الإسلام قد بين لهم بتلك الصورة القبيحة أن خطرهما أشد وأقوى في إحداث التفرقة ونشوب العداوة بينهم، وهي مصدر كل بلاء، فقد تشتعل الحروب نتيجة كلمة سوء، فلذلك حذر القرآن الكريم المؤمنين من هذا الفعل الشنيع، وقد أكدت السنة فظاعة هذا العمل حينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، فان من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته».

يؤكد الحديث الشريف أن هذا الفعل لا يمكن أن يصدر من المؤمن، ولذلك قال عليه السلام : «يا معشر من آمن بلسانه...، دلالة على أن الذين تعمق الإيمان في قلوبهم لا يمكن أن يفعلوا مثل ذلك في مجتمع ينبغي أن تسود فيه الرحمة والمودة.

ومما ذكره البلاغيون في الخصائص البيانية لهذه الآية الكريمة أنها أبرزت المعاني بصور عديدة ليكون تأثيرها أقوى في النفوس، من ذلك المبالغة، ومجيء الاستفهام بمعنى التقرير، واقتران الفعل المقصود به الكراهية بالمحبة، وتصوير الاغتياب في أكل لحم مدود لأخ عزيز[1]. وكل ذلك جاء بعد الطلب من المؤمنين أن يجتنبوا ظن السوء خاصة،لأن الظن الحسن هو فأل خير، وسبيل إلى زيادة المحبة بين الناس، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾[2]. والآيات البينات التي دعت إلى اجتناب الظن ـ لما فيه من مساوئ ـ كثيرة في كتاب الله.

---

(1) الكشاف : 568/3.

(2) سورة التوبة، الآية 118.

الفصل الخامس

ظواهر أسلوبية في البيان القرآني

المبحث الأول

ظاهرة التناسب في البيان القرآني

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1].

التناسب في المعاني والمباني ظاهرة متميزة في البيان العربي، وسمة أسلوبية في تراكيب اللغة العربية. فهذه اللغة غنية بالتعابير الحقيقية والمجازية، من استعارات وتمثيلات وإشارات وكنايات وتلميحات، بالإضافة إلى التعابير التي تسهم في التوازنات الصوتية كالأسجاع والفواصل والمقاطع والقوافي. وكل هذه التعابير تساعد على توفير خصائص التناسب والتوازن والتلاؤم.

ولكون التناسب ظاهرة فنية تبدو محاسنها جلية في الأساليب، وتحقق اعتدالا وتناسبا يرتاح إليهما المتلقي، فقد كان يوشح به الشعراء والكتاب شعرهم ونثرهم من أجل توفير المتعة الفنية لإنتاجهم، إما عن طريق الاقترانات بين المعاني بالمجازات، أو بالاعتماد على التأليف الحسن بالألفاظ المستعذبة والمتوازنة. قال حازم : «وحسن إيقاع الاقترانات والنسب بين المعاني مثل التأليف الحسن في الألفاظ الحسنة المستعذبة»[2].

واللغة العربية بسعة فنونها البلاغية، وغنى مفرداتها الدلالية والاشتقاقية، ومرونتها في التعبير جعلتها تتوفر على الخصائص المطلوبة في الأدب، وهي سعة الخيال، وروعة التصوير، وفيض الأحاسيس والمشاعر والعواطف. وهذه السمات الأدبية لم تبعدها عن لغة العلم التي تضبط الفكر، وتصف الأشياء بالمنهج العقلي والتجريبي والتحليلي. وبذلك وجد فيها الشاعر والكاتب والخطيب والعالم الخصائص المطلوبة في التعبير؛ فالشاعر يغترف منها أسلوبا أدبيا غنيا بالخيال والتصوير الفني حيث ينقل ألفاظها من التعبير الحقيقي إلى التعبير المجازي بالكناية والاستعارة

---

(1) سورة محمد، الآية 22.

(2) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : 84.

والإشارة واللمحة الدالة. والعالم يأخذ مفرداتها على وجه الحقيقة لتسمية الأشياء بمسمياتها، فيحلل ويدرس ويوثق بالحجة والبرهان والدليل دون أن يشعر بعجز في الأداء.

واللغة العربية لم تقف عاجزة طيلة قرون عديدة عن أداء دورها الأدبي والعلمي حتى في العصر الذي أطلقوا عليه اسم الانحطاط، وقد وجدنا عددا كبيرا من الذين كتبوا بهذه اللغة قد جمعوا بين الإبداع الأدبي، وبين التأليف العلمي.

وأنماط التعابير التي يمكن البحث فيها عن ظاهرة التناسب كثيرة ومتعددة في أساليب اللغة العربية، منها ما يأتي عن طريق الفنون البلاغية، ومنها ما يأتي عن طريق النظم. والنوعان معا ينبغي أن يأتيا على جهة الصحة معنى ومبنى. ولهذا السبب لم يتسامح النقاد في أخطاء المعاني والمباني لأنها تفقد الكلام جزءا كبيرا من بيانه الذي يوفر له سمته الأدبية، فقائل هذين البيتين :

فيا أيها الحيران في ظلم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغي من العدا

تعال إليه تلق من نور وجهه ضياء، ومن كفيه بحرا من الندى

أفسد المعنى بمجيئه بتفسير غير موافق للمعنى، إذ المقابلة في عجز البيت الأول لا تلائم ما في عجز البيت الثاني. قال حازم : «والتسامح في إيراد التفسير على مثل هذا مخل بوضع المعاني، ومذهب لطلاوة الكلام، فينبغي أن يتحرز منه، وألا يتسامح في مثله»[1].

ومثل ما ذموا الإحالة في المعاني، ذموا كذلك الألفاظ الغريبة والحوشية والمتقاربة من حيث المخرج، لأنها مخلة بالفصاحة، كقول الشاعر :

وقبر حرب في مكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

والباحث في أنماط التعابير في شعر العرب عامة، وفي القرآن الكريم خاصة ينبغي أن يكون عالما بالطرق التي بنى عليها العرب كلامهم حقيقة ومجازا. وفي كتب اللغة والبلاغة والمعاني مباحث طريفة ودقيقة في طرق أداء المعاني. ومما جاء في التراكيب المتناسبة في البيان القرآني قوله تعالى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[2].

---

(1) المصدر نفسه : 59.

(2) سورة طه، الآيتان 118-119.

إن أسلوب هاتين الآيتين بصيغته التركيبية يدل على دقة المعاني، وعلى الوجوه التي تحسن من جهة تناسبها. وقد كان البحث في وجه تناسبها مجال اختلاف بين أصحاب البيان لمعرفة السر في الجمع بين الجوع والعري، وبين الظمأ والضحى، لأن ما يبدو للوهلة الأولى أن يكون الجمع بين الجوع والظمأ، وبين العري والضحى أنسب لتقاربهما. لكن الباحثين في خصائص المعاني والتراكيب اهتدوا إلى سر التناسب من جهة ما تعارف عليه القوم، وما اعتادوه في خطابهم اليومي لأن العرف أقوى، وتمكنه من نفوس القوم أشد. قال ابن رشيق : «إنما أجري الخطاب على مستعمل العادة، وفيه مع ذلك تناسب، لأن العادة أن يقال : فلان جائع عريان، ولا يستعمل في هذا الموضع عطشان ولا ظمآن. وقوله : تظمأ وتضحى، متناسب، لأن الضاحي هو الذي لا يستره عن الشمس شيء، والظمأ من شأن من هذه حاله»[1].

إن الناقد والباحث في المعاني يولي اهتماما في بحثه عما تعارف عليه الناس فيجعله أولى بالتقدمة والنظر، لأن الأشياء المألوفة عند الجمهور تجد قبولا واستحسانا أكثر من الأشياء المغمورة والنادرة ولو كانت أجود وأفضل من المشهور. قال حازم : «فما فطرت نفوس الجمهور على استشعار الفرح منه والحزن أو الشجو أو حصل لها ذلك بالعادة هو المعتمد في الأغراض المألوفة في الشعر، والمبني عليه طرقها»[2].

وقد كان لهذا التركيب أثر كبير في توجيه الشعراء والأدباء لطريقة تأليف المعاني على وجه الصحة. فقد ذكر النقاد أن بعض أصحاب البيان نقد بيتي امرئ القيس :

كأني لم أركب جوادا للذة	ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي، ولم أقل	لخيلي كري كرة بعد إجفال

وادعى عليه أنه لم يحقق تناسبا في المعنى، لكونه لم يجمع بين الأشياء المتقاربة فيما بينها، وهي الجود والكر، والخمر والنساء. لكن هذا النقد رده من كان أعلم منه بتناسب المعاني، وبطريقة تأليفها بمراعاة العرف والعادة عند الجمهور مستدلا بالآيتين، واعتبر ذلك مذهبا مستحسنا في البيان[3].

---

(1) العمدة : 1/444-445.

(2) منهاج البلغاء : 22.

(3) المنزع البديع : 520.

إن خاصية التناسب في الكلام العربي الفصيح، وفي القرآن الكريم، ينظر إليها من جوانب الذوق وما استحسنه الناس في حياتهم، لكون الشيء المعروف أقرب إلى الطبائع والأمزجة. وكتاب الله نزل بلسان العرب، وجاءت آياته البينات مراعية لأحوالهم وأعرافهم وعاداتهم الاجتماعية والاقتصادية والخلقية والنفسية، وقد أبقت على المستحسن وحاربت القبيح، إما بالتدريج إذا كانت العادة متحكمة في نفوس القوم مثل الآيات التي جاءت في تحريم الخمر[1]، وإما بالأمر باجتنابها دون تأخير إذا كانت رذائل تتنافى مع الأخلاق والفضائل والقيم النبيلة مثل الزنا والربى والسرقة والقتل[2]. ولذلك كان خطاب القرآن يرصد كل جزئية في حياة العرب بالتهذيب والإصلاح والإرشاد والتوجيه من أجل تكوين مجتمع متماسك في بنيانه، مؤمن بالعقيدة السمحاء، وبما دعت إليه من فضائل ومثل.

ولكون الآيات البينات جاءت ملائمة لحاجة أفراد المجتمع، ومراعية مدى تعلقهم بما يحيط بهم وبما يرتبط بمعيشتهم، فإنها قد جمعت بين أشياء قد تبدو متباعدة في الظاهر، لكنها في جوهرها وحقيقتها أكثر قربا وتجانسا فيما بينها لحاجة الناس إليها، فكانت متناسبة غاية التناسب في الموضوع الذي وردت فيه، كقوله تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[3].

الغاية من الجمع بين هذه المخلوقات هو تنبيه الإنسان البدوي خاصة إلى دورها في حياته اليومية، وجعله يتأمل كل واحدة منها بفكر صائب، وذهن متيقظ، وإحساس مفرط لما تقدمه له من منافع، ولتقدير خالقها الذي أوجدها بهذا الشكل المتناسق، وإرشاد الإنسان إلى الكيفية التي تجعله يجني منها المنافع. والبدوي الذي

(1) فقد بين قوله تعالى إثمها مع الميسر : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ (سورة البقرة، الآية 217). ثم أمر الله تعالى المؤمنين بعدم أداء الصلاة في حالة السكر : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ (سورة النساء، الآية 42). ثم أمرهم تعالى باجتنابها والانتهاء من شربها لما فيها من مضار. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون** ﴾ (سورة المائدة، الآية 94).

(2) قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ (سورة الإسراء، الآية 32). وحرم الله السرقة بأسلوب صارم فقال عز من قائل : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** ﴾ (سورة المائدة، الآية 41).

(3) سورة الغاشية، الآيات 17-20.

يصبح ويمسي على هذه الأشياء لايجهل منافعها، وأثرها في حياته، لكن الله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الترتيب لكي تكون حاضرة في ذهن المخاطب، لأنه ـ بحكم العادة ـ أصبح اهتمامه بها أقل مادامت موجودة، ويجني منافعها منها بشكل طبيعي. فلم يخطر بباله في يوم ما أن يسأل عن خالقها ومدبرها، وعما يجب عليه نحو رازقه الذي خلقه وسواه في أحسن صورة، وأمده بكل ما يحتاج إليه لكي تستمر حياته في نظام، وتكفل له السعادة وهو يراها في الصباح والمساء، وأينما حل وارتحل. قال الزمخشري : «قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم»[1].

إن الإشارة إلى هذه الأشياء بهذا الانتظام يجعلنا نستفسر عن ارتباطها الوثيق بحياة العربي في بيئة صحراوية عانى منها شظف العيش، وقساوة الطبيعة. ألم يجد العربي في الصحراء الإبل خير معين له في حياته ومعيشته اليومية ؟ لقد كان يشرب ألبانها، ويأكل لحومها، ويبني بيته من وبرها، وهي أنيسه في رحلته الشاقة في صحراء ممتدة الأطراف، مجهولة المعالم، تلفحه بشمسها الحارقة في النهار، وتوحشه في ليلها الذي يبدو كأنه لا أول له ولا آخر، شحيحة في عطائها، فلا ماء يكفيه ويطمئنه على حياته، ولا زرع ولا عشب ينموان بانتظام ليوفرا له ولماشيته الأمن في حياته. لقد رمته الأقدار في هذه البيئة ليعيش في صراع دائم من أجل الحصول على النزر اليسير من الماء والغذاء والعشب. ولولا هذا الحيوان الصبور لما استطاع التغلب على قساوة البيئة. والجبال والأرض والسماء ألم يجدها العربي مجالا ومتسعا يقضي فيها أيامه ولياليه في زمن السلم والحرب ؟ لقد كان هذا المجال أقرب إليه من نفسه، فمن السماء كان يترقب الغيث الذي تتفجر به العيون، وتخضر الأرض، وتعود للنفوس طمأنينتها، فينعم بالهناء ولو فترة وجيزة من حياته المليئة بالكد والشقاء. أما الجبال الشاهقة المنيعة فكانت حصنا يحتمي بها من الأعداء في زمن الحرب والشدة، إنه يحس، وهو في أعاليها، بالأمن في بيئة يكاد ينعدم فيها الأمن، ولم تهدأ فيها الحروب، فجعلت الإنسان البدوي لصا وصعلوكا وقاطع طريق :

لنا جبل يحتله من نجيره　　　منيع يرد الطرف، وهو كليل

وبهذه النظرة للأشياء المذكورة في الآيات يبدو ترابطها وتقاربها وائتلافها، فتتجلى لنا خصائص التناسب في البيان القرآني : «فعند نظره هذا أيرى البدوي إذا أخذ

---

(1) الكشاف : 247/4.

يفتش عما في خزانة الصور له، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة، أو تعوزه صورة الجبال بعدهما، أولا تنص إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا، وإنما الحضري حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه، إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت، ظن النسق بجهله معيبا للعيب فيه»[1].

إن الاهتداء للأسرار واللطائف في بيان القرآن يحتاج إلى خاطر وقاد، وفهم حاد، وطبع سليم، وذوق مهذب، يجعل الدارس لكتاب الله يعرف سبب إذعان العرب الذين خوطبوا بهذا الكلام، وهم من هم في الفصاحة والبيان، والملكة اللغوية التي تأصلت فيهم. كما يدرك الأسباب التي جعلت الخطاب الإلهي يكون على هذه الصفة دون غيرها، ويصاغ بهذا التركيب لا بذاك. إن الإعجاز صفة بيانية تركيبية، ومعان خفية، وأخبار غيبية لاقدرة للعقل الإنساني على خلقها، تآلفت كلها لتجعل من كتاب الله حجة على القوم الذين خوطبوا بمثل كلامهم، لكنهم عجزوا عن الرد والتحدي : «وجب عليك أيها الحريص (....) أن ترجع إلى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، وانتباهك العجيب الشأن، ناظرا بنور عقلك، وعين بصيرتك»[2].

وكل من فاته الذوق السليم، وتعطل خاطره اليقظان كان حريا أن تغيب عنه أشياء كثيرة من هذا البيان الرباني الذي بهر الألباب، وأنى له أن يدرك خفايا التناسب التي تعددت أوجهها ومسالكها في كتاب أحكمت آياته، مثل ماجاء عن طريق الحذف في قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه، قل إن افتريته فعلي إجرامي، وأنا بريء مما تجرمون** ﴾[3].

لايمكن التعرف على ما في الآية من معان متناسبة بدون معرفة خصائص الحذف في اللغة العربية، ولماذا يستحسن في هذا الموضع، ويستهجن في ذاك ؟ والنظر في محذوفات هذه الآية، وتقديرها حسب السياق هو المسلك لمعرفة خاصية التناسب حيث يرجع كل محذوف إلى موضعه، فيتجلى التناسب في أكمل صوره وأبهى تجلياته. وتقدير المحذوفات هي : إن افتريته فعلي إجرامي [وأنتم براء منه، وعليكم إجرامكم] وأنا بريء مما تجرمون.

هذا التقدير للمحذوفات ينظر إليه من جوانب تركيبية بيانية أسلوبية. لأن التركيب اقتصر على المذكور لتوفير سمة التناسب بين ما صرح به وما أضمر. والذين

(1) مفتاح العلوم : 258.

(2) المصدر نفسه : 175.

(3) سورة هود، الآية 35.

خوطبوا بهذا الكلام كانوا أقدر الناس على إرجاع المحذوفات، ومعرفة السر البياني في حذفها. قال السجلماسي : «وهذا النوع بالجملة هو من القول الجميل، ذي الطلاوة والبهجة والماء والعذوبة، الجزل المقطع، الغريب المنزع، اللذيذ المسموع، لما بين أجزائه من الارتباط، لما للنفس الناطقة من الالتذاذ بإدراك النسب والوصل بين الأشياء، ثم بإبراز ما في القوة من ذلك إلى الفعل، وبالشعور به. فلذلك توفر عليه من المزية ما تراه يباين به سائر النظوم»[1].

وإبراز الخصائص الجمالية في الأسلوب لا ينحصر في تركيب معين، وإنما هي ظاهرة متميزة في تراكيب اللغة العربية، ولهذا تجدها في الفنون البلاغية وفي غير الفنون، ولذلك جمع السجلماسي الفنون التي تأتي عن طريق الترتيب والنظام، أو بغير ترتيب ونظام، ورصد من خلالها ما تتوفر عليه اللغة العربية من خصائص التناسب الذي تجد النفس فيه لذة ومتعة فنية. وقد وزعها في "جنس الرصف"[2] بين شكلين من التعبير، الأول : تعبير يأتي على ترتيب أصلي، ونظام طبيعي. والثاني : تعبير يخالف الترتيب الأصلي والنظام الطبيعي. وبرغم اختلاف النوعين فإن خصائص التناسب تظهر جلية لكل من له ذوق وقدرة على تمييز الأساليب. أما مجيء الأسلوب على ترتيب أصلي، ونظام طبيعي فقد أورد شاهدا منه قوله تعالى : ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء** ﴾[3].

خصائص التعبير البياني المتناسب في هذه الآية تحققت بواسطة التقابل على نظام أصلي حيث جاء الجزء المتقدم متناسبا مع المتأخر، يجعل الدارس يرجع كل جزء إلى ما يقابله على وجه الصحة والتمكن، فقوله تعالى : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ يقابل ﴿ **نفعا** ﴾، وقوله تعالى : ﴿ **وما مسني السوء** ﴾ يقابل ﴿ **ولا ضرا** ﴾.

هذا الترتيب الأصلي والنظام الطبيعي استوفى شروطه من الناحية الجمالية الفنية والأسلوبية، والغاية التي حققها تمثلت في استيفاء المعنى، وتمكين الدلالة في نفس المتلقي. ولهذا وجدنا السجلماسي يقدم لشواهده من القرآن والشعر البليغ بقوله : «ومن صوره البديعة غير المتميزة إلا للمرتاض بقوانين البيان، وأساليب البديع الريان»[4].

---

(1) المنزع البديع : 195.

(2) الرصف : هو النضد على ترتيب ونظام.

(3) سورة الأعراف، الآية 188.

(4) المنزع البديع : 348.

ولعل الإشارة إلى سمة بيانية أخرى في هذا الأسلوب وهو أنه يجنب التعبير صفة الأسلوب التقريري الذي يخلو من سمات الإبداع والتمين، وقد كان الشعراء المبرزون يعمدون إلى هذا الأسلوب وأمثاله لإظهار براعتهم في المعاني، مثل امرئ القيس في قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا　　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

جمع في الشطر الأول بين معنيين مختلفين، وهما : الرطب واليابس، ثم فصل في الشطر الثاني ما جمعه حيث رد كل واحد إلى ما يلائمه على جهة الصحة في المعاني، فكان العناب ملائما للرطب من القلوب، والحشف البالي ملائما لليابس منها. والمتعة الفنية في تذوق مثل هذه المعاني ليس في غرابتها وندرتها، وإنما في تناسبها، وتقابلها المنتظم، وتقديمها للمعاني في حلة طريفة غير مألوفة.

ولكون التقابل يقع برد كل جزء إلى ما يلائمه فإن ذلك يتطلب عملية منتظمة في الفكر لتأويل المعاني، وترجيح الأقرب، وفي كتاب الله معان اجتهد الفقهاء في توضيحها عن طريق التقابل المتلائم، ولهذا كانت بعض الآيات التي جاءت معانيها موافقة لهذا التناسب موضع اختلاف بين الفقهاء لإقرار أحكام شرعية بالغة الدلالة في عقيدة المسلمين، كقوله تعالى : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1].

لقد اختلف الفقهاء في تأويل معنى هذه الآية بناء على تقابل أجزائها، لأن الذي يستقر في الذهن عن طريق التقابل المنتظم يجعل مجرد الردة محبطة للعمل دون اقتران ذلك بالوفاة، ويظهر هذا المعنى من مقابلة قوله تعالى : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه** ﴾ بـ ﴿ **فاولئك حبطت أعمالهم** ﴾، وقوله تعالى : ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ بـ ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾.

إن هذه المقابلة تجعل مجرد الردة تحبط العمل دون الوفاة على الكفر، وهي مقابلة سليمة في التركيب البياني لأساليب اللغة العربية، إلا أن الفقهاء الذين اجتهدوا في استنباط الأحكام من كتاب الله بمنهج تفسير القرآن بالقرآن باعتبار آياته المحكمات والمتشابهات غير متناقضة اختلفوا في حكم المرتد، فمالك رضي الله عنه كان يرى مجرد الردة تحبط العمل دون الوفاة على الكفر، كما هو واضح في التقابل البياني في الآية. كما استنبط هذا الحكم من معنى قوله تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن**

(1) سورة البقرة، الآية 217.

عملك ﴾[1]. هذه الآية صريحة الدلالة في هذا المعنى، إذ مجرد أن يشرك المرء يحبط عمله. بينما الإمام الشافعي كان يرى الردة وحدها لاتحبط العمل حتى تقترن بوفاة المرتد على الكفر، لأن التنصيص على ذلك صريح في قوله تعالى : ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ والسبب الذي جعل مالكا يعتبر إحباط العمل يتم لمجرد الردة، هو أن المرتد تفوته في حياته مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام المتمثلة في حسن العبادة، وامتثال أوامر الإسلام في المعاملات، وما يصحب ذلك من زهد وتقوى وعمل صالح[2].

أما الأسلوب المتناسب بصيغ غير مرتبة على نظام طبيعي، وترتيب أصلي فإنه يتميز بنفس الدقة التي تأتي في الأسلوب المنتظم، ولذلك فإن فهمه يتطلب درجة عالية في فهم تراكيب اللغة العربية مع سرعة البديهة، وإدراك المرامي البعيدة والقريبة في دلالات تراكيب العربية. قال السجلماسي يشير إلى هذه الفئة من الناس وبخاصة الأعراب الذين أدركوا مرامي هذه الأساليب البيانية البليغة : «ثقة بعبرة الناظر، وظهور النسبة، وفهم المعنى»[3].

والمعاني التي جاءت بهذا الأسلوب في القرآن الكريم تخاطب أصحاب البديهة والفطنة والإدراك السليم، لأن هؤلاء قادرون على صحة التأويل والفهم السليم، بإرجاع كل جزء من التعبير إلى ما يلائمه، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[4].

تصف الآية الكريمة صدق إيمان المؤمنين، وحسن عبادتهم، وامتثالهم لأوامر الشريعة السمحاء، ولذلك جعلت سلوكهم مرضيا عند الله. وكان سبب نزول هذه الآية أن كبار المشركين الذين كانوا يعدون أنفسهم أفضل الناس في قومهم قد استكبروا، وأبوا أن يجالسوا الضعاف من قومهم الذين حسن إسلامهم، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو طردت عنا هؤلاء الأعبد، يعنون فقراء المسلمين، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم، رضوان الله عليهم (...) جلسنا إليك وحادثناك. فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين»[5].

(1) سورة الزمر، الآية 65. والخطاب للرسول عليه السلام، والمراد به أمته، لأن الردة تستحيل منه شرعاً.
(2) الأحكام الصغرى : 83/1.
(3) المنزع البديع : 350.
(4) سورة الأنعام، الآية 52.
(5) الكشاف : 21/2.

إن نزول الآية الكريمة كان من أجل إعلاء شأن المؤمنين الذين أخلصوا العبادة لله، والطاعة لرسوله، دون النظر إلى مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية، وإلى أصولهم وأعراقهم، لأن الإسلام جاء ليزيل الفوارق الزائفة، فالناس سواسية لا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالإيمان والتقوى والعمل الصالح مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير** ﴾[1].

وقال أبو العتاهية :

لا فخر إلا فخر أهل التقى غدا ، إذا ضمهم المحشر

ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يذخر[2]

والتناسب البياني في الآية الكريمة يتم بإرجاع كل جزء من التعبير إلى ما يوافقه معنى وسياقا دون الإخلال بقانون النحو الضابط لسلامة التراكيب، ولذلك كان المتناسب في سياق هذه الآية أن يرجع قوله تعالى : ﴿ **فتطردهم** ﴾ إلى ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾، إذ المعنى لا يستقيم إلا بهذا التقابل، قال السجلماسي : «لأنه لفقه الذي يقتضيه إن كان نفيا يقتضي الجواب، وليس يمكن أن يقع وينزل جوابا له غير قوله : فتطردهم»[3].

وكذلك يقابل قوله تعالى : ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ قوله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾.

وقد أشار الزمخشري إلى ما تحقق في هذه الآية من تناسب كان للنحو تأثيره البين فيه، فقال : «"فتطردهم" جواب النفي، "فتكون من الظالمين"، جواب النهي. ويجوز أن يكون عطفا على "فتطردهم" على وجه التسبيب، لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم»[4].

نلاحظ أن التركيب البياني السامي في الآية الكريمة تحكم فيه قانون النحو الذي ضبط صحة معناه، ففيه نفي ونهي تطلب كل منهما جوابا، فكان جواب النفي "فتطردهم" وجواب النهي "فتكون من الظالمين" وهذا هو الذي حقق للآية تناسبا بيانيا غاية في الدقة.

---

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) ديوانه : 152.

(3) المنزع البديع : 352.

(4) الكشاف : 22/2.

ونجد التناسب في أساليب القرآن ينحو منحى لطيفا حينما تتقارب الألفاظ مبنى وتختلف معنى، فيكون الجامع بين لفظتين معنى كليا عاما، ثم ينصرف معنى كل لفظة إلى جهة يحددها السياق كقوله تعالى : ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾[1].

الانصراف في اللفظتين دال على معنى كلي، لكن معنى اللفظة الأولى يختلف عن الثانية، إذ الانصراف الأول انصراف عن ذكر الله، والثاني بمعنى صرف القلوب عن الخير، وهو دعاء عليهم. وفي الاختلاف بين المعنيين برغم توحد المبنى يكمن التناسب الخفي بين دلالتين في موضع واحد، وهذا يبين لطائف التركيب البياني في القرآن، وأسرار ألفاظه التي ترد على وجوه مختلفة لتطابق المعاني بحسب المقام. قال السكاكي : «ولله در التنزيل، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة، بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى شيئا منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه»[2].

كما نجد ظاهرة التناسب في القرآن تسلك مسلك الإبداع والتعجيب والإحسان عن طريق فنون البلاغة، فترى الكلام المعجز يسمو إلى وجوه من التراكيب والترتيبات والاقترانات البليغة تجعل النسب بين المعاني متآخذة فيما بينها في تناسق حسن، وتفصيل بديع، واستدلال محكم، وتعليل مقنع. وهذه استعارة من بيان القرآن السامي جاءت مستوفية للتناسب المحكم بين المعاني والمباني، وهي قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾[3].

إن المعاني التي جسدتها هذه الآية في الأمن والاطمئنان، والرزق الوافر، والعيش الرغيد، وجدت بجانب معاني الجوع والخوف، وهما نقيض ما تقدم، هذا التقابل لم يأت صدفة في بلاغة القرآن، وبيانه السامي، وإنما جاء من أجل إقناع المخاطبين بقدرة الله سبحانه وتعالى على التصرف المطلق في الكون ومخلوقاته.

وألفاظ الآية تمثل الخصائص البيانية التي أشار إليها النقاد، وهي انسجامها فيما بينها، سواء جاءت عن طريق التشابه أو التجاور أو التضاد. ومن هنا ندرك المزية البيانية في اقتران ألفاظ كثيرة في القرآن مثل الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء

---

(1) سورة التوبة، الآية 127.

(2) مفتاح العلوم : 238.

(3) سورة النحل، الآية 112.

والأرض، والجنة والنار، والموت والحياة، والأمن والخوف، والرغبة والرهبة، والوعد والوعيد، والمؤمنين والكافرين، والنعيم والعذاب، وغيرها من الألفاظ التي كثرت في كتاب الله مقترنة مع بعضها في آيات كثيرة. وقد أشار إلى هذه الظاهرة اللغوية عالم العربية الأكبر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقال : «وفي القرآن معان لاتكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، والخوف والجوع، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس، والسمع والبصر»[1].

هذا الاقتران أكسب المعاني والألفاظ في القرآن تناسبا وتشاكلا بديعين، وأصبح كتاب الله مضرب المثل في التناسب اللفظي والمعنوي. ومما جاء من هذه الألفاظ عن طريق التضاد، فكشف معاني بديعة، وحقائق عميقة لأسرار الوجود والكائنات قوله تعالى : ﴿ **تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾[2].

التضاد في هذا السياق البياني يجعلنا نتأمل أسرار الوجود، والغاية من إيجاد المخلوقات على صورة وهيأة منتظمتين، لأن في انتظامها يكمن سر بقائها إلى أجل محدد، فالليل والنهار يتعاقبان، ويتخلص كل واحد من الآخر بطريقة فيها توازن واعتدال في غاية الدقة والضبط، إذ لليل زمنه المحدد، وطبيعته الكونية التي لم تتغير منذ أن خلق الله هذا الوجود حيث ترى فيه سكونا ووحشة وظلمة جاثمة، ورعبا وخوفا، وبجانب هذا فيه راحة للجسم من التعب والكد بعد يوم من العناء. وللنهار وقته المحدد، وطبيعته المتميزة، وهي السعي للعمل الذي يؤمن للإنسان وجوده، والابتهاج ببدء الحياة التي تتميز بالاستمرار. بهذا النظام الإلهي المحكم تسير الحياة وتنتظم الكائنات في الوجود لتقوم بدورها في التكاثر والعطاء والإنتاج، ويتمكن الإنسان من تنظيم فكره وأعماله وأوقاته، إنها قدرة الله المتحكمة في كل شيء، وعظمته المحيطة بكل ما في هذا الوجود مهما صغر حجمه ودق في الخفاء. إن الله سبحانه وتعالى أوجد نعمه الظاهرة والخفية لكي يكون الإنسان آمنا مطمئنا في هذا الوجود، يسعد في حياته ثم يعود إلى ربه وقد أدى واجبه الديني والدنيوي. ويكفي هذا المخلوق فخرا أن الله كرمه وفضله على سائر المخلوقات : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[3].

---

(1) العمدة : 445/1.

(2) سورة آل عمران، الآية 27.

(3) سورة الإسراء، الآية 70.

هـذا هـو الـتـعـبير الـقـرآني السـامـي، يـغـوص في أسرار الـوجـود، وأعـمـاق الـنـفس الإنسانية بـألوان من التراكيب والفنون، ليخلق أنسا ووحشة، أو حركة وسكونـا، أو حيـاة وموتـا، أو ضيـاء وظلاماً. ويبقى السر من وراء هذه التعـابير هو مـا تحققه من غـايـات نبيلة في الموعظة والإرشاد والتنبيه والتذكير. ولذلك نص المفسرون وعلماء البيـان على وجوب إظهار هذه الأسرار في الكتاب العزيز، إذ لم يقع التحدي به إلا لكونه احتوى عـلـى نـظم بـاهـر، وبـلاغـة عـالـيـة، ولـغـة رصيـنـة، ومـعـان شريـفـة، وأسرار عـمـيـقـة. قـال الزمخشري : «ومن حق مفسر كتـاب الله البـاهر، وكلامه المعجز، أن يتعـاهد في مذاهبه بقـاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، ومـاوقع به التحدي سليمـا من القـادح، فـإذا لم يتعـاهد أوضـاع اللغة فهو من تعـاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1].

ومـثـل هـذا الـتـجـانس الـبـديـع بين الألـفـاظ والمعـاني في الـكـتـاب المحكم مجيء الضحى والليل في قوله تعـالى : ﴿ **والضحى والليل إذا سجا** ﴾[2]. لقد حقق القسم بـالضحى والليل غـاية سامية، وحكمة بـالغة، تظهر فيها عظمة الخـالق الذي جعل الـضـحـى والـلـيـل رحـمـة لـلـعـبـاد، يـنـعـمـون فـيـهـمـا بـزمـن السكون والراحة، وزمن السعي والبذل. وكل عـاقل ينبغي أن يمعن النظر في هذه الرحمة الإلهية، ويتخيل كيف تكون حيـاته بضدهـا لو أصبح ليله دائمـا، ونهاره لا تغيب فيه شمسه، أو أن السمـاء لا تمسك أمطارهـا، ولا تتوقف عواصفهـا.

لاريب أن مثل هذا يحدث اضطرابـا في حيـاة الكـائنـات الحية، فلذلك كـانت رحمة الله بـالمخلوقـات في هذا التغيير المنتظم : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[3].

وحكمة الله في خلق هذا الوجود منهـا مـا ندركه لأنه ظاهر للعيـان، ومتحدث عن نفسه بذاته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومنهـا مـا تعجز عقولنـا عن إدراكه، لأن للعقل حدا في فـهم الأشيـاء، فلذلك نتركهـا لله الذي لايخفى عليه شيء. لكن مـا ظهر من أسرار هذا الوجود يكشف بجلاء رحمة الله الواسعة بعبـاده، إنهـا الرحمة التي تجعل الإنسـان على بينة ممـا يعمله، ويفكر فيه،

(1) الكشاف : 189/1.

(2) سورة الضحى، الآيتان 1-2.

(3) سورة القصص، الآية 73.

ليهتدي إلى طريق الهدى والحق والخير، تجعله آمنا في حياته الدنيا والأخرى، وكل عبارة في كتاب الله تهدي إلى سبيل الخير «فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس وإذا يغشى وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل بماديات من النور والظلمة»[1].

إن الآيات البينات التي أشارت إلى الظواهر المادية في كتاب الله كشفت ببيان سام، ومعان محكمة أسرارا عميقة الدلالة، وأنوارا من الهدى واليقين أخرجت الناس من ظلمات الجهل التي عششت في عقولهم، وحجبت عنهم الأسرار الإلهية. ولو تأمل الجاحد جزءا بسيطا من هذه الظواهر الكونية لأدرك بعقله وشعوره ووجدانه أن كل شيء يتحرك بنظام دقيق، ويؤدي وظيفة معينة وموجهة لغاية محددة. ولا يمكن أن يكون هذا النظام الدقيق، وهذه الغاية المحددة، عبثا في الوجود. إن وراءهما خالقا لطيفا خبيرا مبدعا دعانا في آيات كثيرة إلى تدبر مخلوقاته. ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[2].

(1) التفسير البياني : 25/1.

(2) سورة آل عمران، الآية 190.

المبحث الثاني

أسلوب الحجاج في البيان القرآني

﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾[1].

القرآن الكريم هو أول كتاب علم العرب كيف يفكرون، وكيف يستنبطون الأحكام العقلية المنطقية المبنية على نتائج صحيحة؛ لقد دعاهم كتاب الله في آيات كثيرة إلى استخدام عقولهم للتوصل إلى حقائق الظواهر الطبيعية المحيطة بهم، والى البحث في طريقة تكوين خلقتهم، وباقي الكائنات الحية التي يشاهدونها، واعتبر استخدام العقل والفكر السليم مبدأ أساسيا في الإيمان الصحيح. قال الله تعالى : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[2]، وقال : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾[3]، وقال : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون** ﴾[4].

والعلم والتفقه والتذكر سمة من سمات العقل السليم، والفطنة والتدبر في الأمور. ولهذا السبب تميزت آيات القرآن الكريم بخصائص أسلوبية متعددة سمتها العقل الذي يميز بين الصحيح والخطأ، وبين الرأي القوي والضعيف ؛ ومن هذه الأساليب أسلوب الحجاج الذي يميزه النهج العقلي المعتمد على البراهين و القياس المنطقي، إذ رد الآراء، وإفحام الخصم، يكون بالإقناع الذي يجعل حجة الخصم أضعف. وهذا المنهج في التفكير والاستنباط والبحث والنظر هو الذي ميز الحضارة الإسلامية في عصور ازدهار الفكر والتأليف والبحث العلمي في العلوم الإنسانية بمختلف فروعها، والعلوم التجريبية والعقلية بشتى أنواعها.

وإذا كانت الآيات البينات قد نزلت محكمة ومتشابهة فهذا لا ينفي عنها صفة الإحكام بمجملها، لأن مصدرها واحد، وهو الله الحكيم العليم المنزه عن النسيان والخطأ والسهو والخلط، قال تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾[5]. ولهذا السبب

(1) سورة الأنعام، الآية 150.

(2) سورة الأنعام، الآية 98.

(3) سورة الأنعام، الآية 99.

(4) سورة الأنعام، الآية 127.

(5) سورة البقرة، الآية 250.

لجأ العلماء إلى تفسير القرآن بعضه ببعض حيث يتبين المتشابه من المحكم، ثم استعانوا بالسنة الشريفة التي بينت الغامض والمبهم من الآيات.

وأسلوب الحجاج في القرآن الكريم جاء للرد على أقوال الجاحدين، وأعداء الدعوة الذين كانوا يجادلون بالباطل، وبغير حجة ولا بينة يدعمها العقل والحس والوجدان، وما يشاهدونه في حياتهم من ظواهر طبيعية دالة على الخالق. ﴿ **وحاجه قومه** ﴾[1]. ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾[2]. ولذلك اعتمد القرآن على الحجة القوية المدعمة بالعقل لرد أقوال دعاة الباطل؛ فهؤلاء لا يستطيعون رد الحجج المعتمدة على البرهان العقلي، وما تقبله الفطرة السليمة، وتؤيده الظواهر الطبيعية المشاهدة، إنهم كانوا يجادلون لأجل المجادلة، ولم يكن لهم منهج سليم في الجدال، أما حجج القرآن فهي تدعو الإنسان إلى التأمل في المخلوقات، وفي منافعها، ليستنتج من وراء هذا التأمل أن هذه المخلوقات لم توجد عبثا أو صدفة، لأن وراء كل تنظيم وترتيب وإتقان خالقا، ألا وهو الله سبحانه وتعالى الذي أتقن كل شيء صنعا وإبداعا. لكن الإنسان بحكم تكرر تلك الظواهر الطبيعية أصبحت عنده أمورا عادية، لا تثير انتباهه، ولا تحرك فكره ووجدانه إلا إذا حدث شيء خارق للعادة فانه يربطه بقدرة خفية، ثم سرعان ما يعود إلى ضلاله القديم، فكان الخطاب في القرآن الكريم دافعا للتفكير الرصين، والتأمل المتزن بالعقل الذي ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ؛ فبالعقل يرى الإنسان النور ضياء مشرقا، والظلام سوادا مطبقا، فيسلك أفضل السبل التي تهديه إلى الإيمان والصلاح والتقوى. وبرغم امتلاك الإنسان العقل فان الله أرسل له الرسل والأنبياء على فترات من الزمن لتنبيهه من غفلته، وتوجيهه إلى نعمة الإيمان التي يوحد بها الله، ويعترف بأفضاله عليه، و بهذا الاعتراف فانه يسلك السبل التي تؤديه إلى سبيل الخير والفلاح، ثم لا تبقى له حجة على الله في الموقف المشهود، قال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾[3].

وما يميز أسلوب الحجاج في كتاب الله أنه واضح المعنى، سهل الألفاظ، معبر عن الشيء المقصود بدقة، ومركز على الأشياء المشاهدة التي لا يستطيع الجاحد إنكارها، أو الادعاء بأن الله غير قادر على إيجادها. كما أن ما دعا إليه القرآن بأسلوب الحجاج

(1) سورة الأنعام، الآية 80.

(2) سورة الأنعام، الآية 83.

(3) سورة الأنعام، الآية 131.

لا يخالف العقل، ولا سنن الكون، لأن كتاب الله في كل ما دعا إليه حق ويقين، والحق لا يناقض الوقائع الثابتة والمشاهدة في الطبيعة وفي الكائنات الحية، فهذه الظواهر والمخلوقات تدل في تكوينها و نظامها الدقيق، وعملها المحكم أنها من صنع وتدبير خالق له القدرة على التسيير والتنظيم والخلق والإبداع. قال الله تعالى : ﴿ **قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله** ﴾[1]، ﴿ **وله ما سكن في الليل والنهار، وهو السميع العليم** ﴾[2].

الخطاب هنا يدعو الإنسان إلى النظر في أقرب الأشياء إليه، السماء والأرض، والليل والنهار؛ لأنه يشاهد هذه الأشياء صباح مساء، ولا يستطيع نكران خلقها، وما يطرأ عليها من تقلبات. وهنا السر في الخطاب القرآني الذي يتوجه مباشرة للإنسان، إن هذه المباشرة دعوة إلى تنوير عقله، وإزالة كل ما يحجب عنه الحقيقة، من عادات سيئة، وأوهام باطلة، وخرافات وأساطير واهية، تراكمت في عقله فلم يستطع التخلص منها بسهولة. ولهذا جاء أسلوب الحجاج ليكشف باطل تلك الأوهام والعادات السيئة والخرافات التي عششت في ذهنه فحجبت عنه كل شيء سليم، ولا يمكن لهذا الأسلوب أن يقنع المخاطب إلا إذا كان بسيطا في معناه، سهلا في لفظه، قويا في حجته وبرهانه، فلا يجد الجاحد سبيلا للاستمرار في الباطل، وهو يرى الحجج والبراهين قوية ساطعة كنور النهار. انظر كيف أفحم الله ادعاء الجاحدين بإنكار الخالق، وإصرارهم على القول بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي حياة واحدة، وما يهلكهم إلا الدهر : ﴿ **وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين** ﴾[3]. هذا الادعاء بناه الجاحدون على فكرة اعتقدوها نتيجة قصر نظرهم، وهي استحالة رجوع الإنسان إلى هيأته الكاملة بعدما تصير عظامه رميما، تتفتت مثل التراب الهش. لقد بدا لهم إعادة الخلقة أمرا مستحيلا، وبعيدة التحقق بالنظر إلى قصور عقولهم، وعدم إدراكهم قوة الله وعظمته المتحكمة في كل شيء في هذا الكون، ما ظهر منه، وما خفي؛ فكان من الطبيعي أن يأتي الأسلوب الذي يخاطبهم بحجج قوية، يشاهدونها في الطبيعة أو في أنفسهم، وهذا هو السبيل إلى وقف ادعائهم، فقال تعالى يرد على حجتهم الواهية : ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم** ﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 13.

(2) سورة الأنعام، الآية 14.

(3) سورة الأنعام، الآية 30.

(4) سورة يس، الآيتان 78-79.

إن قول الله ﴿ **ونسي خلقه** ﴾ تنبيه لهذا الجاحد الذي نسي أقرب الأشياء إليه، ألا وهي خلقته المكتملة في الأعضاء والتفكير والنطق والسمع والبصر. إنها دعوة قوية لهذا الجاحد للنظر في أقرب الأشياء إليه، فمن أوجده من العدم ؟ لقد نسي هذا المتكبر الجاحد أن بدايته كانت من سائل يجري بين الصلب والترائب، وأن الله هو الذي رعى هذه النطفة حتى أصبح كائنا مكتملا في قدراته الجسدية والعقلية والنفسية، ثم أخرجه إلى الوجود ليتدرج في النمو والاكتمال، فيصبح قادرا على استخدام عضلات جسمه، وتنظيم فكره، وممارسة حياته، ألا يفكر في ذلك ؟ ألا يستخدم عقله ووجدانه ليتأمل في طريقة أداء أعضاء جسمه، وعقله الذي يبدع به ويسيطر به على الأشياء ؟ ألم يعلم أنه إذا نقصه شيء في جسمه أو عقله لا يستطيع رده أو إصلاحه بالكيفية التي وجد عليها؟ ألم يعلم أن خالقه جعل جسمه متلائما مع الظواهر الطبيعية، وهيأ له الأسباب الذاتية والنفسية ليقاوم ويصمد أمامها ؟

إن الدراسات العلمية لأعضاء الإنسان ولعقليته وتكوينه النفسي أثبتت أن الله هيأ له كل الأسباب التي تساعده على العمل بها، وحفظها من الإصابة بالآفات. وان الذين يزعمون أن الإنسان أصله خلية بسيطة وجدت بالصدفة ثم تطورت على مدى ملايين السنين، ألا يسالون أنفسهم، كيف يمكن لهذه الخلية أن تتطور بمفردها لتنتهي الى هذه الدقة العجيبة التي نراها في تكوين الإنسان، وباقي الكائنات الحية الأخرى ؟

إن ترك أي شيء بدون عناية وترتيب وتنظيم ومراقبة لا بد أن ترى فيه خللا في التنسيق والتكامل مثل ما نشاهد في الحدائق المهملة، ترى فيها الأعشاب الطفيلية تنمو هنا وهناك، فإذا امتدت إليها يد حاذق وصانع ماهر، جعلتها ذات نضرة وبهجة واخضرار بما يجري فيها من مياه، وما يضع كل نبت وعشب في موضعه. والمخلوقات التي نراها في هذا الوجود بهذه الدقة المتناهية في التركيب والتكوين والفعل الإرادي لابد أن تكون من فعل خالق قادر خبير، قد أتقن كل شيء صنعا وخلقا، وأوجد هذه المخلوقات لغايات نبيلة تنسجم مع هذا الوجود الذي أبدع خلقه وتنسيقه، منه ما نعرفه ونطلع عليه صباح مساء، ومنه ما غابت عنا أسراره لحكمة أرادها الخالق، جل وعلا. قال عز من قائل : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾[1].

كما جاء أسلوب الحجاج في القرآن عن طريق الاستفسار عن هذه الظواهر الطبيعية التي يشاهدها الإنسان. إن هذا المخلوق البسيط في تكوينه الجسمي والعقلي

---

(1) سورة الأنعام، الآية 60.

والنفسي لا قدرة له على إيجادها، أو تسييرها وتدبير أمورها بالكيفية التي يشاهدها. إن العقل ـ برغم بساطته ـ يدرك أن قدرات الإنسان لا تستطيع تغيير جزء واحد من هذا الكون الظاهر، في السماء والأرض والبحر، ولا يستطيع إذا ما وقع فيها خلل واضطراب بسيط أو كبير أن يعيد كل شيء إلى موضعه. قال الله تعالى : ﴿ **أمن خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أ اله مع الله بل هم قوم يعدلون، أمن جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزا، أ اله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أمن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء في الأرض، أ اله مع الله قليلا ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته، أ اله مع الله، تعالى الله عما يشركون، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أ اله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[1].

هذه الآيات البينات تتحدى الإنسان في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود، وهي كلها مشاهدة ومحسوسة، لا يستطيع إنكارها، وما يميز الإنسان العاقل في سلوكه وتصرفه وأفعاله أنه لا يؤثر شيئا على شيء الا لمصلحة ظاهرة أو خفية؛ وهؤلاء الذين ينكرون وجود الله الخالق القادر هل يستطيعون بالبرهان والأدلة العقلية إثبات خالق غير الله ؟ هل يستطيعون بلوغ أغراضهم وحاجاتهم بغير الاعتماد على الله ؟ هل يستطيعون في حالة السقم والمرض، وعندما تضيق بهم الأرض على سعتها وامتدادها أن يستغنوا عن دعاء الله لكي يرفع عنهم الضرر، ويكشف عنهم الغمة ؟ هل يستطيعون إنزال المطر من السماء ؟ هل يستطيعون إعادة الحياة إلى عزيز عليهم بل إلى أنفسهم حينما ينزل القضاء بهم ؟ إنهم لا يجدون دليلا قاطعا، وحجة بينة لإثبات استقلالهم الكامل، وعدم اعتمادهم على خالقهم الذي أوجد كل هذه الأشياء التي يشاهدونها، وأشياء أخرى لا يعلم أسرارها إلا الخالق، سبحانه من خالق قادر بقدرته، قوي بقوته، يعين ولا يعان، ويملك الظاهر وما أخفى. ولذلك نجد الآيات السابقة تتحدى هذا الإنسان المتكبر بقوله تعالى : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾. إن عدم الإتيان بالبراهين دليل قاطع على عجزهم، فلذلك وجب عليهم أن يستخدموا عقولهم وقلوبهم ووجدانهم ليدركوا أن الله هو الخالق والمدبر، وأن لا أحد يعجزه عن فعل شيء في هذا الكون.

ومن دلائل رحمته، سبحانه وتعالى، أنه جعل الأشياء في هذا الوجود مستوية بمقادير مضبوطة، لا تزيد ولا تنقص، لحكمة لا يعلمها إلا هو. وضبطها لا يقارن بما

---

(1) سورة النمل، الآيات 62-66.

توصل إليه العلماء في مختبراتهم العلمية الدقيقة، ولا بآلاتهم المتطورة، فكل ما توصلوا إليه هو جزء ضئيل جدا من معرفة أسرار هذه المخلوقات، لأن العلم كلما تطور كشف لهم عن أشياء أخرى لم تكن في حسبانهم. ومن هنا كان هذا التقدير المستوي في الكون حجة قوية على الجاحد، فجاء أسلوب الحجاج في البيان القرآني ليظهر أن هذه المخلوقات ستستمر في هذا الوجود بهذه الدقة، وهذا النظام، حفاظا على حياة الكائنات، وضمانا لاستمرارها حتى يأذن الله بنهاية الحياة في هذا الوجود؛ فالليل وجد للراحة والسكون، وقد تهيأت له أسبابه ودواعيه، والنهار وجد للسعي وطلب الرزق، فاختلف بذلك عن طبيعة الليل. وإذا تغير هذا النظام الكوني، فلا أحد قادر على إعادته إلى وضعه الطبيعي. قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة، من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون** ﴾[1].

هذا بيان واف وشاف، وحجة بالغة قاطعة، وبرهان قوي، لبيان أن الله هو المتصرف وحده في هذا الكون، ومن ينكر هذه الحقيقة بعد ما سمع هذه البراهين القاطعة إلا من فقد عقله، أو تمادى في جحوده من أجل إخفاء الحقائق، وهيهات له أن يخفي هذه الحقائق التي هي ساطعة كنور الشمس في سماء خالية من السحب؛ لأن الظواهر التي أشارت إليها الآيات البينات غير خافية على كل من يدرك أبسط الأشياء في هذا الوجود، كما أن تأثيرها بين وواضح على حياة الإنسان.

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الدلائل فضله على الإنسان بجعله الليل يتعاقب مع النهار من أجل أن يوفر له الاستقرار والراحة في الليل، وتكون له القدرة على العمل والبناء والإعمار والتفكير بالنهار، وفي هذا التعاقب تتجدد الحياة، ويكون للإنسان أثر واضح في هذه الحياة. وإذا ما فكر الإنسان قليلا يدرك السر العظيم في هذا التعاقب على جسمه ونفسيته وتفكيره، إن القدرات التي مكنه الله منها محدودة، فهو لا يستطيع أن يستمر على وتيرة واحدة، فكانت رحمة الله به أن جعل له الليل والنهار : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار، فإذا هم مظلمون** ﴾[2]. وقال الشاعر في بيان هذه الحكمة الإلهية العظيمة :

سبحان ذي الملكوت، أية ليلة مخضت بوجه صباح يوم الموقف

(1) سورة القصص، الآيات 71-73.

(2) سورة يس، الآية 37.

ومن هنا تجد أسلوب الحجاج في تلك الآيات البينات لا يكتفي بإظهار الحقائق التي يعرفها الإنسان، والتي يشاهدها، وإنما يقترن هذا الأسلوب بالدعوة إلى استعمال الحواس التي تقربه من الأشياء كحاسة السمع ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾، وحاسة البصر ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾، وهاتان الحاستان قويتان، وقادرتان على اكتشاف حقائق الأشياء، وعلى إيقاظ العقول قصد تدبرها، وتمييز جيدها من رديئها، والعلم أثبت أن المدخل إلى المعرفة اليقينية يبدأ بالتجربة التي تشترك فيها الحواس، وهي بدورها تبلغ العقل نوع الشيء فيصدر حكمه فيها.

وأسلوب الحجاج في كتاب الله اقترن كذلك بتعداد نعم الله التي أوجدها للإنسان، وهي نعم كثيرة، لا يستطيع حصرها أو عدها، لأن ما ظهر منها هو قليل مما خفي. قال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدير الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون** ﴾[1].

هذه النعم التي عددها الله، وما انفرد بخلقه وإيجاده، لا يستطيع أحد أن يدعي أنها تأتي بالصدفة، أو أنها وجدت من غير خالق يتصرف في هذا الكون بحكمة وقدرة بدون منازع.

إن الإقرار بالنعم يوجب الاعتراف بمن أوجدها بالعبادة الخالصة له وحده، والشكر على ما أعطى، والامتثال والطاعة لأوامره، والابتعاد عما نهى عنه، وهذا ما قصد البيان القرآني في أسلوب الحجاج تحقيقه، ووجوب العمل به. إن أسلوب الحجاج في هذه الآية مثل الآيات السابقة ركز على أدق الأشياء التي يمتلكها الإنسان، ألا وهي حاستا السمع والبصر، وهما حاستان لطيفتان ودقيقتان، يمكن أن يتعرضا للأذى بأدنى شيء، وبرغم هذا اللطف والدقة فإنهما يؤديان وظيفتهما، لأن الله سبحانه وتعالى حفظهما من الأذى، ولذلك كانت الإشارة إليهما من قبيل ذكر فضل الله على الإنسان في أدق ما أعطاه، وما أعطى الله لهذا المخلوق، وغيره من المخلوقات كثير لا يعد ولا يحصى. كما أن الآية الكريمة ذكرت ظواهر يبدو عجز الإنسان فيها واضحاً، ولا يستطيع أن يجادل فيها أحد، ألا وهي إخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وإنزال الرزق من السماء؛ وهذه حجة قاطعة الدلالة على ضعف الإنسان في كل ما يملك، وما يقدر على فعله، فلولا فضل الله عليه لما كان بهذه الصورة التي يرى نفسه فيها. ولهذا

---

(1) سورة يونس، الآية 32.

السبب تجد أسلوب الحجاج في كتاب الله يركز على المحسوس والمشهود والمادي، ثم ينتهي بتأكيد الحقيقة التي تعجز الجاحدين.

وقد كان لهذا الأسلوب تأثير قوي في فكر المسلمين، فقد أيقظ العقول، ونبه الغافلين، وجعلهم يتأملون الأشياء بالعقل والحكمة والتدبر، ولم يعد للعادات السيئة، والأهواء والانفعالات في إصدار الأحكام دور ووجود عند المفكرين والعلماء من هذه الأمة التي أنتجت الفكر، ونظمت العلوم بالمنهج العقلي والتجريبي الذي لا تتدخل فيه الآراء السريعة، والأحكام المتسرعة. وهذا ما جعل بعض الفرق الفلسفية الكلامية في الإسلام تعتبر كتاب الله هو الذي هدى هذه الأمة للمنهج العقلي المحض في بحث كل الأمور، وجعله فيصلا وحكما بلا منازع. ولعل فرقة "المعتزلة" من هذه الفرق الإسلامية التي اتبعت هذا المنهج، وعملت به في فكرها، وفي كل ما أنتجته من فلسفة وفكر وعلوم : «أما عند المعتزلة فقد بدأوا بأسلوبهم العقلي، ومنهجهم الفكري الدقيق يحددون معاني الإيمان ، وترى هذا عند شيخهم الأول واصل بن عطاء ثم من اتبعه من المفكرين»[1].

ولولا غلو هذه الفرقة في فكرها لكانت من الفرق الإسلامية التي تهيمن على الفكر في العالم الإسلامي.

---

(1) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : 616/1.

المبحث الثالث

دلالات الأمثـال في البيـان القرآني

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾[1].

البيان العربي هو التراث المتمثل في الشعر والخطب والأمثال والأقوال المأثورة. وقد تميز هذا التراث قبل مجيء الإسلام بتعدد الأغراض، وسعة المعرفة، وعمق الفكر، وجمال التعبير. ولما نزل كتاب الله على العرب كان فكرهم وأدبهم ولغتهم قد بلغت نضجا كبيرا، فخاطبهم الله باللغة التي أبدعوا بها، وهي لغة استوفت خصائصها التركيبية والدلالية والصوتية، وتضمنت فنونا بلاغية طريفة، وتعابير أدبية بليغة، وحكما وأمثالا عميقة الدلالة.

وكانت الأمثال لونا من هذا البيان الذي نضج في تراثهم : «المثل السائر في كلام العرب كثير نظما ونثرا، وأفضله أوجزه، وأحكمه أصدقه»[2].

وهي ضروب من الأقوال الفنية البليغة المتضمنة للحكم التي عبرت عن أوضاع اجتماعية أو نفسية أو فكرية أو سلوكية. فلذلك كانت أكثر جريانا على ألسنة الناس، فقالوا : مثل شرود وشارد أي سائر لايرد كالجمل الصعب الشارد. وفي الأمثال تجمعت كل ما كان يطمح إليه العرب في التعبير، ففيها الحكم والعبر والمواعظ والتوجيه والإرشاد، ومقارنة الأشباه والنظائر، واستحضار المعنوي بالمحسوس، والغائب بالحاضر، وإفحام الخصم والمعاند. ولهذا السبب كانت الأمثال الموجزة كثيرة في كلام الأنبياء والحكماء، وفي الشعر والخطب، يستحضرها القوم في المناسبات والمنتديات والأسواق الأدبية، تبرز نمط الحياة، وأذواق الناس، وطريقة تفكيرهم.

وإذا كان للأمثال هذا القدر الكبير من التأثير في حياة الناس تفكيرا وسلوكا وأخلاقا ومعاملات فإن كتاب الله أولى باستعمالها من أجل الموعظة والتوجيه والاعتبار، لأن رسالة الإسلام جاءت من أجل إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكل

---

(1) سورة الروم، الآية 57.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه : 479/1، لابن رشيق القيرواني، تحقيق د.محمد قرقزان، ط 2، 94.

وسيلة تبلغ الإنسان إلى هذه الغاية كان كتاب الله يستعملها. قال رسول اللهﷺ : «إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

فالأمثال، كما في الحديث الشريف، للاعتبار والموعظة، لأنها نبهت الناس لما ينبغي أن يتبعوه أو يجتنبوه.

وقال الزمخشري : «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه شاهد. وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي. ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول اللهﷺ، وكلام الأنبياء والحكماء»[1].

وقد أخذ الشعراء والأدباء والخطباء من أمثال القرآن ما يقوي حجتهم، ويكسب أدبهم سمة الجمال والرونق. قال أبو تمام يرد على بعض من أنكر عليه ضرب لون من المثل في شعره :

لا تنكروا ضربي له من دونه	مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره	مثلا من المشكاة والنبراس

هذا التأثير ناتج من كون أمثال القرآن تضمنت إعجازا وتوجيها وحكما ومواعظ بالغة الدلالة. وهل سمع العرب مثلا أكثر تعبيرا للدلالة على الضعف والوهن لآلهتهم التي لا تنفع ولا تضر في قوله تعالى : ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت** ﴾[2].

إن المثل قوي في الدلالة على ضعف الآلهة التي كانوا يعبدونها فهي تفقد صفة الحياة والقدرة لكي تجيب الداعي، وتلبي رغبته، ولم يجد الجهلة والسفهاء منهم سوى التهكم بأمثال كتاب الله، وقولهم : «إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك لجهلهم بالمقاصد، أو للتخفيف عن أنفسهم من شدة وقعه».

---

(1) الكشاف : 195/1. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، ضبط وتصحيح حسين أحمد، ط 1، 1946.

(2) سورة العنكبوت، الآية 41.

ومن خصائص أمثال الكتاب العزيز أنها ارتبطت بالمجتمع في معتقداته وتفكيره وأخلاقه وسلوكه وعاداته وتقاليده من أجل إصلاح الأفراد، وتوجيههم إلى سبيل الخير، فقبحت الكفر والعصيان والضلال، وزينت الإيمان والتقوى، ودعت إلى الاستقامة والعمل الصالح. قال تعالى، مبينا إهمال القوم تعاليم الكتب السماوية، وعدم الانتفاع بها، وهي بين أيديهم، وفي ذلك إهانة لكسلهم، وتحقير لعقولهم : ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[1].

وقال عز من قائل في إظهار من لا ينتفع بعمله، ولو كان كثيرا، لأنه لايقوم على مبدأ سليم : ﴿ **فمثله كمثل صفوان عليه تراب** ﴾[2] أي كحجر أملس عليه تراب، فهو غير صالح للإنبات، ولو نزل عليه المطر ليلاً ونهاراً.

وجاء المثل في كتاب الله لبيان فضل العاقل الذي يدبر أموره بحكمة وعقل وتفكير سليم، ويعبد الله، ويعمل عملا صالحا، على من لا يتصف بتلك الصفات الإيجابية. قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقا حسنا، فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون، الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون. وضرب الله مثلا رجلين، أحدهما أبكم لايقدر على شيء، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾[3].

المثلان في الآيتين لهما أثر بين في المجتمع، فهما يكشفان بجلاء ظاهرة اجتماعية لا تخفى على الإنسان الجاهلي المخاطب بهذين المثلين، إنه يعرف أن العبد في مجتمعه لا يتصرف مثل الحر في كل أموره، وكذلك فضل العاقل الذي يأمر بالعدل والإحسان، وهو مستقيم في عقيدته وسلوكه وعمله، على الأبكم الكل على مولاه الذي لا يأتي بخير في أي عمل قام به. هذان المثلان يوجهان المخاطب إلى اختيار أفضل السبل التي تقربه من الله بالإيمان الصادق، والعبادة الخالصة لجلاله، والسلوك القويم الذي يرضى عنه الله ورسوله، ويبينان الفرق بين من يعبد أصناما لا تنفع ولا تضر، وبين من يعبد الله الخالق القادر الواهب. هذه المقارنة بمثل عملي يشاهد الإنسان أثره في المجتمع تظهر فضل المؤمن على الكافر بتقواه وعبادته وصلاحه، إذ كل أعمال المؤمن تكون خالصة لوجه الله وهو بذلك يبتعد عن كل ما يؤذي به نفسه ومجتمعه، ويكون

---

(1) سورة الجمعة، الآية 5.

(2) سورة البقرة، الآية 264.

(3) سورة النحل، الآيتان 75-76.

رباطه بالله وحده، وهذه ألطاف من الله يفيضها على عباده الصالحين، لأنها تحررهم من العبودية لغير الله، وتجعل عملهم متواصلا، وفي هذا شرف للإنسان، وتكريم له على سائر المخلوقات. وإذا كان المثلان قد اقترنا ببيان ميزة الحر على العبد، والعاقل على الأبكم، فلأن الإنسان يميل بطبعه إلى الحرية ويعشقها، ويكره الذل والاستعباد، ويحب البليغ الفصيح الذي يكون قادرا على إقناع الآخرين بالحجة والبرهان. إن مثل هذا الفرد يكون تأثيره ظاهرا في المجتمع، فكم من كلمة طيبة بليغة، وخطبة جامعة محكمة، قد غيرت سلوك أفراد وجماعات، ودفعتهم نحو الفضائل والمثل العليا، بينما الأبكم يفقد هذه الخصائص الإيجابية في التأثير والتأثر. ولذلك ذكر الله أن أمثال القرآن يدرك مراميها وأثرها العقلاء. قال عز من قائل : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[1].

وجاءت الأمثال في كتاب الله لبيان فضل من يعبد إلها واحدا يقوم بما كلفه به، ويرجو ثوابه، على من يعدد الآلهة فلا يدري أيها يستقر على عبادته، ويدعوه ليستجيب له، فقال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[2].

ومثل من يتمادى في الضلال والكفر والعصيان بالأعمى والأصم، ومن يتبع الهدى بالبصير والسميع. والفرق بينهما لا يخفى على أحد، قال تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، هل يستويان مثلا، أفلا تذكرون** ﴾[3].

كما نجد الغاية من ضرب الأمثال في القرآن الكريم زيادة الإفهام والتوضيح والتذكير، فيأتي المثل لتصوير المعنوي بالمحسوس، والمشهود بالغائب، فيكون وقعه بذلك أمكن في النفوس، وأشد علقة بالقلوب، وهذا من شأنه أن يبعد الحيرة والشك عن المترددين وضعاف الإرادة. قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، توتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾[4].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 43.

(2) سورة الزمر، الآية 28. والمعنى، أي ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم خلاف، كل واحد يدعي أنه عبده فيكون العبد حائرا في أمره، لايدري من يرضي فيهم. وآخر قد سلم لمالك واحد فهو يلزمه، فأي هذين العبدين أحسن حالا؟

(3) سورة هود، الآية 24.

(4) سورة إبراهيم، الآيات 26-28.

هذا المثل نموذج في البلاغة الرفيعة، والبيان السامي، والإعجاز المطلق الذي تميزت به الآيات البينات. والغاية منه هي هداية الناس للتقوى، وتثبيت الإيمان في نفوسهم حيث تبدو الكلمة الطيبة في هذا المثل المعجز، وهي كلمة التوحيد والإيمان والاستغفار والتوبة والعمل الصالح كشجرة مخضرة يانعة، وارفة الظلال، زاهية الأغصان، ناضجة الثمار، ممتدة في السماء، تعطي ثمارا طيبة في كل حين. وهذا كناية عن ثبات الإيمان، لأنه يستمد قوته من الحق سبحانه وتعالى. أما الكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك والضلال، وكل ما يؤذي الناس في عقيدتهم الصحيحة، وفي شريعة العدل وفي حياتهم الطيبة، فهي كشجرة خبيثة لا قرار لها ولا ثمار ولا ظلال ولا أغصان سوى الشوك الذي يؤذي، ولذلك فهي سهلة الاجتثاث مثل الشرك والكفر والضلال لا يثبت ولا يستمر ولا يستند إلى الحق، يتهاوى في أي لحظة، ولو توهم المشركون والضالون أنهم أقوياء. بينما كلمة التوحيد تخاطب العقل السليم، والنفس اليقظة، والوجدان الواعي، فلا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة وسلطان أن يحرفها، لأنها الحق من عند الله. هكذا كان ضرب الأمثال في كتاب الله من أجل الرجوع إلى كلمة التوحيد التي هي الحق من الله : ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط** ﴾[1]، وفي الذين ثبتوا على مبدأ التوحيد : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾[2]، ﴿ **ومريم ابنة عمران** ﴾[3].

لكن الذين يصرون على الكفر والعصيان لا تنفع فيهم النذر والأمثال، لأن قلوبهم غلف، وأفئدتهم هواء. قال تعالى : ﴿ **ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل، فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾[4].

(1) سورة التحريم، الآية 10.

(2) سورة التحريم، الآية 11.

(3) سورة التحريم، الآية 12.

(4) سورة الإسراء، الآية 89.

المبحث الرابع

تصوير المشاهد في البيان القرآني

مشاهد النعيم :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ﴾[1].

تعددت أشكال وألوان مشاهد النعيم في الآيات البينات، وبرغم هذا التعدد فهي تنحصر في مشهدين بارزين، الأول : مشهد نفسي، ويتمثل في شعور المؤمنين بالارتياح والرضى لما نالوا من مغفرة ورضوان من الله ورحمة واسعة، وقد ابيضت وجوههم **﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾**[2]. واطمأنت نفوسهم لما لقوا من ترحاب وتهنئة من الملائكة، وهم يدخلون الجنة ويطوفون بين قصورها وعرصاتها ونعيمها الخالد، ويسكنون الغرفات جزاء صبرهم على الطاعات، وبعدهم عن الشهوات المحرمة : **﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾**[3]. ولا يسمعون إلا الطيب من القول من الملائكة، ومن إخوانهم المؤمنين : **﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾**[4]. هذا هو الاطمئنان النفسي الذي يشعرون به يوم لقاء الله، وهو يوم طويل وعسير على الكافرين، قصير ويسير على المؤمنين.

وأما المشهد الثاني فيتمثل في وصف حياة الخلود في الجنة، وما يتمتع به المؤمنون من نعيم أبدي، وخيرات وزوجات حسان، لم يروها من قبل، ولم تخطر على بالهم. والمشهدان معا يتكاملان في تصوير الحياة الأبدية في الجنة؛ فلا عنت ولا مشقة،

---

(1) سورة النساء، الآية 121.

(2) سورة القيامة، الآيتان 21-22.

(3) سورة الفرقان، الآيتان 75-76.

(4) سورة الحج، الآية 22.

ولا قلقا نفسيا أو مرضا جسميا يكدران صفو هذه الحياة والنعيم الذي سيكون بين أيديهم. وتصوير هذه المشاهد جمع بين المعنوي والمادي لكي يطمئن المؤمنون لظروف حياتهم في الجنة ؛ إنها حياة في أمكنة تكتنفها الألوان الزاهية، والظلال الممتدة، والأشجار الوارفة الغصون، الدانية القطوف، الناضجة الثمار، الطيبة المذاق، ذات الفواكه المتنوعة التي لا تذبل ولا تتعفن ولا يمل المؤمنون من رؤيتها وأكلها، ولحوم طير لم تخطر لهم على بال، ولم يذوقوا مثل طعمها. أما الشراب فهو متنوع في شكله وطعمه ورائحته، من أنهار من لبن لا يتغير مذاقه، وعسل مصفى، وخمر لذة للشاربين تجري في أنهار، لا تؤذي الجسم والعقل. كل هذا النعيم يقدمه ولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون في صحاف من ذهب وفضة، وكؤوس من بلور، جزاء ما قدموا من إحسان في حياتهم الدنيا ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون** ﴾[1].

ولكي يطمئن المؤمنون لنعيم الجنة، ويدركوا حجم هذا النعيم، يذكرهم الله بما في الحياة الدنيا من نعيم هو أقل من جناح بعوضة مقارنة بنعيم الجنة. إن ما سيجدونه لا يتصوره ذهن، ولا يحده خيال، ولا يقاس بأشكال من الأطعمة والأذواق المعروفة. ولذلك تجد كتاب الله يدعو الإنسان إلى استخدام عقله ليتدبر أسرار هذا الكون الذي أحسن الله خلقه، وأنبت فيه من كل زوج بهيج ؛ وهذا كله هين مقارنة بما أعده الله للمؤمنين في الجنة التي هي دار خلودهم : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد** ﴾[2].

ويشير كتاب الله إلى كل ظاهرة في هذا الكون، سواء كانت متحركة أو جامدة، ليعلم الإنسان أن الذي أوجد كل هذا وسيره، ما يرى منه وما لا يرى، هو قادر على إيجاد كل ما وعد به المؤمنين من نعيم الجنة، وأوعد به الكافرين من عذاب النار، فقال تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾[3].

إن الذي يحيي الأرض الميتة اليابسة التي لا حياة فيها لقادر على إعادة الحياة لكل المخلوقات، وإيجاد الأشياء كلها من عدم، مهما كبر حجمها وعظم، أو صغر حتى

---

(1) سورة الطور، الآية 22.

(2) سورة ق، الآيات 7-10.

(3) سورة الحج، الآية 5.

يبلغ إلى درجة انعدام الرؤية، وفي كل ما هو ظاهر أو خفي، معروف أو مجهول. وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى انه على كل شيء قدير** ﴾[1].

هكذا يهيء القرآن الكريم الإنسان ليتأمل في كل شيء يراه، ويستعمل عقله في كل ما وراء هذه الأشياء لكي يصل إلى جزء ضئيل من الحقيقة التي تطمئن نفسه، وتريحه من التيه في المجهول الذي لا يستطيع عقله أن يصل إليه، أو يدرك كلياته.

كيف صور القرآن الاطمئنان النفسي لأصحاب الجنة ؟

إن الآيات البينات التي تحدثت عن الاطمئنان النفسي للمؤمنين جاءت بخطاب تضمن رحمة ومودة، وسلاما وأمنا، وبهجة ونضرة، وبخاصة حين تتحدث عن يوم لقاء الله في يوم الحساب والعقاب حيث يكون يومهم يسيرا، يتوج بدخولهم جنة الخلد. وهذا ما يجعلهم يطمئنون على مصيرهم في هذا اليوم الذي يعد بألف سنة مما يعد الناس، لكن هذه المدة الزمنية التي ستطول ستكون محصورة على العصاة والجاحدين لما سيرون من شدائد وأهوال، فقال تعالى : ﴿ **وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[2]، وقال أيضاً : ﴿ **فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل** ﴾[3].

إن رضى الله ورحمته التي ستشمل المؤمنين الذين اعتصموا به تبدو في إشراق وجوههم، وإحساسهم بالارتياح النفسي؛ إنه فضل كبير على المؤمنين، لا يستطيع خيال حصره ولا عقل تدبره، لأنه فوق الخيال والعقل : ﴿ **ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾[4].

وبرغم ذكر القرآن هذا الفضل الكبير، والرحمة التي وسعت كل شيء، فإننا نجد كتاب الله يقرب للمؤمنين لونا من رحمة الله الواسعة، وقدرا من فضله الكبير عليهم، وذلك بذكر طريقة استقبالهم، وما يلقون من ترحاب من الملائكة؛ ففي ذكر جنة الخلد التي سيقيمون فيها يذكر الله أنهم سيجدون أبوابها مفتحة، لا ينتظرون لحظة واحدة، وسيدخلون آمنين مطمئنين متى شاءوا، والملائكة يرحبون بهم بالتهنئة والكلمة

(1) سورة فصلت، الآية 38.

(2) سورة آل عمران، الآية 107.

(3) سورة النساء، الآية 175.

(4) سورة فاطر، الآية 32.

الطيبة التي تليق بمقامهم، وسيجدون في الجنة ما وعدوا به من رب العزة، وما شاءوا، وما لم يخطر على بالهم. قال تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾[1].

هذا الترحاب والدخول بسلام إلى الجنة، وما سيجدون فيها من نعيم خالد، اقترن بعبارة "ولدينا مزيد" فما هو هذا المزيد ؟ وما حجمه المادي والمعنوي ؟ إن الفكر والخيال مهما اتسع لن يدرك هذا المزيد، ولاسيما أن الآيات البينات كررت عبارة المزيد في مواضع متعددة لتبين أن وعد الله صادق وأكيد ؛ وإذا كان العقل لا يستطيع أن يحيط بهذا المزيد فان قلوب المؤمنين تدرك بعضا منه، ألا وهو رحمة الله التي سينعم بها هؤلاء المخلصون في عقيدتهم وعملهم وتقواهم، إذ رحمة الله تفوق حجم السماوات والأرض، فطوبى لهم بهذه المكانة الرفيعة عند الله. ومما تكرر في الآيات لبيان الزيادة قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾[2].

هذا بعض من هذه الزيادة، انه نضرة الوجه، وما أعظم من نضّر الله وجوههم، وانه السرور والبهجة والفرحة في يوم الشدة، والرضوان من الله، وما أسعد من رضي الله عنه في هذا اليوم، فلا ذلة ولا صغار ولا خنوع ولا مسكنة، وأي شيء يطلب المؤمن أكثر من هذه المكانة العالية عند الله، ورحمته الواسعة. وقد بين الحديث الشريف ما يقدم لأصحاب الجنة في هذا اليوم، فقال عليه السلام : «إذا دخل أهل الجنة نودوا أن يا أهل الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا هو أحب إليهم منه».

وقد عبر القرآن الكريم عما يصدر من أصحاب الجنة من ارتياح وشكر لله على ما أوجد لهم من نعم وخيرات، ظهر هذا الارتياح على وجوههم، ولهجت به ألسنتهم، تعبيرا منهم عن الرضى، وعما صدقهم الله وعده، فأحلهم دار المقامة من فضله وكرمه، فقال تعالى، وهو أصدق القائلين : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾[3].

---

(1) سورة ق، الآيات 30-35.

(2) سورة يونس، الآية 26.

(3) سورة فاطر، الآيتان 34-35.

هذا الارتياح الكبير، والاطمئنان النفسي للمؤمنين يوم لقاء الله، هو نعمة وفضل من الله سبحانه وتعالى على الذين أوفوا بالعهود، والتزموا طاعة الله في العبادة والسلوك والقول، فكان جزاء ربهم أوفى، والله لا يخلف وعده، وهو أحسن الصادقين : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾[1].

وصف نعيم الجنة المادي :

إن نعيم الجنة المادي بجميع أشكاله وألوانه وطعمه لا يمكن حصره أو عده، وما ذكره الله مما هو معروف عند الإنسان في هذه الحياة الدنيا هو نموذج بسيط جدا، يقرب به الله صور النعيم التي سيجدها المؤمن في دار المقامة والخلود، لأن الله سبحانه وتعالى يذكر في آيات كثيرة حينما يسرد نعيم الجنة قوله، وهو أصدق القائلين : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾، وهذا المزيد لا يعرف ولا يقدر حجمه سواء كان ماديا أو معنويا، انه فضل من الله لهذه الفئة المؤمنة، لم يطلع عليه أحدا نعمة من الله وفضلا لما يهيء لهم من مفاجآت وأفراح وسرور تليق بهم في هذا اليوم الشديد. ولكن البيان القرآني اقتضى أن يقرّب بشكل كبير صور النعيم المادي الذي سيكون من نصيبهم، من مشروبات مختلفة لذة للشاربين، وأطعمة متنوعة من لحوم طير ما عرفوها في هذه الحياة الدنيا، وفواكه ما ذاق الإنسان من قبل طعمها ولذتها، وألبسة من حرير ناعم، وأفرشة زاهية، ونساء أبكار بيض كأنهن اللؤلؤ المكنون، لم ير مثلهن في الجمال والنعومة واحورار العيون، ولم يمسهن أحد من قبل، وغلمان آية في الجمال يقدمون لهم كل ما يحتاجون له. أما إقامتهم فستكون في قصور عرضها السماوات والأرض، لم ير شكلها وحجمها من قبل، تجري من تحتها الأنهار، وتتخللها أشجار ضخمة، وظلال وارفة. وهذا ما هو إلا تقريب بسيط جدا لصورة النعيم المادي بيّنه الله للإنسان على قدر ما يوجد في ذهنه من صور الأشكال في الحياة الدنيا، أما حقيقتها فلا يعلمها إلا الله الذي أوجدها، فإذا كانت قصور الجنة في حجم السماوات والأرض فكيف يمكن للإنسان أن يحيط فكره بمساحة هذه القصور الممتدة طولا وعرضا ؟ وكيف له أن يعلم أشجارها ونباتاتها ووديانها وظلالها ؟ هذا التصور أسمى من خيال الإنسان وعقله وحدسه. فلذلك على المؤمن أن يمتثل إلى الله ويسارع في الخيرات لينال هذا الأجر العظيم : ﴿ **سابقوا إلى**

---

(1) سورة يونس، الآيتان 9-10.

مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[1].

وفي قصور الجنة التي بهذه الصفة يحدثنا البيان القرآني بأن المؤمنين سيلتقون فيما بينهم ببشر وارتياح وانشراح، فلا تسمع في أحاديثهم إلا المودة والتراحم والتعاطف، ولا ترى في وجوههم إلا السعادة والابتسامة الدائمة في اليوم الذي تكون فيه وجوه أخرى كالحة مسودة لحرمانها من هذا النعيم والرضى الذي ناله المؤمنون، قال تعالى : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ونودوا أن تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾**[2].

هذا الجزاء العظيم هو جزاء صدقهم بالرسل، وعملهم بما أمروا به، وخشيتهم من الله في السر والعلن، واستغفارهم لربهم بالعشي والإبكار، فلذلك كان الجزاء بمقدار الأعمال، لا ينقص منه شيء بل يزاد ويوفى من رب غفور رحيم : ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾**[3].

هذا المقام العظيم للمؤمنين في جنة الخلد قال فيه علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه : «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم».

وحينما تحدث القرآن الكريم عن هذا النعيم المادي قرب الصورة بشكل بياني بديع، جاء آية في الوصف والتحليل؛ ففي حديث الله عن المشروبات نجد ذكر المياه العذبة الصافية، واللبن الحلو المذاق، والعسل المصفى الذي لم يخرج من بطون النحل، ولم يخالطه شمع، والخمر الحلوة العذبة التي لا تحدث صداعا في الرأس، ولا تذهب بالعقل، بل هي لذة للشاربين. قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾**[4].

ونجد في آيات أخرى طعم الماء العذب قد اختلط بطيب الكافور، وهو يتفجر بقوة من عيون صافية، بل المؤمنون يتحكمون في زيادة هذا الماء كيفما شاءوا، وبالقدر الذي

(1) سورة الحديد، الآية 20.

(2) سورة الأعراف، الآية 42.

(3) سورة الذاريات، الآيات 15-19.

(4) سورة محمد، الآية 16.

يروقهم ويعجبهم، فقال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾[1]. إن قوله تعالى : ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ فيها قوة هذا الماء، وإرادة المؤمنين في التحكم فيها بالشكل الذي يريدونه. وهذه العبارة دالة أيضا على رغبة الإنسان الشديدة في الحصول على الماء في هذه الحياة الدنيا، وبخاصة في منطقة صحراوية مثل جزيرة العرب التي يقل فيها الماء والظلال والأشجار، فكان الإنسان الجاهلي الذي أدرك الإسلام يرى في هذه النعم ولاسيما نعمة الماء أجل ما يسعى للحصول عليه في هذه البيئة. كما كانت الآيات البينات تمزج بين نعمة الماء، وبين ما كان يفضله الجاهليون في شربهم وبخاصة الخمر التي افتخروا بشربها، لأنها كانت ـ على حد زعمهم ـ تقويهم في الحروب، وترفع شأنهم، وتدفعهم للبذل والعطاء :

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

لكن خمر هذه الحياة الدنيا التي افتخروا بشربها كانت تفعل فيهم غير هذا دون شعورهم بذلك، فهي تذهب بالعقل وتشعل الفتن بينهم، وتمزق الأسرة، وليس فيها من فضل إلا الخراب مثل الميسر، ولذلك نهاهم الله عنها، ووعدهم بخمر في الجنة هي أجود وأحلى، ولا تفعل فيهم مثل ما تفعل خمر الدنيا. قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[2].

هذه الآية الكريمة تؤكد لهم حقيقة مضار هذه الأشياء على أنفسهم ومجتمعهم. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم المؤمنين من خمر الدنيا لما فيها من أضرار بالغة فانه لم يحرمهم منها في الحياة الأخرى، لكنها خمر لذيذة وغير ضارة بالجسم والعقل، ولذلك ذكرها الله مع الماء العذب، واللبن الحلو، والعسل المصفى، والفواكه التي يلذ طعمها، والزوجات القاصرات الطرف. قال تعالى : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون ﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾[4].

هذا هو حال المؤمنين وهيأتهم ونعيمهم في جنة الخلد، لا يحرمون من شيء حرموا منه في الدنيا، بل سيكون الجزاء مضاعفا من رب العزة القادر على كل شيء.

---

(1) سورة الإنسان، الآيتان 5-6.

(2) سورة المائدة، الآية 94.

(3) سورة الصافات، الآيات 41-49.

(4) سورة الواقعة، الآيات 19-22.

ومما يتميز به البيان القرآني في هذا الوصف هو بيان الهيأة التي سيكون عليها المؤمنون في الجنة، واللباس والحلي الذي سيتمتعون به؛ فالمؤمنون هم ضيوف الرحمن، لكنهم ضيوف دائمون. وإذا كنا في حياتنا الدنيا نستقبل الضيف العزيز ببالغ الحفاوة والترحاب، وننزله في أفضل مكان في بيتنا، ونعد له ما طاب ولذ من المأكل والمشرب، فان الإقامة والمأدبة التي أعدها الله لعباده الأبرار الصالحين، لا يضاهيها شيء في الجود والكرم والترحاب، وهو المالك لخزائن السماوات والأرض، والقادر على فعل كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فإن كل ما ذكره سبحانه وتعالى من مشرب ومأكل ولباس وفراش وزوجات جميلات صالحات سيكون وافيا، وغير منقطع. قال تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، ولباسهم فيها حرير** ﴾[1]. وتكرر هذا المعنى في آية أخرى لتأكيد هذه الحقيقة التي لا ريب فيها، فقال عز من قائل : ﴿ **جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، ولباسهم فيها حرير** ﴾[2].

وتأتي آيات أخرى لتبين ألوانا من هذا النعيم الرباني في صور متحركة، زاهية الألوان والظلال، فيها الأسرة المرصعة بالجواهر، والزوجات الحسان، والولدان الذين يخدمون المؤمنين، وكلها تسعد القلوب، وتنعش النفوس، ولاسيما حينما يعلم المؤمن أن كل هذه الخيرات مقرونة بالطمأنينة والسكينة والمحبة والرضى من الله الذي هو أعز ما يسعى إليه المؤمن. قال تعالى : ﴿ **على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾[3]. وقوله : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾[4]. وقوله : ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، لكم فيها فاكهة كثيرة، منها تأكلون** ﴾[5].

---

(1) سورة الحج، الآية 21.

(2) سورة فاطر، الآية 33.

(3) سورة الواقعة، الآيات 17-28.

(4) سورة مريم، الآية 62.

(5) سورة الزخرف، الآيات 70-73.

هذه النعم التي تشتهيها الأنفس، وتلذ لها الأعين هي ثمار متعددة الأشكال والطعوم، لا تنقضي ولا تتعفن. قال رسول اللهﷺ : «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلها»، فالمؤمن لا يمل أكل هذه الثمار لأن طعمها يتجدد في كل حين، وإن كانت هي نفسها، كما أنها لا تؤكل لسد الجوع أو لحفظ الصحة، وإنما للمتعة والتلذذ، فالله سبحانه وتعالى جعل أجسام المؤمنين خالدة، لا تصاب بالعلل والأمراض والشيخوخة. قال الله تعالى : ﴿ **وإن للمتقين لحسن مآب، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، متكئين فيها، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب، وعندهم قاصرات الطرف أتراب، هذا ما توعدون ليوم الحساب، إن هذا لرزقنا ما له من نفاد** ﴾[1]. وقوله تعالى : ﴿ **إن المتقين في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾[2].

هذا هو جزء من النعيم المادي الذي سيكون من نصيب المؤمنين الذين صبروا وجاهدوا النفس الأمارة بالسوء، واتبعوا سبيل الخير، واستجابوا لما يدعو إليه الله ورسوله، فكان جزاؤهم بالحسنى وزيادة. ويبلغ التعبير القرآني ذروته في تفصيل هذه النعم في سورة "الرحمن" حيث يذكر الله ما أعد للمؤمنين في الجنة، فلا يمكن لأحد أن يتجرأ على الشك في هذه النعم، أو نكرانها، فقال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، ذواتا أفنان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهما عينان تجريان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهما من كل فاكهة زوجان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، كأنهن الياقوت والمرجان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾[3].

إن النظرة المتأملة في الآيات البينات التي ذكرت نعيم الجنة المادي، لا يمكنها إلا أن تجد صورا زاهية في أبهى وأجمل وأبدع منظر يروق العيون، ويريح الأسماع، ويبعث الطمأنينة في النفوس، في كل ما ذكره الله سبحانه وتعالى، في المأكل والمشرب والملبس والفراش والجواري والإقامة المريحة والخدم والأشجار والظلال والمياه الجارية، فلم يترك القرآن شيئا بديعا وزاهيا في هذه الأغراض إلا ذكره بتفصيل. ولم يكن العرب من قبل يسمعون مثل هذه المعاني بهذا التفصيل العجيب والممتع، فكل ما

---

(1) سورة ص، الآيات 49-53.

(2) سورة المرسلات، الآيات 41-44.

(3) سورة الرحمن، الآيات 45-60.

ذكره شعراؤهم من أوصاف النساء في غزلهم خاصة، لا يبلغ هذا الوصف الذي تجده في الجواري الحسان في الجنة، أما الأوصاف الأخرى ولاسيما الأنهار والظلال والأفرشة فلم يكن لهم قدرة على وصف جزء قليل مما ذكره كتاب الله، وهنا يسمو البيان القرآني في الوصف الذي لم يستطع أكبر شعرائهم الوصافين مجاراته، أو القرب منه.

وإذا كان الجانب الحسي والمادي في تصوير النعيم في البيان القرآني قد كثر في الآيات البينات، فهذا شيء طبيعي بالنسبة لعقلية الإنسان الجاهلي، وحالته النفسية، وظروفه الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد كان في صراع دائم مع البيئة التي حرمته من وفرة الماء والكلأ، ومن أبسط وسائل العيش التي كان ينعم بها جيرانه، فكان لهذا التصوير تأثير كبير على وجدانه ونفسيته، لأن كتاب الله راعى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والنفسية للأعراب، وكان من جملة هذه المراعاة أيضا الجانب الفني والأدبي واللغوي في التعبير والصياغة والتصوير، بل في الحركات وطريقة اللقاء والاستقبال كما قال تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين** ﴾[1].

لم يكن العربي يسمع مثل هذا في بيئة لا تهدأ فيها الحروب والفتن، وحتى إذا وجد وقتا للاستماع للشعر في الأسواق الأدبية، وفي المنتديات فلا تطرق آذانه مثل هذه العبارات السلسة، والمعاني البديعة، والأوصاف الرائعة؛ فلا نعجب من تأثير البيان القرآني في هؤلاء الأعراب، أصحاب الكلمة البليغة، والفصاحة والبيان، إلا أن إنتاجهم الفني والأدبي واللغوي لم يصل إلى مكانة بيان كتاب الله ؛ هذا البيان الذي ما زال يبهر كل من له قدر من الإحساس الفني والأدبي والجمالي، كبيراً كان أو صغيراً.

مشاهد الجحيم في البيان القرآني :

﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل، يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون** ﴾[2].

إن الله سبحانه وتعالى خلق الجنة والنار لتكون الأولى جزاء للمحسنين، والثانية عقابا للكافرين، هذا وعد الله للمؤمنين، ووعيده للعصاة الكافرين، ولن يخلف الله وعده،

---

(1) سورة الزمر، الآيتان 70-71.

(2) سورة غافر، الآيات 70-72.

وهو أصدق القائلين. وإذا كان قد هيأ في الجنة كل ما يسعد المؤمنين من نعيم معنوي ومادي في حياتهم الخالدة، وقد رأينا في مبحث مشاهد النعيم في الجنة صورا وأشكالا وأنواعا مما أنعم الله به على هذه الفئة، فانه أعد للكافرين أصنافا وأنواعا من العذاب الأليم في جهنم التي سيخلدون فيها ؛ وهذا العذاب تعددت أيضا أشكاله وأنواعه النفسية والجسدية، فهو نيران ملتهبة، لا تنطفئ لحظة واحدة، مهيأة لتحرق أجسامهم وجلودهم التي تتبدل في كل وقت، ويتصاعد من هذه النار لغزارتها وكثافتها دخان يملأ سماءهم، فلا يرون إلا سحب الدخان؛ وأما أطعمتهم فهي رديئة لا يستطيعون هضمها، وشرابهم من حميم يقطع الأمعاء، ويذيب الأجسام، وقد كلف بهذا العذاب ملائكة شداد غلاظ لا يعصون الله فيما أمروا به. هذا العذاب لا يتوقف ولا يفتر أو يهدأ لمدة من الزمن. كما جاء في هذا التصوير أصوات الأنين والنحيب والصراخ والألم، وطلبهم العودة إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا، وهيهات هيهات أن يعودوا، وقد فرطوا من قبل، وكان لهم الاختيار، لكنهم سلكوا سبيل الغي، فلن تتحقق أمانيهم الآن. أما الروائح فهي كريهة، وهي مما ينبعث منهم من عرق وصديد. هذه هي المشاهد المؤلمة التي صور بها الله مقام العصاة في نار جهنم؛ قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كذلك نجزي كل كفور، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[1].

وهذا العذاب الذي سيكونون فيه نوعان، عذاب نفسي حيث الندم على ما قدموا من أعمال سيئة، وظهورهم، وهم أمام الله، في ذلة ومسكنة وخنوع، وقد اسودت وجوههم كأنها قطع من الليل البهيم، لكن لا شيء ينفعهم في هذا الوقت، قال تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وترهقهم ذلة، ما لهم من الله من عاصم، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[2].

والعذاب الجسدي يتمثل في تقييدهم بالسلاسل والأغلال في أيديهم وأرجلهم مثل المجرمين، وهم يسحبون سحبا قويا إلى جهنم التي تنتظرهم، وكأنها في منظرها الرهيب غول يريد أن يلتهمهم، ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾[3]، وفي انتظارهم حتى يدخلوا إلى مثواهم الخالد لا يرون من الملائكة إلا الاحتقار والإهانة الذليلة حتى يدخل كل فوج من باب جهنم التي سيخلد فيها، لأن جهنم قد جعل لها الله سبعة أبواب لكثرة

(1) سورة فاطر، الآيتان 36-37.

(2) سورة يونس، الآية 27.

(3) سورة الشعراء، الآية 91.

العصاة والمجرمين الذين سيدخلونها، أعدت تلك الأبواب لتستوعب عددهم الكثير، ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب، ولكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾[1].

هذا هو مقام المجرمين في النار، فلا يجدون نصيرا ولا معينا سوى أن يحتملوا العذاب المضاعف، لأنهم لم يتعظوا من قبل وقد جاءتهم الرسل، وحذرهم الله من عذابه وهم في الحياة الدنيا يلهون ويمرحون، ويظنون أن لا حياة ولا بعث ولا حساب بعد مماتهم. والله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده لم يتركهم من قبل في ضلالهم دون أن يبين لهم النذر، ويحذرهم مما هم فيه، ولذلك نجد الآيات البينات تذكر الإنسان بهذا العذاب قبل أن يحل بهم، عسى أن يعودوا للرشد وطريق الهداية، لأن الله ليس بظلام للعبيد، وما أوجب حكمه على عباده إلا بعدما اختاروا طريق الضلال بعدما تبين لهم سبيل الهداية والضلال. قال تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس، هذا عذاب أليم** ﴾[2]، وقال أيضاً : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[3].

هذا الوصف الذي جاء بهذا الهول والشدة لما سيكون عليه الحال في يوم القيامة القصد منه هو تنبيه الناس إلى شدة هذا اليوم لكي يرحموا أنفسهم، ويجنبوها هذا العذاب الشديد، بالعودة إلى الله، والعمل بما أمر به من أعمال صالحة وتقوى وطاعات، لأنها هي السبيل لوقاية الناس من الهلاك، فلا أموالهم ولا أولادهم ولا جاههم ومناصبهم تنفعهم في هذا اليوم. وقد قيل إن آيتي سورة الحج نزلتا ليلا، فلما قرأها رسول الله ﷺ على القوم «فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول، ولم يطبخوا قدرا، وكانوا من بين حزبين : باك ومفكر»[4].

وقال سبحانه وتعالى في بيان أحوال وأهوال هذا اليوم : ﴿ **يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيراً** ﴾[5]، وقال أيضاً : ﴿ **ويسألونك عن الجبال، فقل ينسفها ربي نسفا، فيذرها قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾[6].

(1) سورة الحجر، الآيتان 43-44.
(2) سورة الدخان، الآيتان 9-10.
(3) سورة الحج، الآيتان 1-2.
(4) الكشاف : 4/3.
(5) سورة الطور، الآيتان 8-9.
(6) سورة طه، الآيات 102-104.

هذه الآيات البينات أظهرت للناس هول يوم القيامة، وما سيكونون فيه من ذعر وخوف لاسيما أنهم سينظرون ويشاهدون أحداثا جساما لم يألفوها من قبل؛ فالكون كله سيضطرب بشكل مذهل، يرون فيه الجبال الراسيات الشاهقات وقد سويت بالأرض كأنها لم تكن من قبل، وفي ذكر هذه التسوية تعبير دقيق، في غاية الدقة من الله سبحانه وتعالى الذي أحكم كل شيء صنعا وتسوية، ولهذا وقف عندها الشراح لإظهار أسرارها البيانية، و في دقة تعبيرها الذي لا يصدر إلا من الخالق العلي القدير، وبخاصة في ذكر عبارة "عوج"، بكسر العين، قال الزمخشري : «قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك إذا عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك، وعين البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله، عز وعلا، ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة. وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه : عوج، بالكسر»[1].

هذا النص يظهر بالتحليل العلمي والبياني من باحث بياني جليل القدر في هذا العلم كيف يعبر القرآن عن المعاني بتعابير دقيقة لا يدرك مراميها ومقاصدها إلا من كانت له اليد الطولى في معرفة التراكيب ودلالتها على المعاني، معرفة لا تقل عما كان يدركه الأعراب الخلص مثل الزمخشري، فقد بحث في دقة التعبير بلفظة "العوج" في الآيتين البينتين، وأن كتاب الله لم يأت بها بالفتح، لتكون معبرة على المقصود بدون لبس أو إشكال. إن الباحث في كتاب الله كلما ازداد تمعنا في آياته أعطته من المعاني واللطائف ما يجعله يتيقن أن هذا الكتاب العزيز أتقن الله فيه كل شيء حتى يكون حجة قاطعة على نبوة المصطفى، لأن الله في علمه وتقديره أن رسالة الإسلام التي هي آخر الرسالات السماوية ستستمر مع الإنسان إلى نهايته من هذا الوجود، وأن هذا الإنسان سيعرف تطورا واكتشافات علمية وصناعية وتقنية في جميع العلوم والمعارف، فلذلك اقتضت حكمة الله أن يكون هذا الكتاب متحديا لهذا الإنسان حتى في عصور التقدم العلمي الهائل. وبقدر ما يحتاج كتاب الله من كل دارس وباحث في دلالاته وتراكيبه

(1) الكشاف : 553/2.

إلى المعرفة العميقة باللغة العربية، يحتاج كذلك إلى حدس علمي يمكنه من إدراك دلالات أوسع وأعمق.

وقال سبحانه وتعالى في بيان حال السماء في هذا اليوم العظيم : ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾[1].

إن قوله تعالى : ﴿ **وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ زيادة في التأكيد، وليتيقن كل شاك أو متردد أن وعد الله صدق وحق، وليقلع كل من كان في الضلال عن غيه، ويثوب خير مثاب، لأنه لا محالة عائد إلى ربه، فإما خلد في جنة النعيم، وإما خلد في نار جنهم.

وفي مشاهد الجحيم يصور الله سبحانه وتعالى جهنم في شدة النيران المتصاعدة منها بكائن حي، تمتلئ غيظا وكراهية على العصاة، وهي تنتظرهم بشوق ولهفة لتنقض عليهم من شدة حقدها وكراهيتها لهم، وبمجرد أن يلقى فيها هؤلاء العصاة تجدها تظهر ما كانت تخفيه لهم. قال تعالى : ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا، وهي تفور تكاد تميز من الغيظ** ﴾[2].

ثم يصف البيان القرآني مقامهم في جهنم، فيذكر عذابهم الدائم، انه عذاب دائم لا يتوقف، فلذلك تجدهم يتمنون الموت عسى أن يستريحوا، ولكن هيهات أن تتحقق لهم هذه الأمنية ؛ إن الموت يصبح مثل السراب، يظنون أنه آت، وما هو بآت. أما شرابهم فهو صديد ينبع من جلودهم، يتجرعونه بمرارة، لأنه لم يعد لهم الاختيار في شرب ما يريدون، فكل ما يجدونه أمامهم ووراءهم، ومن على يمينهم وشمائلهم إلا العذاب الغليظ الذي يتجدد أشكالا وألوانا في كل لحظة. قال تعالى : ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، من ورائه جهنم، ويسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل مكان، وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾[3].

وتزداد هذه الصورة بشاعة وشناعة حينما تقترن بعناصر أخرى من العذاب، مثل الدخان المتكاثف فوق رؤوسهم، يعمي أبصارهم، ويملأ أنوفهم، وكذلك نوع الطعام الرديء الذي تعافه الحيوانات، والماء الشديد الحرارة الذي يشربونه بنهم، فتراهم في كل لحظة مقبلين على شربه مثل ما تفعل الإبل التي اشتد عطشها لفترة طويلة من الزمن، وهي صورة كان يشاهدها الأعرابي في بيئته. قال تعالى : ﴿ **في**

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 103.

(2) سورة الملك، الآية 8.

(3) سورة إبراهيم، الآيتان 19-20.

سموم وحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين ﴾[1].

في هذه الآيات البينات ترى أسلوب التأكيد ﴿ **هذا نزلهم يوم الدين** ﴾، وتجد العبارات القوية الدلالة التي تبرز التقريع الشديد لهؤلاء العصاة ﴿ **وخاب كل جبار عنيد** ﴾، كما تلاحظ التصاق العذاب بهؤلاء المجرمين، وكأنه جزء من أطرافهم لا يفارقهم لحظة واحدة ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾.

ويعمد التصوير البياني لإبراز شدة العذاب، وإظهاره بشكل فظيع حينما يأتي بأسلوب التضاد، وهذا الأسلوب يكون تأثيره أقوى من ذكر الشيء بمفرده؛ فضياء النهار يكون أكثر جلاء حينما يقرن بظلام الليل، وفضائل الأخلاق تسمو سموا عاليا حينما يذكر بجانبها الرذائل والمساوئ، وهكذا في جل المعاني المتضادة. ولذلك نجد كتاب الله في ذكره لمشاهد الجحيم يورد بجانبها مشاهد النعيم في الجنة بكل ما فيها من طعام ولباس ومياه جارية وزوجات حسان وخضرة وأشجار وقصور، لتكون هذه الصور المتلألئة والزاهية بظلالها وألوانها بجانب تلك الصور الحزينة المؤلمة من نيران ملتهبة وصديد وعويل وبكاء، وهي صورة أصحاب النار. قال تعالى : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار، يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[2].

هذا الوصف لصنوف العذاب الأليم حيث يصب الحميم فوق الرؤوس، فيذيب جلود العصاة وأحشاءهم، والنار ترميهم بلهبها المتطاير فترفعهم، ثم يضربون بالسياط فيهوون إلى قعر جهنم ليتجدد عذابهم. هذه الصورة المؤلمة التي تقشعر منها الجلود، وتجعل النفس تمتلئ حسرة وألما لما ينتظر المجرمين، جاءت بجانب صورة أخرى زاهية الألوان والظلال والنعيم والخيرات مع رضوان الله الأكبر في جنة الخلود، في قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، ولباسهم فيها من حرير، وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[3].

---

(1) سورة الواقعة، الآيات 45-49.

(2) سورة الحج، الآيتان 19-20.

(3) سورة الحج، الآيتان 23-24.

لا ريب أن العصاة الضالين في هذه الحياة الدنيا حينما يرون ما ينتظرهم من عذاب أليم، ويرون في نفس الآن ما سيتمتع به المؤمنون من نعيم خالد، فإن نفوسهم إذا كانت أقرب للخير والتقوى تحدثهم بالعودة إلى الله عسى أن يغفر لهم خطاياهم، ويثوب عليهم، ويكونوا من زمرة الناجين مع المؤمنين في جنة النعيم. وهذا ما سعى إليه كتاب الله، وهو إنقاذ الضالين من ضلالهم، وفتح لهم سبيل التوبة والعودة إلى الله، وقد تجلى ذلك في آيات الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وبأوصاف النعيم والعذاب. ومن هنا نجد كثرة هذه المعاني في البيان القرآني، بدءا من مشاهد وقوف المؤمنين أمام الله، وما يقدم لهم الملائكة من تحية، وهم مطمئنون على مصيرهم، إلى أن يدخلوا إلى الجنة التي وعدهم الله بها. وبجانب هذه الصورة البهيجة تجد صورة موحشة ومؤلمة، هي نيران مشتعلة، وعذاب دائم، وأنين وصراخ : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾[1].

كما تجد كتاب الله يلجأ إلى هذا التضاد لإبراز لون واحد من النعيم بجانب آخر من العذاب، كما هو الحال في بيان شرب أصحاب الجنة، وشرب أصحاب النار، قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم** ﴾[2].

ويلجأ كتاب الله إلى تعديد ألوان كثيرة من النعم بجانب ألوان أخرى من العذاب بجانبها عسى أن يكف الغاوون عن غوايتهم. قال تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون كغلي الحميم، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم، إن هذا ما كنتم به تمترون، إن المتقين في مقام أمين، في جنات وعيون، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك، ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[3].

هذا التضاد بين ما هو بغيض وكريه من طعام وشراب وإقامة ومعاملة، وبين ما هو محبوب ومرغوب فيه في جميع ذلك يجعل الكافرين والعصاة يفكرون فيما هم

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان 90-91.

(2) سورة محمد، الآية 16.

(3) سورة الدخان، الآيات 41-54.

فيه من ضلال وغي، ويراجعون سلوكهم لعل الله ينير عقولهم، ويهدي قلوبهم إلى الإيمان والتقوى، ولفعل الخير والتزود لليوم الآخر بالعمل الصالح. ومما زاد هذه الصورة البيانية قوة في الدلالة خطاب الفئة من أعيان الكفار، وأقطاب الشرك بعبارات التهكم والازدراء في قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾، فهؤلاء كانوا بين قومهم أعزة بمالهم وسلطانهم وأولادهم، لكنهم الآن عند الله أذلة لا قيمة لهم أمام المؤمنين، لأن الجزاء الحسن عند الله بالعمل الصالح والإيمان، وليس بالجاه والسلطان والكفر والضلال، فهذا التعبير البياني يخاطب الكافر بأسلوب يظن أنه مدح إلا أنه في غاية الذم، وهو من الأساليب الموجعة والمؤلمة[1].

ومثل التضاد البياني الرفيع في كتاب الله، قوله تعالى : ﴿ **هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب، وعندهم قاصرات الطرف أتراب، هذا ما توعدون ليوم الحساب، إن هذا لرزقنا ما له من نفاد، هذا وإن للطاغين لشر مآب، جهنم يصلونها فبيس المهاد، هذا فليذوقوه حميم وغساق** ﴾[2].

في هذه الآيات البينات نجد لونا جديدا من العذاب يشير إليه الكتاب العزيز بذكر لفظة "غساق"، فهذا اللون من العذاب وقف عنده الشراح، فقالوا : إن الغساق ما يغسق من صديد أصحاب النار، وقال الحسن، رضي الله عنه : هو عذاب لا يعلمه إلا الله. وذلك لما فيه من شدة وقسوة بالغة على الكافرين.

إن الله سبحانه وتعالى حينما خلق العباد في هذه الحياة الدنيا لم يخلقهم للشقاء، وهو الرحمن الرحيم، وإنما ليختبرهم في مقدار تحملهم للأمانة والمسؤولية التي هي في جوهرها عبادة وطاعة لله وحده، وعمل صالح لبناء المجتمع، ونشر السلم والأمن. قال تعالى : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور** ﴾[3].

من هنا ندرك القصد من تصوير العذاب في البيان القرآني، إنه لم يأت لغاية في حد ذاته، وإنما لدفع الناس للعودة إلى الفطرة السليمة التي خلقوا عليها، وهي عبادتهم لله وحده، وإخلاصهم لله بالعمل الصالح، وقد أعطوا العهود في ذلك قبل أن يخلقوا، ولهذا فان الله يذكرهم بتلك العهود، وبالغاية التي وجدوا من أجلها في هذه الحياة

---

(1) وهناك أسلوب آخر مقابل له وهو أسلوب الذم يراد به المدح، وهو من الأساليب البليغة في البيان العربي.

(2) سورة ص، الآيات 48-56.

(3) سورة الملك، الآيتان 1-2.

الدنيا، ومن أصر على الكفر والضلال والغي، واستعلى في الأرض علوا كبيرا بغير حق، فان الله يذكره بالعذاب الذي أعده له حيث لا ينفعه مال ولا بنون ولا جاه ولا سلطان، وله في الدنيا خزي وعار.

هذا هو البيان القرآني الغني بالتنوع في الدلالات، والعميق في المحتوى والرؤى، والواسع في الخيال، والمبدع في صوره الجميلة، والقوي في عباراته وتراكيبه، والسليم في معانيه ودلالاته؛ ما تناول معنى من المعاني الدينية أو الغيبية أو الاجتماعية أو الخلقية إلا استوفاه في معانيه وصياغته وبيانه. وقد كان لأسلوب القرآن السامي الأثر البالغ في الشعراء والأدباء والخطباء، فما من أديب أو خطيب علت همته لإتقان أدبه وفكره، وتوسيع خياله إلا وعاد إلى الآيات البينات يستقي منها ينبوع أفكاره وخياله. وظل هذا التأثير البالغ في الأدباء طيلة هذه القرون، وما زال يعود إليه أدباء العصر الحديث ليأخذوا من صفاء تعبيره، وسمو بيانه؛ ولعلنا نبرز هذا بشكل بارز حينما نقف على نموذج واحد من إنتاج الأدباء والشعراء الذين تأثروا بالبيان القرآني معنى وصورة وخيالا، فجاء أدبهم في غاية السمو ، ونذكر من هذا الأدب "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، فهذه الرسالة استقت معانيها وصورها وخيالها من بيان القرآن السامي، فجاءت آية في التعبير الرصين، والخيال السليم. ونأخذ فقرة واحدة من هذه الرسالة ليظهر لنا فيها هذا التأثير العميق الذي لا يخفى على ناشئ ومبتدئ في الأدب. قال المعري في هذه الرسالة : «ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو موم موتور، ولكن قال له العزيز القادر : كن فكان، وبكرمه أعطى الإمكان. واها لذلك عسلا، لم يكن بالنار مبسلا، لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قدر له عارض موم، ولا لبس ثوب المحموم»[1].

وبرغم أن رسالة أبي العلاء تعد أنموذجا مثاليا في الأدب العربي، بل العالمي، لما جمعت من صنوف التعابير، وخصائص الأدب الرفيع بأسلوبها الرصين، وفكرها العميق، وخيالها الواسع، فإنها لا تصل إلى سمو آية واحدة في كتاب الله. وإذا تمعنا في ذلك النص القصير فإننا نجده ممتلئا باللغة الغريبة، وبالتكلف في جلب الكلام المسجوع، بينما الآيات البينات جاء أسلوبها سهلا، وفكرها واضحا، وخيالها ممتعا، وتصويرها زاهيا؛ فبدت كأنها الماء في جريانه سهولة وصفاء، وصدق رب العزة حينما وصف كتابه العزيز بقوله : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً** ﴾[2].

---

(1) رسالة الغفران : 103-105. الموم، الأول : الشمع، والثاني، بثر أصغر من الجذري. متوار : مختلف. بسل النبيد : صار حامضا.

(2) سورة الكهف، الآية 1.

خاتمة

﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾[1].

لا يستطيع دارس منصف لتاريخ الحضارات الإنسانية، وتاريخ الإسلام خاصة أن ينكر التغيير الذي أحدثه الإسلام في العرب، وفي الإنسانية عامة.

لقد أشرق نور الإسلام في جزيرة العرب على أمة كانت غارقة في الضلال والجهل والأمية، قد مزقتها التفرقة والحروب القبلية التي لم تكن تهدأ إلا لتشتعل من جديد لأتفه الأسباب. فلم تعرف وحدة تشد أزرها، وتلم شملها، وتقوي مكانتها بين الجيران، فكانوا بهذا الضعف عبيدا وأتباعا للدول القوية التي كانت تجاورهم.

هذا هو حال العرب قبل مجيء الإسلام، لم يعرفوا المقومات التي تجعلهم يؤسسون دولة مستقرة بمؤسساتها القانونية والسياسية والاجتماعية والعلمية. وحينما أشرق نور الإسلام في أطيب بقعة في الأرض كان أول نداء لهذه الأمة التي ستولد من جديد هو دعوتها للتعلم : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾[2].

كان هذا النداء بشرى ميلاد أمة سيكون لها شأن كبير بالعلم، تسعى إليه، وتنشره في بقاع الأرض، وتكون لها السيادة والعلو في كل مكان حلت فيه.

ودعاهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، ورفض العبودية لأي مخلوق مهما علا شأنه، وفي ذلك عزة للنفس وإحساس بالكرامة التي يتوق إليها الإنسان : ﴿ **قل إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون** ﴾[3].

ودعاهم إلى الاجتماع على كلمة سواء، وتجنب الفرقة والعصبية والحروب التي كانت تنذر بنهايتهم لولا رحمة الله التي أنقذتهم برسالة المصطفى خير الأنام :

---

(1) سورة المائدة، الآية 173.

(2) سورة العلق، الآيات 1-5.

(3) سورة الأنعام، الآية 20.

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[1].

وأصبح أفراد هذه الأمة بفضل النور الذي أنزل إليهم أحرارا وسواسية، لا يفضل شريفهم على وضيعهم، ولا غنيهم على فقيرهم، يتنافسون فقط في التقرب إلى الله بالتقوى والطاعة والعمل الصالح : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير** ﴾[2].

ودعا إلى الالتزام بالنظام شريعة وقانونا بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وبجعل الشورى أساسا لتنظيم العلاقات بين الحاكم والمحكومين، لأن النظام والشورى يوفران الأمن والاستقرار والسلام في المجتمع الإسلامي : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[3].

هذه الأسس المثالية التي تقوي العلاقات الإنسانية، وتجعل المقومات الأساسية لبناء الدولة متينة وراسخة، أصبحت قانونا ملتزما في المجتمع الإسلامي، ومنهاجا واضح المعالم، جعل هذه الأمة منيعة الجانب، قوية العقيدة، متماسكة البنيان، موحدة الصفوف تعيش لهدف واحد، وهو الطاعة لله ولرسوله، والعمل الصالح الذي ينفع الناس. فهزمت الشرك والضلال، ونشرت شريعة الإسلام بالعدل والسلام. ونعم من آمن بهذا النور بحياة الأمن والاستقرار في ظل حكم إسلامي عادل.

وقامت على يد هذه الأمة حضارة إسلامية زاهرة، وضعت للإنسانية قوانين العدل والمساواة والسلام والأمن، ودعتهم إلى الإصلاح والبناء والإعمار، ونشر العلم والمعرفة، فكانت الأمة الإسلامية بفضل كتاب الله والسير على النهج الذي وضعه لهم مثالا في السلوك والمعاملات والأخلاق، وفي تنظيم الفكر، وفي النهج السياسي والاجتماعي : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون** ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

(2) سورة الحجرات، الآية 13.

(3) سورة النساء، الآية 58.

(4) سورة آل عمران، الآية 104.

إن القرآن الكريم برغم أنه كتاب عقيدة فإنه الكتاب الديني الوحيد الذي دعا الناس إلى الأخذ بأسباب العلم، والنظر في أسرار الوجود، وطبائع المخلوقات، واستخدام العقل الذي نال به الإنسان الدرجة الرفيعة على سائر المخلوقات، قال الله تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا، وهم معرضون** ﴾[1].

ودعا القرآن الكريم الإنسان إلى التبصر في النعم التي بين يديه، وفي ذلك تحريك للهمم لتجد في العمل والإنتاج. والإقرار بفضل الله على المخلوقات. قال الله تعالى : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2].

وكان من نتائج هذا التوجيه الرباني انطلاق المسلمين نحو آفاق العلم والمعرفة وبخاصة العلم التجريبي، فكانت أبحاثهم رائدة في الطب والزراعة والكيمياء وعلم التنجيم. «ومن العجب أن نرى أنه إذا كان أبناء يونان قد أنتجوا الفلسفة والعلم، وحرموا من الدين، وأنتج أبناء إسحاق الدين، وحرموا من الفلسفة والعلم، فإننا سنرى أبناء إسماعيل، وقد انبثق منهم الدين في أكمل صورة، كما أنتجوا العلم من حيث هو علم، وصبغوا به الحياة الإنسانية حتى عصورنا الحاضرة»[3].

ولم يهملوا شيئا يمكن أن يفيدهم في حياتهم الدنيا والأخرى. والكتب التي ألفت في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية أبرزت تأثير القرآن الكريم في مضامينها وبخاصة التشريعات والقوانين وأسرار الوجود، وهي مضامين أغنت المعرفة الإنسانية، وأضافت إلى سلسلة الحضارات حلقة جديدة من الفكر، مضيئة ومشرقة، أنقذت الإنسانية من ظلمات الجهل والتخلف في العصور الوسطى، وأسهمت في بناء الحضارة الغربية الحديثة في عصر الأنوار.

أما دور القرآن الكريم في إثراء علوم اللغة العربية وبخاصة دلالة التراكيب، وأسرار البيان والإعجاز، فإن الكتب التي صنفت في ذلك أبرزت سمو بيانه، وجزالة تعبيره، وسلامة تركيبه، وطرافة تصويره. وهذا هو السبب الذي جعل الباحثين يعدون

---

(1) سورة الأنفال، الآيتان 22-23.

(2) سورة الرعد، الآية 4.

(3) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : 4/12، الدكتور علي سامي النشار، ط 5، 1971.

كتاب الله مصدر علوم العربية، فلا تجد مؤلفا في علم العربية والبيان والإعجاز أغفل الإشارة إلى آياته البينات، وما تضمنت من خصائص تركيبية وبيانية.

والعرب برغم تماديهم في الباطل ونكرانهم لهذا النور لفترة من الزمن فإنهم اعترفوا في النهاية بأنهم كانوا على ضلال، وأقبلوا على تدبر معاني القرآن وأحكامه ومواعظه، ففتح الله قلوبهم، وأنار بصيرتهم لهذا النور، وكان منهم من قام بدور كبير لإعلاء كلمة الله في الفتوحات الكبرى، وفي تأسيس دعائم الدولة الإسلامية في الأمصار الجديدة بتنوير الأذهان لمعرفة مقاصد الشريعة السمحاء. وفي هذه الأمصار كما في مكة والمدينة المنورة، وفي المناطق التي امتد إليها الإسلام في إفريقيا وأوروبا وآسيا، كان العلماء يستخرجون من كتاب الله، وسنة رسوله عليه السلام أصول شريعة الإسلام وقوانينه وتعاليمه وأحكامه، فتكونت مكتبة إسلامية عظيمة، لم يشهد التاريخ الإنساني مثيلا لها من حيث العدد، وغزارة المعارف، وأصالة المضامين.

وفي مرحلة النهضة الحديثة حينما بدأ العرب يحيون تراثهم للاستفادة من جوانبه المضيئة ولمواصلة التطور الذي تعرفه الدراسات في مجال العلوم الإنسانية والعقلية كانت الأبحاث التي أنجزت في خضم هذه المرحلة تعتبر التراث الذي تأصل في عصور ازدهار الفكر العربي الإسلامي قادرا على الإسهام في دفع الحركة العلمية التي يتطلع إليها العالم العربي الإسلامي، لكون هذا التراث يتوفر على مخزون هائل من المعرفة الدينية والفكرية والعقلية التي تهدي الناس وتنير سبيلهم في الحياة الدنيا والآخرة. إنه استمد أصوله من كتاب الله. ومن هذا الكتاب حاور المسلمون الأمم التي اختلطوا بها بالعقل وصفاء الروح ونقاء الوجدان : ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم** ﴾[1]. ومثل هذا الفكر الذي لم يهمل خطاب العقل والروح والجسد أحق بالاستمرار والبقاء، لأنه غني بالثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأجيال ﴿ **وهذا صراط ربك مستقيما، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون** ﴾[2].

وأي تحريف عن النهج الذي تأصل في الحضارة الإسلامية بالعقل، والفكر النير، والوجدان السليم، والوسطية والاعتدال، سيجعل مسيرة الفكر والثقافة التي تتطلع إليهما

(1) سورة الأنعام، الآية 116.

(2) سورة الأنعام، الآية 127.

الأمة الإسلامية في العصر الحديث تخرج عن الهدف المنشود في عصر تتسابق فيه الأمم بخطى سريعة لإثبات وجودها بالعلم والفكر.

أما جهود علمائنا القدامى، وبعض المحدثين في الدرس البياني القرآني، فقد كانت جهودا طيبة، أبانت عما يحتويه هذا الكتاب العزيز من دلالات ومعان وتراكيب، دلت على إعجازه، وبلوغه أسمى درجة في التعبير البياني، لاسيما حينما قارنوا بيانه بما جاء في شعر العرب وخطبهم، إذ دل بيان القرآن السامي على خلوه من كل اضطراب وعوج وإبهام وإشكال، أما بيان العرب البلغاء والفصحاء، وإن علوا في بيانهم، وبلغوا المرتبة العالية فيه مقارنة بأدب الأمم الأخرى، فإن الباحث فيه يجد بجانب الجيد المتوسط والرديء، فهو أدب يسمو وينزل؛ وهذا ما لا تجده في كتاب الله، إذ لا ترى إلا سموا يبهر الدارسين لضروب البيان والأساليب.

وينبغي الإشارة هنا إلى قضية ذات دلالة في التفسير البياني لكتاب الله خاصة، وتفسير معانيه عامة. فهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وسيظل هذا الكتاب العزيز ملازما لهذه الأمة تستنير بهديه، لكن هذه الإنارة لا ينبغي أن تتحول إلى فوضى واضطراب في تأويل آياته البينات وفق الأهواء والخواطر، أو جعل آياته ميدانا للتجارب في كل ما يظهر عند الأمم الأخرى من سبق علمي ؛ فكتاب الله هو كتاب عقيدة قبل كل شيء، جاء لينير للناس الطريق، ويرشدهم إلى الإيمان والتقوى والهدى الذي يصلحهم في الدنيا، ويسعدهم في الآخرة؛ وقد تكفل رسول اللهﷺ بشرحه، وبيان ما غمض على المسلمين فيه، وفعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعون الذين ارتبطوا بأحكام الكتاب وسنة المصطفى، عليه السلام. ولهذا ينبغي لمن يقدم على شرح كتاب الله أن يدرس آراء السلف، وهم القدوة لنا، وأن يستنير بأقوالهم، وأن يكون ملما بأصول وقواعد اللغة العربية في بيانها ونحوها وصرفها، لأن لغة القرآن نزلت بهذه اللغة ؛ كما لا يجب أن يغفل إشارات علماء البلاغة والبيان. أما العلوم الحديثة من طب وكيمياء وفيزياء ونظريات علمية أخرى فهي علوم تتطور تبعا للتطور العلمي الذي تشهده الحضارة الحديثة، وما يعد الآن نظرية علمية متطورة قد تتغير مع الزمن، ومع تطور العلوم، ولهذا لا ينبغي أن نجعل كتاب الله يساير هذه العلوم بالإكراه والتعسف، وإقحام كل ما جد فيها؛ فحسب هذا الكتاب أنه يدعو الناس إلى التدبر في الكون والحياة، والى التسابق إلى العلم في جميع الميادين، و كانت أول آية نزلت على المصطفى قد دعته للقراءة. فالعلم أساسي وضروري وواجب على كل

مسلم، وما ينبغي تقديمه للأمم الأخرى على أساس أننا أمة العلم، هو السبق في البحث العلمي وتطويره كما فعل أسلافنا في عصور ازدهار الحركة الفكرية والعلمية في دولة الإسلام، أما أن تكون تلك الأمم سباقة إلى العلم والاختراع، ونحن لا نفعل شيئا، وإنما نكتفي بالقول بأن هذه المخترعات قد أشار إليها كتابنا العزيز، فهذا لا يمثل حقيقة هذا الدين الذي دعا إلى العمل وأخذ العلم، وتطوير البحث العلمي في جميع المجالات التي تسعد الإنسان. فعلى هذه الأمة أن تعود إلى ما دعا إليه الإسلام في آية كريمة، ألا وهي القراءة أولا وأخيرا، لأنها المدخل إلى العلم والمعرفة، وعلو هذه الأمة على سائر الأمم.

فهرس المصادر والمراجع

ـ الأحكام الصغرى، ابن العربي المعافري الإشبيلي، تحقيق سعيد أحمد أعراب، منشورات الإيسيسكو.

ـ إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر.

ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت 1978م.

ـ بديع القرآن، ابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، ط 1، 1955م.

ـ البديع في التراث النقدي والبلاغي، تأليف الدكتور محمد الحجوي، ط 1، 1996م.

ـ البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة جامعة بغداد، ط 1، 1967م.

ـ بناء القافية وطرق تأصيلها، دراسة نقدية، تأليف الدكتور محمد الحجوي، ط 1، 2002م.

ـ البيان والتبيين، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1960م.

ـ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط. 1.

ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف بمصر.

ـ التصوير البياني : دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد أبو موسى، منشورات جامعة قار يونس، ط 1، 1978م.

ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، ط 6.

ـ الحيوان، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط 1، 1938م.

ـ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، ط 2.

ـ دلالات التراكيب : دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، الدكتور محمد حسنين أبو موسى، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط 1، 1979م.

ـ ديوان حسان بن ثابت النصاري، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت.

ـ ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، 1981م.

ـ ديوان أبي العتاهية، تحقيق الدكتور شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965م.

ـ ديوان حافظ إبراهيم.

ـ رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، أبو القاسم الشريف السبتي، تحقيق وشرح الدكتور محمد الحجوي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، 1996م.

ـ سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الحلبي، تحقيق علي فوده، ط 1، 1932م.

ـ سنن أبي داود، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.

ـ السيرة لابن هشام، تحقيق وشرح المجموعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ صحيح البخاري، المطبعة الأميرية ببولاق، 1314هـ.

ـ ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط 1، دار الكتاب العربي.

ـ طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، 1974م.

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف بمصر، 1914م.

ـ كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط 1، 1981م.

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، ضبط وتصحيح حسين أحمد، ط 1، 1946م.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، ط 1.

ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن بن عيسى العلمي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1960م.

ـ اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م.

ـ مجاز القرآن، أبوعبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي.

ـ المزهر، جلال الدين السيوطي، تحقيق جاد المولى، علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر.

ـ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، تقديم نعيم زرزور، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط 1، 1983م.

ـ المفضليات، المفضل بن محمد الضبي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط 6، دار المعارف.

ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الإمام شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، ط 1، 1979م.

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 2، بيروت، 1981م.

ـ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق الدكتور علال الغازي، ط 1، 1979م.

ـ الميثاق الوطني، مجموعة من النصوص في الإصلاح التربوي والتعليمي، منشورات وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي، المغرب.

ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الدكتور علي سامي النشار، دار المعارف، 1971م.

ـ النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو الحسن الرماني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

ـ نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ط 1، 1980م.

ـ نقد النثر المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي، ط. 1.

ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت.